

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٢٥ - رجب ١٤٢٤هـ سبتمبر ٢٠٠٣م

ALFAISAL MAGAZINE - NO. 325 - SEP. 2003

- الحرية الأكاديمية في الجامعات الأجنبية
- العالم الإسلامي بين نهاية التاريخ وصدام الحضارات
- دار الوثائق القومية: ذاكرة السودان

بسم الله الرحمن الرحيم



مجلة ثقافية شهرية . العدد ٣٢٥ . رجب ١٤٢٤ هـ . سبتمبر ٢٠٠٣م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 325 - SEP. 2003

ضوابط النشر

يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.

لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.

يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.

في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.

لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.

المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.

يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.

نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.

الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.

لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي « رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».

يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:

- يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
- يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
- التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
- تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصًا القديم منه.
- ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

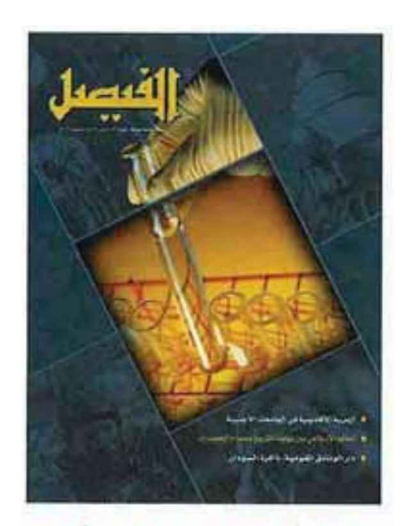
السعودية ٨ ريالات . الكويت ٦٥٠ فلس . الإمارات ٧ دراهم . قطر ٧ ريالات . البحرين ٧٥٠ فلس . عُمان ٧٥٠ بيسة . الأردن ٥٠٠ فلس . اليمن ٦٠ ريالاً . مصر جنيهان . السودان ٧٠ دينارًا . المغرب ٨ دراهم . تونس دينار واحد . الجزائر ٨٠ دينارًا . العراق ٤٠٠ فلس . سورية ٣٠ ليرة . ليبيا ٨٠٠ درهم . موريتانيا ١٠٠ أوقية . الصومال ٢٠٠٠ شلن . جيبوتي ١٥٠ فرنك . لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية . الباكستان ٢٠ روبية . المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية . الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع . هاتف٤٨٧١٤١٤(٠١)، فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر . مؤسسة توزيع الأهرام . شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ . فاكس ٣٣٩١٠٩٦ . ٢٠٢ ... سورية . المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ . ١١، ٠٠٩٦٣، تونس . الشركة التونسية للصحافة، ٣نهج المغرب . ص.ب ٧١٩، فاكس ٧١٣٣٢٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ . ٧١ . ٠٠٢١٦، قطر . دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع . ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٣٨٢ . فاكس ٤٦٦١٨٦٥ . ٠٠٩٧٤، الأردن . شركة وكالة التوزيع الأردنية، ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ . فاكس ٤٦٣٥١٥٢ . ٦، ٠٠٩٦٢، البحرين . مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ . فاكس ٥٣١٢٨١ . ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة . مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ . فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ . ٤ . ٠٠٩٧١، الكويت . شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ . فاكس ٢٤١٧٨٠٩ . ٠٠٩٦٥، المغرب . الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ . ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية . القائد للنشر والتوزيع ت: ٢٠١٩٠١/٢ . ٣ . ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧







الحرية الأكاديمية في الجامعات الأجنبية

الحرية الأكاديمية هي حق المعلّم أو المتعلّم أو الباحث في استقصاء مجالات المعرفة والتعبير عن رأيه دون خوف أو وجل من التدخل القسري أو القيود أو الطرد. فالحرية الأكاديمية تتساوى مع حرية الكلمة وحرية الصحافة وحرية العبادة كصفة جوهرية يتميز بها المجتمع الديمقراطي. وقد تتبع الباحث في هذا الموضوع الجدل الذي أثير حول موضوع الحرية الأكاديمية في الجامعات الأجنبية والقيود التي فرضت عليها من خلال تاريخ التعليم منذ العصر القديم.

إدارة التحرير

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ .
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ . ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات.
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠ . ٠٢٥٨



الدوريات والانتظار المُر

إن مجلة «الفيصل» الغراء هي من الدوريات القليلة في الوطن العربي التي تحترم الكاتب، فتبلغه بوصول مقاله ومآله، ولكن معظم الدوريات تتعامل مع الكتاب باستعلاء بل باحتقار.

يمضي الكاتب ليله في خط إبداعه بدم قلبه، وسهر جفونه واحمرارها، ثم يرسله مطبوعًا بنسخة ورقية ومسجلاً على قرص مرن بالبريد المضمون، مقرونًا بعبارات الاحترام والتقدير وشيء من التملّق إلى رئيس تحرير المجلة التي يعتزّ بها وتنسجم مع توجهاته الفكرية. وينتظر أيامًا وأسابيع وشهورًا فلا يصله جواب من المجلة مطلقًا فيتمثل قول الشاعر الجاهلي:

عدّي السنينَ إذا رحلتُ لعودتي

ودعي الشهور فإنهنَّ قصارُ

فالكاتب العربي لايدري ما إذا كانت مادته قد قبلت أم لا؟ وكثيرًا ما ينتظر الشهورَ الطوال دون أن تنشر مادته، وقد يخشى أن تفوت المناسبة التي أُعدّت من أجلها. فيكاتب المجلة سائلاً عن مصير تلك المادة، فلا جواب ولا حياة لمن تنادي، وفي هذه الحالة يفترض أن المادة قد رُفضت، فيعيد طباعتها وتسجيلها على قرص مرن لإرسالها إلى دورية أخرى قد تكون أكثر ترحيبًا بها، لأنه يريد أن يقوم بواجبه ويؤدي رسالته ويبلّغ صوته إلى الجمهور. فالكتاب، مهنة ورسالة، على صاحبها أن يؤديها بأمانة ويثابر على إبلاغها. وفجأة يجد الكاتب أن الدورية الأولى قد صحت من غفوتها بعد شهور طويلة من السبات والسكوت، ونشرت المادة نفسها في الوقت الذي نشرتها الدورية الثانية. وعند ذاك يُتهم الكاتب بأنه خرق قاعدة «عدم نشر المواد التي سبق نشرها»، واقترف جريمة لا تغتفر، حتى وإن كانت هي ذاتها تخرق تلك القاعدة فتنقل أحيانًا أخبارًا ومقالات لأدباء مشهورين من دوريات أخرى تصدر في قطر آخر، من دون استئذان وبلا إشارة إلى الاقتباس، ومن غير أي شعور بالحرج أو الإحراج.

لم يعد الكاتب العربي يطالب الناشرين بحقوق التأليف المشروعة التي تؤدي إلى تنشيط الحياة الثقافية وتفعيل النهضة الحضارية، إضافة إلى كونها مقابل ضئيل لما يبذله من جهد فكري وجسدي في إعداد إنتاجه. ولم يعد الكاتب العربي يطالب المجلات والصحف بتخصيص جوائز تشجيعية سنوية لكتّابها كما تفعل الدوريات الأوربية والأمريكية، ولا يطالب مؤسسات البحث العلمي بتخصيص منح تمكّن الكاتب من التفرغ لإنجاز دراساته وإعداد مقالاته، كما هو الحال في البلاد المتمدنة. كل ما يرجوه الكاتب العربي اليوم قليل من الاحترام يتمثل في الإجابة عن رسائله، وهو أمر لا يكلف مالاً كثيرًا ولا جهدًا كبيرًا، مجرد نسخة من استمارة مطبوعة جاهزة يُضاف إليها عنوان المقال وإشارة بسيطة أمام كلمة مقبول أو مرفوض، إجراء بسيط ولكنه يدل بعمق على الذوق السليم واحترام حقوق الإنسان.

أكتب إليكم كل هذا، لأنني أرسلتُ مقالي «..........» إلى مجلة شهرية أتعامل معها في عاصمة عربية. ولأن المجلة لم تنشر لي مقالين سابقين، ولم ترد على رسائلي المتعددة، تأكد لي أنها لن تنشر هذا المقال، هو الآخر. لذا قمتُ بإرساله إليكم. وفي اليوم التالي، أبلغني احد الأصدقاء أنه اطلع على المقال منشورًا في العدد الأخير لتلك المجلة، فشعرتُ بالإحراج والخجل. فأنا حريص على أن تنشر مجلتنا «الفيصل» المواد الجديدة، لأنها مجلة رائدة.

ارجوكم أن تقبلوا اعتذاري، و«العذر عند كرام الناس مقبولُ». ولكي أعوّض عن هفوتي اتشرف بإرفاق مادة جديدة بعنوان «التداخل اللغوي والتحول اللغوي: هل تؤثر العامية أو اللغة الأجنبية في اللغة العربية الفصيحة؟». وهي دراسة قيمة من المضنون به على غير أهله، استقيتُ معظم مراجعها من بحوث على شبكة المعلومات الدولية لم تُنشر ورقيًا لحد الآن. آملا أن تروق لكم وتحظى بالنشر

في مجلتنا «الفيصل».

وتفضلوا بقبول أصدق عبارات المودة والتقدير والاحترام.

د.علي القاسمي

الدار البيضاء ـ المملكة المغربية.

التحرير:

نقدّر لكل الكتّاب ما يبذلونه من جهد ووقت في إعداد مقالاتهم، لذا تحرص المجلة على الرد على استفساراتهم أولاً بأول كما تأخذ في الحسبان ملاحظاتهم واقتراحاتهم، وإذا كان قد حدث تأخير في الرد على أي منهم فإنه غير مقصود، وقد يكون تأخيرًا خارجًا عن إرادتنا، لأن كثرة المواد التي ترد إلى المجلة في فترة معينة تحول دون الإسراع في نشر بعض المقالات وقد كتبت المجلة من قبل لعدد من الكتاب خطابات في هذا الشأن.

نكرر ترحيبنا بكل الآراء ونشكركم على أمانتكم العلمية. وبالنسبة الى مقال « التداخل اللغوي والتحول اللغوي » فقد تم نشره بالعدد ٣٢٤.

فنون إسلامية

أنا أستاذ فن الخط بالمعهد العالي للفنون الجميلة بسوسة (تونس)، وباحث أكاديمي في مجال الفنون. أطلب منكم تمكيني من نشر بعض المقالات حول الفنون الإسلامية ولا سيما فن الخط: تاريخه ـ آدابه ـ أنواعه ـ مصطلحاته ... في الحقيقة أني معجب بمجلة الفيصل الغراء لما تقدمه من أبحاث جادة في شتى المعارف لذا أكون سعيدًا بأن أحظى بهذا الشرف.

تفضلوا قبول فائق الاحترام والتقدير والسلام.

فرج إبراهيم

مساكن القبلية ـ تونس

التحرير:

تحرص المجلة على نشر كل ما له صلة بالتراث الإسلامي عامة والتراث العربي الإسلامي على وجه الخصوص، لذا نرحب بمقالاتك في مجال تخصصك فهي ستأخذ طريقها إلى النشر إذا تمت إجازتها، وليتك تطلع على شروط النشر الواردة في الصفحة الثالثة.

ردود سريعة

الأخ محمد سعيد ـ عدن ـ اليمن:

نشكر لك إطراءك للمجلة وما ينشر فيها، ونؤكد لك اهتمام المجلة بآراء قرائها، وبخصوص اقتراحك بعرض بعض الكتب وتلخيصها فهذا ديدن المجلة الذي دابت عليه منذ إنشائها، ونحن على استعداد لنشر كل ما يصلنا من القراء إذا كان مستوفيًا لشروط النشر في المجلة، أما بخصوص كشاف المجلة فقد كان مستمرًا حتى العدد ٢٧٦ الصادر بتاريخ جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ، وقد توقف مؤقتًا لأننا بصدد تطويره وإخراجه بصورة جديدة.

الأخت لواحظ عبدالفتاح علي بهنسي ـ محافظة البحيرة ـ مصر:

مشكلة التوزيع من المشكلات التي ظلت تؤرق بال القائمين على أمر المجلة، وهي مشكلة متشعبة تدخل فيها عوامل كثيرة، وسنعمل على حلها مع النظر في زيادة الكمية، أما بخصوص تأخر وصول المجلة في الأشهر الفائتة فقد كان لظروف خارجة عن الإرادة ولكنها زالت الآن بحمد الله، وسنخضع رأيك بشأن المسابقة لمزيد من الدراسة والتشاور، ونشكر لك تواصلك مع المجلة، ونتمنى لك الفوز بإحدى جوائزها.

الأخ هيثم أحمد محمد عبدالمجيد ـ محافظة الشرقية ـ مصر:

نتمنى لك عاجل الشفاء، ونطمئنك أن الفوز بجوائز الفيصل يخضع لمعايير نزيهة يتساوى فيها جميع القراء، دون تدخل من إدارة المجلة، مع تمنياتنا لك بالفوز بإحدى الجوائز في السحوبات القادمة.





حصن مارد في دومـ



تركي بن إبراهيم القهيدان

القصيم ـ السعودية

تعد دُوْمَة الجَنْدَل المدينة الثانية في منطقة الجوف بعد سكاكا، وهي أهم مدن منطقة الجوف بشكل مطلق من الوجهتين التاريخية والأثرية (١). وهي تقع جنوب غرب سكاكا حاضرة الجوف في الوقت الحالي، وتبعد عنها نحو ٤٠كم بخط مستقيم، ويفصل بينها وبين مدينة حائل النفود الكبرى وهذا اسمه في الوقت الحاضر، أما قديماً فيعرف عند الجغرافيين الأوائل بـ (رملة عالج).

وكان الجوف يعرف سابقاً بجوف آل عمرو نسبة إلى بطن كبير من قبيلة طي يسكن شمال النفود الكبرى، وكان اسم (الجوف) إذا أطلق (سابقاً) إنما يعني دُومَة الجَنْدَل ذاتها دون غيرها من مدن المنطقة وقراها (٢). وفي الوقت الحاضر يقصد بالجوف للدلالة على المنطقة بشكل عام، كما يستعمل على النطاق المحلي للدلالة على دُومَة الجَنْدَل (٣). والبيئة في منطقة الجوف شبيهة بالبيئة بمنطقة القصيم، من حيث وفرة المياه، ونوع التربة، والظواهر التضاريسية وخصوصًا الحافات الصخرية والكثبان الرملية. وقد أجريت في المنطقة عدة حفريات آثارية، ومن أهم أعمال الحفائر الأثرية في دُومَة الجَنْدَل حفرية سنة ١٤٠٦هـ (٤)، ومع ذلك فالمنطقة بحاجة إلى من يميط اللثام عن كنوزها الأثرية. وإذا تناولنا (حصن مارد)، نجد أنه بلا شك من أهم المواقع الأثرية في دُومَة الجَنْدَل. بل كان يحتل المرتبة الأولى في المنطقة من حيث الأهمية الحربية منذ العهد الآشوري وحتى القرن الماضي.

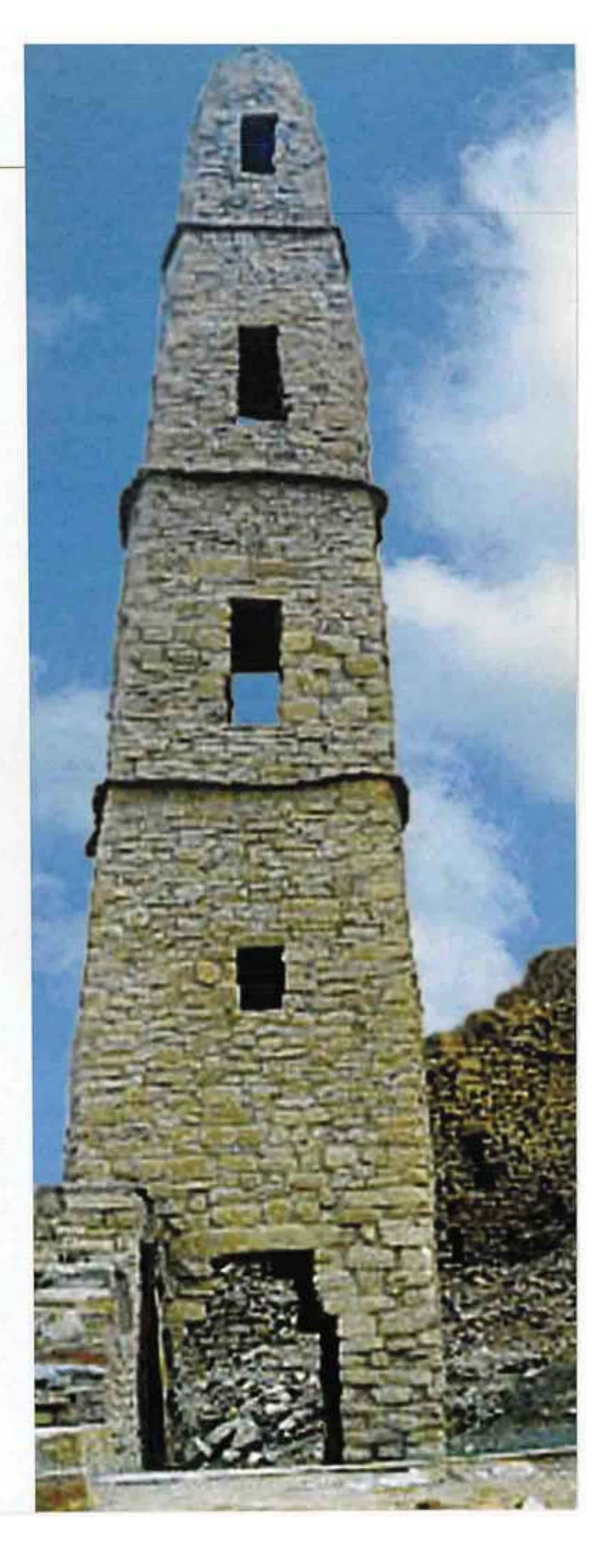
الموقع

يقع حصن مارد جنوب غرب مسجد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وتحديداً في دُومَة الجَنْدَل في أرفع قمة بالمنطقة، ومن خلالها يستطيع المرء مشاهدة المنازل والمزارع ومساحات كبيرة من المناطق المجاورة.

لمحة تاريخية

هذا الحصن لا يعرف له تاريخ محدد، ولا سبب لتسميته، ومن المرجح أن كلمة (مارد) مشتقة من القوة والامتناع، ويمثل قصر مارد حصناً منيعاً تتوافر فيه جميع وسائل المنعة بالنسبة إلى حاكم المدينة، وتعد السيطرة على هذا الحصن رمزاً للقوة والسلطان ومعنى بليغاً للهيمنة على المنطقة منذ كانت دومة الجندل عاصمة لملكة عربية متزامنة مع العهد الآشوري في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد (٥).

ومارِدٌ كما يذكره ابن منظور: حِصْنُ دُومةِ الجندل: المحكم: ومارِدٌ حِصْن معروف غزاه بعض الملوك فامتنع عليه. فقالوا في المثل: تَمَرَّدَ ماردٌ وعَزَّ الأَبْلَقُ، وهما حصنان بالشام: وفي التهذيب: وهما حصنان في بلاد العرب غزتهما الزباء: قال المفضل: كانت الزباء سارت إلى مارد حِصْن دُومة الجندل وإلى الأَبْلَق، وهو حصن تَيْماءَ، فامتنعا عليها فقالت هذا المثل، وصار مثلاً لكل عَزيز مُمْتَنع (٦).



هذا الحصن لا يعرف له تاريخ محدد، ولا سبب لتسميته، ومن المرجح أن كلمة (مارد) مشتقة من القوة والامتناع، ويمثل قصر مارد حصناً منيعاً تتوافر فيه جميع وسائل المنعة

كذلك أشار صاحب كتاب القاموس المحيط إلى أنه حِصْنٌ بدُومَةِ الجَنْدَلِ حين قال: التَّمْرِيدُ في البناء: التَّمْليسُ. والتَّسْوِيَةُ. وبِناءٌ مُمَرَّدٌ: مُطَوَّلٌ. والمارِدُ: المُرْتَفِعُ والعاتي ،وقُوَيْرَةٌ مُشْرِفَةٌ من أطْرافِ خَياشيمِ الجَبَلِ المَعْروفِ بالعارِضِ، وحِصْنٌ بدُومَةِ الجَنْدَلِ، والأَبْلَقُ حِصْنٌ بتَيْماءَ، قَصَدَتْهُما الزَّبَّاءُ، فَعَجَزَتْ، فقالتْ: «تَمَرَّدَ مَارِدٌ وعَزَّ الأَبْلَقُ» (٢).

وقال ياقوت: مَارِدٌ: بكسر الراء، والدال، موضعان؛ والمارد والمَريد: كل شيء تمرد واستعصى، ومرد على الشر أي عَتَى وطغى، وقد يجوز أن يشتقّ من غير ذلك إلا أن هذا أولى: وهو حصن بدومة الجندل، ومارد أيضاً في بيت الأعشى:

شَاقَتَك من قَتَلَةَ أطلالُها
بالشَّطِّ فالوتْرِ إلى حاجِرِ
فرُكْنِ مِهْرَاسَ إلى مَارِدٍ
فقَاعِ مَنْفُوحَةَ ذي الحَائرِ

وقال الأعشى أيضاً:

جِدَّك وَدَّعْتَ الصِّبَا والولائدا
وأصبحتَ بعد الجور فيهن قاصدا
وما خلت أن أبتاع جهلاً بحكمة
وما خلت مهراساً بلادي ومساردا

وقالوا في تفسير بعض الكلمات: مهراس ومارد

ومنفوحة من ارض اليمامة، وكان منزل الأعشى من هذا الشق. وقال الحفصي: مارد قُصيرٌ بمنفوحة، جاهليٌّ (٨).

وقال البكري في تفسير معاني بعض الكلمات: الحائرُ: حائر مَلْهَم باليمامة، والحائر: بناء، المِهْرَاسُ: موضعان أحدهما موضع باليمامة كان من منازل الأعشى. قالوا: كان الأعشى ينزل هذا الشقّ من اليمامة.. وهذا غير المِهْراس الذي قِبَلَ أُحُد. ومَاردٌ: حصن بدومة الجندل، وبينه وبين الأبلق ليلة (٩).

والأَبْلَق بفتح الهمزة: حِصْنُ السَّمَوْأل بن عَادياء: مذكور محدود في رسم تَيْماء، وهو الأَبْلَقُ الفَرْد، الذي تَضربُ به المَثلَ العَرَبُ في الحَصانة والمَنَعة.. وقال الأَعْشَى:

بالأَبْلَق الفَرْدِ من تَيْماءَ منزلُهُ
حِصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غَدَّارِ (١٠).

وتعرض حصن مارد إلى فترات من الخراب والهدم والتدمير، مما أدى إلى تهدم بعض جدرانه، ثم يعاد بناؤها وترميمها مرة أخرى، وفي القرن الثالث الميلادي كان حصناً منيعاً حيث استعصى على الزباء فتحه، والزباء هذه قتلت في حدود سنة ٢٧٣ للميلاد (١١). ويقال إنه أعيد بناؤه في عهد الاكيدر في صدر الإسلام (١٢).

وخلال زيارة الرحالة الفنلندي (جورج) أكد أن قلعة مارد خربة وخالية من السكان بقوله: تنتصب قلعة مارد القديمة مواجهة للشمال فوق جرف من الجبل الكلسي، وتطلّ على الجوف والوادي بكامله. وهي خربة خالية من السكّان، تبدو وكأنها مركز البلدة، فقد شيّدت حولها الأسواق والأحياء (١٣).

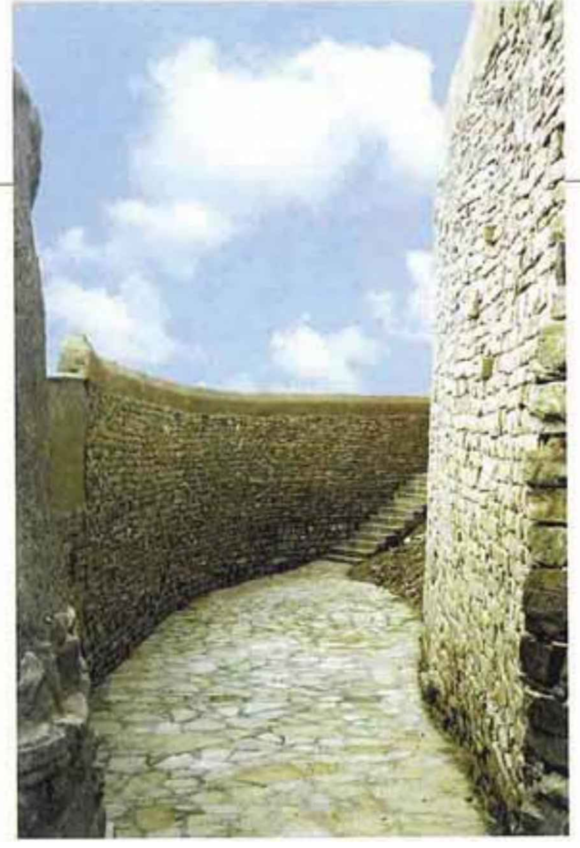
وخلال القرون الثلاثة الماضية شهدت هذه القلعة حروباً شديدة ولا سيما بين إمارة دومة الجندل وابن رشيد في حائل، ففي عام ١٢٦٩هـ تعرض الجدار الخارجي للقلعة وبعض الأبراج للكثير من الهدم والتدمير عندما هاجمها سطام بن شعلان، ولكن بعد ذلك احتل طلال بن رشيد القلعة وسيطر عليها، وفي سنة ١٣٢٧هـ استعادها نواف الشعلان بعد حصار دام عشرة أشهر (١٤).

وفي سنة ١٣٤١هـ أُسست إمارة منطقة الجوف في عهد جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود، وفي سنة ١٣٥١هـ انتقل مقر الإمارة من دومة الجندل إلى سكاكا (١٥).



الحصن وقد اجري عليه بعض الترميمات

يقع الحصن فوق قمة تل ويحيط به سور من جميع الجهات، وشكل البناء الأصلي مستطيل إلاّ أن بعض الإضافات بما فيها أبراج مخروطية أحدثت فيه في أزمنة متأخرة


ممر يؤدي إلى قمة الحصن

المشاهدات الميدانية

في يوم الجمعة ٢ شوال١٤٢٣هـ الموافق ٦ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٢م قمتُ برحلة ميدانية إلى مواقع أثرية في شمال الجزيرة العربية بصحبة أحمد بن عبدالعزيز الشيبان والدليل أحمد بن سليمان الشقيق، وكان من أهم المشاهدات الميدانية قصر مارد بدومة الجندل.

ويقع هذا الحصن فوق قمة تل ويحيط به سور ضخم من جميع الجهات، وشكل البناء الأصلي مستطيل إلاَّ أن بعض الإضافات بما فيها أبراج مخروطية أحدثت فيه في أزمنة متأخرة (١٦).

ويتكون هذا الحصن من عدة أدوار مبنية بحجارة مهذبة رسوبية متوسط الحجم؛ وفي الدور العلوي للقصر تظهر بعض الجدران والأبراج، البعض منها مبني بصخور متوسطة الحجم ومطلية بمونة طينية، والبعض الآخر يبدو أنه مبني بطوب من الطين المضغوط وبمونة طينية، وفي داخل الحصن شاهدتُ بئرًا مطوية بالحجارة يظهر من خلال طيها المحكم انها قديمة، وقد أكد ابن جنيدل أنّ ماءها لا يصلح للشرب بقوله: غير أنّ ماءها لا يصلح للشرب، وفيه قصَبة متصلة بأدوار الحصن يستقى منها ماء عذب، يتصل بداخل الحصن بواسطة قناة تنبع من عين من عيون البلدة القديمة وقد نفّذت القناة تحت أرض الحصن، ووصّلت بها قناة نافذة يستقى منها، وهذه القصبة مازالت عامرة (١٧).

أقول: ذكر لي أحد الأهالي أن هناك سراديب تحت سطح الأرض في قصر مارد، وهذا ما أكده ابن جنيدل في موقع اخر حين قال: شاهدت تحت الحصن أنْفَاقاً، قد تكون وضعت لاتّصال المياه أو للاتّصال من البلدة الواقعة تحت الحصن إلى الحصن، أو إلى المزارع، وقد تهدم أكثرها (١٨).

أقول: يبدو لي أن هذه البئر كانت المصدر الرئيس للمياه لمن يحاصر داخل القلعة، بل ربما أنها وسيلتهم الوحيدة للتزود بالماء، ومن المحتمل أن مياهها كانت عذبة ثم أصبحت غير صالحة للشرب بعد أن هجرت. شانها شأن الكثير من الآبار المهجورة في جزيرة العرب، ومما يؤكد أهمية هذه البئر أنها محفورة لمسافة عميقة ومطوية بالصخر وطيها محكم.

وعندما صعدتُ إلى قمة القصر شاهدتُ في الجهة الشمالية جدارًا متصدعًا آيلاً للسقوط، ولفتت نظري كثرة المنازل الحجرية وبقاياها المتهدمة في البلدة القديمة، وهي تحيط بالقصر ويظهر خلفها غابات من

تعرض حصن مارد إلى فترات من الخراب والهدم والتدمير، ثم أعيد بناؤه وترميمه مرة أخرى، وفي القرن الثالث الميلادي كان حصناً منيعاً حيث استعصى على الزباء فتحه

أطلق الجغرافيون القدماء على وادي السرحان (بطن السر) ولقب الجوف قديماً (وادي النفاخ)

النخيل في أرض منخفضة، وفي الجهة الشمالية الغربية لفت نظري منحدر تربته رمليه، وهو خال من المنشآت العمرانية، ويبدو أنه موقع مقبرة قديمة.

وعثر في قلعة مارد على نقش نبطي في الممر الشرقي بالطابق العلوي. وكتب هذا النقش ذو الحروف الجميلة المنسقة على طبقة من الجص كانت تغطي جزءاً من الحجر.. وبقية هذا النص تصعب قراءتها نتيجة لتحطم الطبقة الجصية (١٩).

وفي أثناء عمل المجسات بالقرب من «قصر مارد» عثر في الطبقات الدنيا على مجموعة متجانسة من الفخاريات الرومانية النبطية تنتمي إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين (٢٠). وخلال أعمال الترميمات في سنتي ١٤٠٩ و١٤١٠هـ، عثر على قطع من الفخاريات النبطية المميزة أهمها كان مسرجة مكتملة مصنوعة من الفخار الأحمر المائل إلى الصفرة رقيق جداً، ينسب إلى العصر النبطي من دون تردد (٢١).

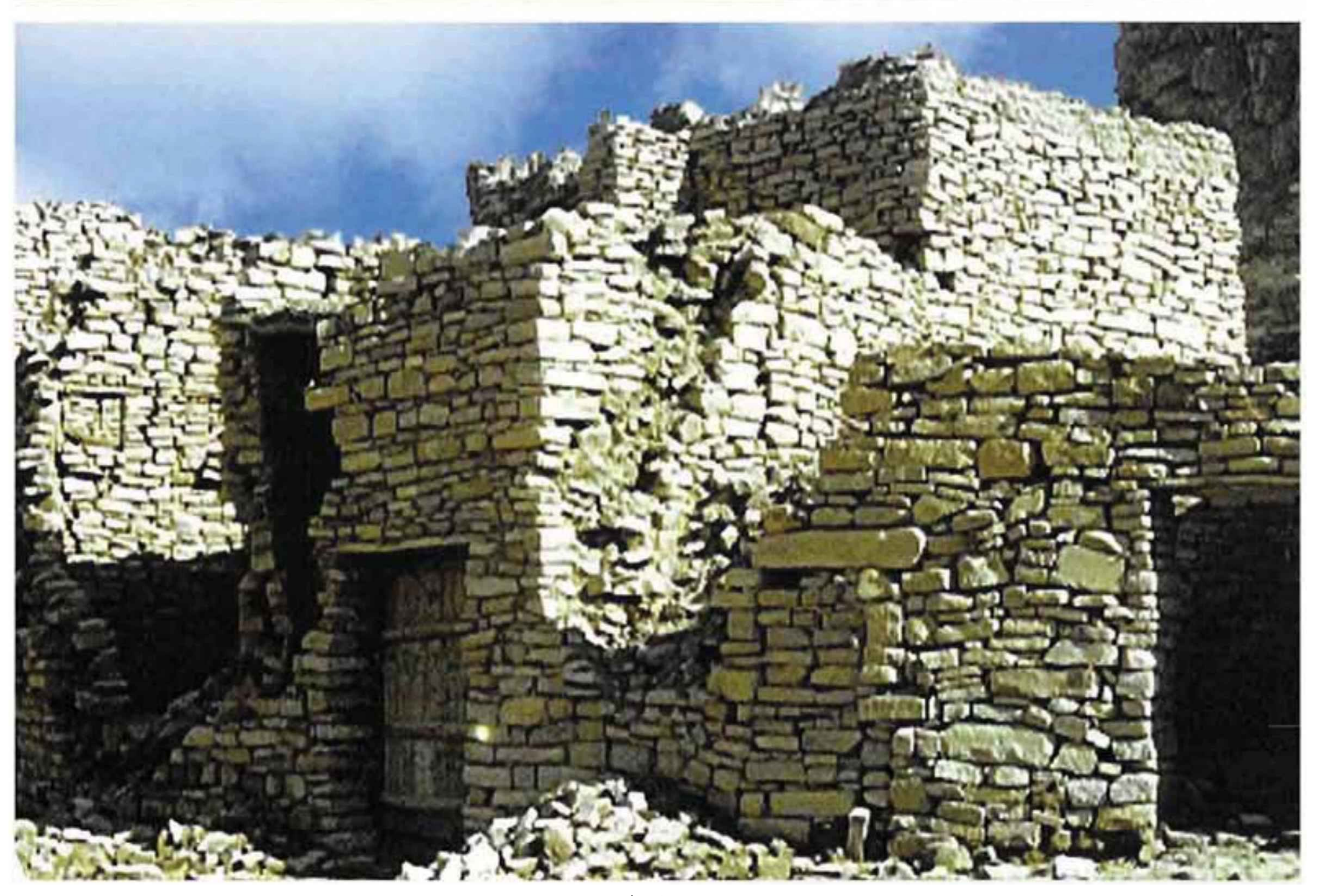
وقد تبيّن لي بعد المشاهدات الميدانية أن بعض الترميمات في القلعة - التي قامت بها وكالة الآثار والمتاحف في سنة ١٤١٠هـ - بنيت بطريقة مشوهة ومخالفة لما كانت عليه البناية الأصلية، ويمكن لأي زائر أن يستنتج ذلك من خلال مشاهدة المونة المستخدمة في الترميم، كما وقفتُ على جانب من جدار رمم مؤخراً، وقد جاء بصورة مشوهة - أفقد القلعة جزءًا من جمالها، فالمونة المستخدمة تظهر على سطح الجدار الخارجي! والأصل أنها تنحصر في الحشوة الداخلية للجدار، وهذا هو المتبع في الجدران القديمة، بل استخدمت في أعمال الترميم مونة إسمنتية، وقد أوقفت من رافقني عليها، ومما أفقد القلعة جمالها الأحجار الجديدة المستخدمة في الترميم بينما هناك الكثير من الحجارة المتهدمة من الجدران بل هناك حول القلعة أكوام من الحجارة.

الجدير بالذكر أن الأستاذ الدكتور سليمان بن عبدالرحمن الذييب أستاذ الكتابات العربية القديمة في قسم الآثار في جامعة الملك سعود، وقف عند زيارته للقلعة على ما ذكرتُ آنفاً - في أثناء أعمال الترميم - واطلع



السور الذي يحيط بالحصن

على الترميمات الحديثة، وأشار إلى أن السلم الحجري بني بطريقة مخالفة لما كان عليه السلم الأصلي، كما أشار إلى استخدام حجارة جديدة، ومونة مختلفة عن المونة الأصلية (٢٢)، وهذا توافق يدل على أن الترميمات الحديثة



عوامل التعرية وقد بدأت تظهر بوضوح

التي ذكرتُها آنفاً ما هي إلاَّ ترميمات مشوهة ومخالفة لما كانت عليه البناية الأصلية.

وأحب أن أنبه هنا إلى أن هناك خلافاً بين الباحثين حول تحديد موقع قصر مارد حسب ما ورد في قصة وأبيات الشعر المشهورة عن ميثاء وسلطان مارد، ولأهمية ذلك. وخصوصًا أن في مناطق الرياض والقصيم والجوف قصوراً تحمل اسم قصر مارد. سأخصص حلقة خاصة عن تلك القصور، وأبين اللبس حول أبيات الشعر عن ميثاء وسلطان مارد، فبعض الباحثين ينسبون قصة مارد وأبيات الشعر إلى قصر مارد بالقصيم، والبعض الآخر ينسبها إلى قصر مارد بالجوف.

توصيات

- عمل لوحات إرشادية عن الموقع الأثري لتعريف الزائر بالمعلومات المهمة مثال على ذلك: الاسم، نبذة تاريخية عنه.
- إصدار دليل أو مطوية أو كتيب للتعريف بالمواقع السياحية والأثرية بالمنطقة، إذ تبين لي ذلك بعد

المقابلات الشخصية مع بعض السياح الأجانب أنهم بحاجة إلى من يرشدهم، ويزودهم بكتيب عن أهم المواقع السياحية.

- توفير بعض الخدمات قرب المواقع الأثرية المهمة، كالمتنزهات والمنشآت الترفيهية.
- الاستفادة من خبرات الدول المتقدمة في هذا المجال.
- كانت زيارتي لهذه المواقع المهمة في إجازة عيد الفطر المبارك (١٤٢٣هـ)، ولفت نظري عدم وجود مسؤول أو مختص في تلك المواقع السياحية والأثرية المهمة. لذا أرى. والرأي للمعنيين. أن تكون المتاحف والمواقع الأثرية متاحة للزيارة طوال أيام الأسبوع وخلال الإجازات الرسمية ولاسيما أيام الأعياد. علماً أنني سبق وأن نشرتُ هذا الاقتراح في جريدة الجزيرة، بعددها ١٠٢٦٠ وتاريخ٤ شعبان١٤٢١هـ. تحت عنوان «آثار الأمة: لسان تاريخها، مقترحات وآراء لتحسين المواقع الأثرية»!!! وياليت المعنيين بعد القرار الصائب بضم وكالة الآثار إلى الهيئة العليا للسياحة يبحثون هذا الاقتراح.

المراجع والهوامش

١. مفضي، عارف، (١٤٠٨هـ)، الجوف. سلسلة هذه بلادنا (١٨) الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض، مطابع جامعة الملك سعود، ص١٩

٢- المصدر نفسه، ص١٢.

٣- السديري، عبدالرحمن بن أحمد. الحوف. وادي النفاخ، شركة ماكميلان لما وراء البحار المحدودة، المملكة المتحدة، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، المملكة العربية السعودية. ص٣.

٤- لمزيد من التفصيل حول تقرير أعمال البعثة ونتائجها، انظر: اطلال، حولية الآثار العربية السعودية، (١٤٠٩هـ)، العدد الحادي عشر، الإدارة العامة للآثار والمتاحف بوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية، ص:٤٥.

٥- مفضي، عارف، (١٤٠٨هـ)، الجوف، سلسلة هذه بلادنا (١٨)، الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض، مطابع جامعة الملك سعود، ص٣٩ . ٤٠.

٦- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، لسان العرب المحيط. المجلد ٣، ص ٤٠٠.

٧- الفيْروزآبادي، أبو طاهر مجدُ الدين محمدُ بنْ يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي، القاموس المحيط، الطبعة الثالثة، (١٤١٣هـ)، مؤسسة الرسالة. باب الدال. فصل الميم، رسم: مَرَدَ.

٨ الحموي، ياقوت. معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت. ١٤٠٠هـ ج٥، ص٣٨.

٩- البكري، ابو عبيدالله بن عبدالعزيز الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.

١٠- المصدر نفسه.

١١- الجاسر، حمد. في شمال غرب الجزيرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض. ص١٠٩.

١٢- لسديري، عبدالرحمن بن احمد. الجوف. وادي النفاخ، شركة ماكميلان لما وراء البحار المحدودة، المملكة المتحدة، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، المملكة العربية السعودية. ص٨١.

١٣ ابن جنيدل، سعد بن عبدالله، (١٤٠١هـ)، بلاد الجوف، او دُومة الجنْدل، الطبعة الأولى، منشورات دار اليمامة، الرياض، ص ١٠١.

١٤ السديري، عبدالرحمن بن احمد. الحوف. وادي النفاخ، شركة ماكميلان لما وراء البحار المحدودة، المملكة المتحدة، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، المملكة العربية السعودية. ص٧٩.

١٥ مفضي، عارف، (١٤٠٨هـ)، الجوف، سلسلة هذه بلادنا (١٨)، الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالرياض، مطابع جامعة الملك سعود، ص ١٧ . ١٨.

١٦- السديري، عبدالرحمن بن أحمد. الجوف. وادي النفاخ، شركة ماكميلان لما وراء البحار المحدودة، المملكة المتحدة، مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، المملكة العربية السعودية. ص٧٩.

١٧ ابن جنيدل، سعد بن عبدالله، (١٤٠١هـ)، بلاد الجوف، أو دُومة الجنْدل، الطبعة الأولى، منشورات دار اليمامة، الرياض، ص ١٠٠.

١٨- المصدر نفسه، ص ١٠٣.

١٩- المعيقل، خليل، والذييب، سليمان (١٤١٧هـ)، الأثار والكتابات النبطية في منطقة الجوف، الطبعة الأولى، الرياض، ص١٧٤.

٢٠- اطلال، حولية الأثار العربية السعودية، (١٣٩٧هـ)، العدد الأول، إدارة الأثار والمتاحف بوزارة المعارف السعودية، ص ٤٤.

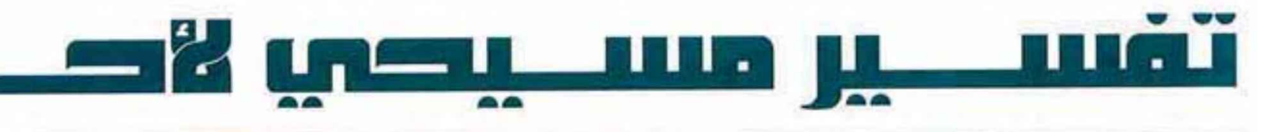
٢١- المعيقل، خليل، والذييب، سليمان (١٤١٧هـ)، الأثار والكتابات النبطية في منطقة الجوف، الطبعة الأولى، الرياض، ص٣٧.

٢٢ المصدر نفسه، ص٣٣ . . ٣٤.

✥ مصادر الصور : الكاتب والإنترنت






تفسير مسيحي لأحـ



بشير العيسوي

الرياض ـ السعودية

سيظل الحادي عشر من سبتمبر لعام ٢٠٠١م لغزاً تجتهد فيه جميع عقول المفكرين والإعلاميين. الواعون منهم والغوغائيون، يحاول كل على حدة أن يقدم تفسيراً لما حدث، ويسعى هذا التفسير إلى إقناع جمهوره أن ما حدث لم يكن تجنبه ممكناً. فقد ثبت أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA ومكتب التحقيقات الفيدرالي FBI قد تلقيا تحذيرات بوقوع هجمات على منشآت داخل الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أنه وعلى لسان مستشارة الأمن القومي الأمريكي، كونداليزا رايس، فان الخطر لم يكن تصوره بهذا الحجم وبهذه الجدية. وتصورت أن الأمر قد يكون عبثاً لثقتها المفرطة في الأجهزة الأمنية الأمريكية، وإن وقع هجوم فلن يصل حجم دماره إلى ما وصل.

والمهم أن المخابرات المركزية الأمريكية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ومعهما وزارة الدفاع الأمريكية The Pentagon بما لها من أذرع طويلة وقصيرة- كانت جميعاً موجودة، لكنها لم تمنع وقوع ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

الطفل المدلل

ويأتي دكتور جيمس دوبسون James Dobson وهو رئيس جمعية الحفاظ على الأسرة، ومؤلف كتاب تربية صوت من أجل الأسرة Bringing Up Voice ليسأله لاري كنج في برنامجه الشهير Larry King Live! :«أين كان الله يوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م» ويجيبه دوبسون، الذي يعطي هذه المرة تفسيراً دينيًا مسيحيًا صرفاً لما حدث: «كان الله موجوداً. ووجوده لا يعني منع وقوع الشر. ونحن نعرف هذا في الكتاب المقدس». وهذه مقدمة إيمانية رائعة إن هو استمر في اعتمادها في بقية حديثه الذي دام ساعة على الهواء مع السيد لاري كنج وبرنامجه المتميز في تبني قضايا تصب في النهاية في مصلحة أمن إسرائيل وسلامتها والنظر إليها كطفل مدلل يتربص به الصبية العرب والمسلمون الذين يمثلون غالبية كبرى في حارة اليهود !! فالإيمان بوجود الله وحمده على كل سار ومكروه من صفات التقوى والإيمان. وليس للمؤمن أن يجزع من قضاء الله وقدره والا فسد إيمانه. هكذا بدأ دكتور دوبسون تفسيره الديني لما حدث في ١١/سبتمبر (أو كما يسميه الأمريكيون ٩١١ الآن وهذا هو رقم طلب النجدة الموحد في جميع الولايات المتحدة الأمريكية، ربما سخرية وربما تسهيلاً واختصاراً). ويبدو على وجه دكتور دوبسون الكثير من صفات التسامح والإيمان، إلا أن ذلك المظهر لا يتفق مع المخبر. فعندما سأله لاري كنج: «لماذا لم تتخذ مهنة كنسية للدعوة إلى المسيحية؟» قال: «لم يسمح لي قدري بذلك. لكنني اليوم وأنا على برنامجك هذا أخاطب مئات الملايين وأتحدث لهم عن المسيح وأدعو له. وهذا يعوضني عن عملي في كنيسة في مكان ما في أمريكا». فالرجل قانع وراض عن حياته وهذا سمت ثان أو ثالث في شخصية دكتور دوبسون. وسرعان ما أضيف سمت رابع إلى شخصيته عندما أجاب عن سؤال لاري كنج

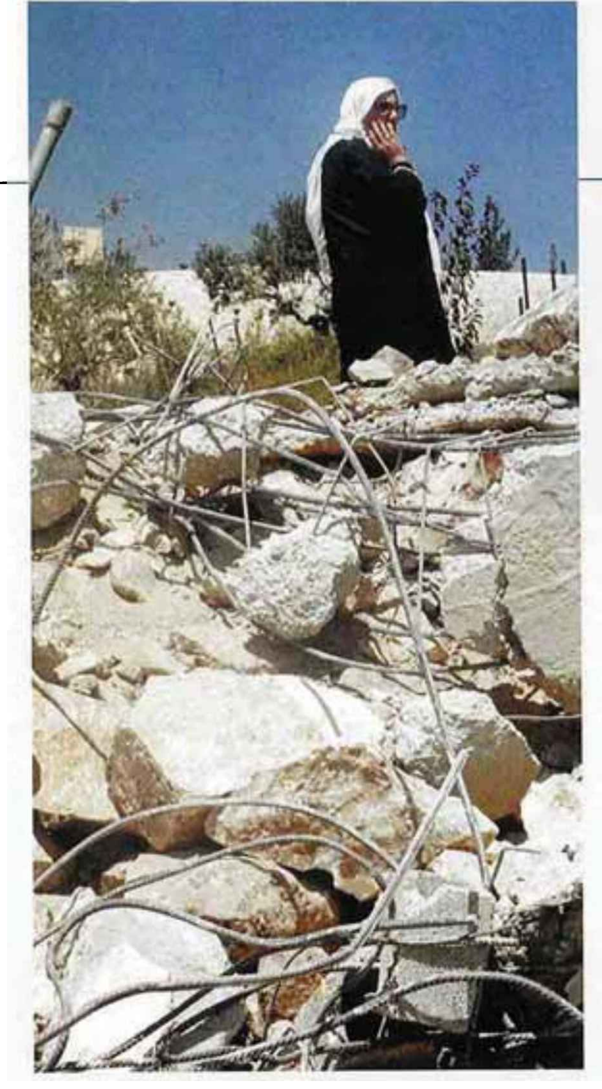
الآتي: «هل كان هؤلاء الذين خطفوا الطائرات مؤمنين؟» وأجاب دكتور دوبسون: «نعم، كانوا مؤمنين، ولكني لا أفهم أي مفهوم للإيمان ذلك الذي يقتل الأبرياء؟». وهنا علينا أن نتوقف أمام كلمة إيمان belief في الإنجليزية، فهي لا تعني الاعتقاد فقط، كما أنها لا تعني على لسان دوبسون شيئاً غير الإسلام.

خطأ من؟

فالرجل حريص أيما حرص ألا يخدش شعور أي من سامعيه ومنهم المسلمون بالطبع، إلا أنه مع بداية دخوله إلى الموضوع يقدم فهماً للإسلام على أنه دين يُحل قتل الأبرياء ويستبيح دمهم، وبالطبع سيقول الكثيرون إن الخطأ خطؤنا، وإن الذنب ذنبنا، فنحن مقصرون، وكان يجب أن نتكلم إلى الأعزاء الأمريكيين حول صون النفس في الإسلام والديات والجروح والقصاص وشهادة الشهود العدل في كل قضية على حدة، وأن النفس البشرية لا تقتل إلا بدم ثبت سفكه بعد أن ينظر القاضي المسلم والشهود العدل في القضية من جميع جوانبها، وأن لدينا محاكم تمييز واستئناف وسلطة المفتي وسلطة رأس الدولة خليفة كان أو ملكاً أو رئيساً أو أميراً- إلا أن السيد دوبسون عالم بكل ذلك، وهذا ما يزيح عن صدورنا الشعور بالذنب للتقصير في الدعوة. فقد اتضح سريعاً أن الرجل من المسيحيين الصهاينة الذين يربو عددهم على الأربعين مليوناً، وهؤلاء يعتقدون اعتقاداً جازماً ان إسرائيل هي الأرض المختارة ليظهر فيها المسيح ثانية ليعبده المسيحيون مرة ثانية عن حق وتقوى، وأنه لكي يحدث ذلك يجب أن تُطهر ارض إسرائيل- التي لم تعرف حدودها حتى الآن ولن تعرف حدودها مستقبلاً- من كل مسلم كي يظهر المسيح عليه السلام ويعبده أهل الذمة من المسيحيين كيفما شاءت تقواهم. هذه الأسطورة نشرتها جماعات الضغط اليهودية منذ بدايات القرن التاسع عشر في الغرب وأمريكا واستقطبت في أمريكا وحدها ما يربو على أربعين مليوناً من المسيحيين الأمريكيين، ومنهم مفكرون وقادة ورؤساء أمريكيون، منهم الرئيس جيمي كارتر (ولد ١٩٢٤م) الذي حكم الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من (١٩٧٧ إلى١٩٨١م) والرئيس رونالد ريجان (١٩١١م) الذي حكم الولايات المتحدة في الفترة من (١٩٨١ إلى ١٩٨٩م)، ووزير الدفاع الأمريكي الأسبق كاسبر واينبرجر، إلا أن الرئيس جورج بوش الابن يحاول البرهنة على أنه أكثر إخلاصاً وولاء من أي من سابقيه في حب إسرائيل والإيمان برسالتها السماوية العظمى. «اذا كانت الحركة الصهيونية المسيحية انطلقت من الأدبيات الدينية للكنيسة البروتستانتية في بريطانيا

وهولندا وألمانيا، فإن الولايات المتحدة الأمريكية حملت شعلة هذه الحركة وسهرت - ولم تزل - على قيادتها حتى إن ثمة اعتقاداً يجري تعميمه وترسيخه في الضمير الديني الأمريكي فحواه أن الله يعاقب من يسيء إلى إسرائيل ويُحسن إلى من يساعدها، وأنه ببركة دعم الولايات المتحدة لإسرائيل تتنزل بركات الله على الشعب الأمريكي رزقاً وخيراً وأمناً وسلامًا» [1].

يقول دوبسون: «الحرب ضد الغرب وإسرائيل بدأت عام ١٩٧٩م مع قيام الثورة الإيرانية واحتلال السفارة الأمريكية في طهران». والنظر في هذا التصريح - لغوياً - واجبٌ فهو يفيد الكثير. هناك حرب - على حد قول دوبسون - ضد الغرب مجتمعاً ويقصد به اوربا بكل دولها، مضافاً إليها روسيا والبلقان، وربما تركيا التي قُبلت في حلف الأطلنطي بعد جهد جهيد ثم امريكا ولا يُقصد بها الولايات المتحدة الأمريكية فقط وإنما يضاف إليها كندا، ونزولاً تُضاف إلى الغرب القارة الأسترالية. ذلك من الناحية الجغرافية الديموجرافية، أما من ناحية المفهوم، الذي لا يرتبط بأرض أو وطن، فإن الغربي هو كل من حمل أفكار مفكري الغرب ومعتقداتهم ويندرج تحت ذلك كل من درس في المدارس الغربية - بمفهوم الغرب الواسع - وكل من تكلم لغات الغرب على تعددها، وبخاصة الإنجليزية. الا أن إضافة إسرائيل إلى الغرب تعدّ نشازاً - فإن كان الغرب على اتساعه الذي صورناه - أو نتصور انه هكذا، يوجد فيه سمات مشتركة common characteristics من لون أو عرق أو مصالح، أو ثارات وعداوات، استدعت الوحدة والارتباط حيناً واستدعت الفيدرالية والكونفدرالية أحياناً أخرى، فإسرائيل ليست غربية استناداً إلى الجغرافية، فهي تقع في آسيا، وفي الجزء الجنوبي منه وليست قريبة من البلقان أو روسيا حتى يشفع لها ذلك القرب في غربيتها أو تغربها. وثانياً، لا يتكلم الإسرائيليون لغة رسمية غير العبرية. صحيح ان هناك أعراقًا يهودية عاشت كأقليات أوربية، إلا أن اللغة العبرية والأم اليهودية هما الأساس في منح المواطن الإسرائيلي جنسيته الإسرائيلية. وثالثاً لا تربط إسرائيل بالغرب علاقات اقتصادية متكافئة. يضاف إلى ذلك ميزان الشحاذة الذي يرجح لمصلحة إسرائيل، في جميع أرجاء دول الغرب، بادئين بجماعات الضغط اليهودية التي تمثل جماعات جباية مبتذلة منذ مطلع القرن العشرين وإلى الأبد. واقفين عند المبالغ الهائلة التي تدفعها ألمانيا ودول أوربية أخرى تعويضاً عن الهولوكوست Holocaust (وهي تعني - لغويًا - المحرقة أو الإبادة الكاملة، إلا أن معناها اختزل ليعني - سياسياً - اليهود الذين حرقتهم النازية الهتلرية)، ويكفي ذكر هذه الكلمة - الهولوكوست - لترتعد فرائص أي زعيم ألماني أو



ويظل الدمار صفة ملازمة لإسرائيل

نمساوي من شاكلة شرودر أو فالدهيم حتى يعلن عدوله عن احتقار أو حتى إبداء رأي مخالف لأسطورة الهولوكوست. فالتجريد من المنصب والزج في السجن هما اقل ما يُنتظر من محبي ارض الله «إسرائيل المطهرة».

أما الشق الثالث في هذه الجزئية من حديث دوبسون، وهو الخاص بتحديد العام ١٩٧٩م بداية للحرب الإسلامية على إسرائيل والغرب وكذا بداية الحروب بين المسلمين والغرب، فهذا التاريخ يثير الغرابة بالقدر نفسه الذي يثير أسئلة حول النوايا الحسنة والسيئة لداعية مسيحي. فحد علمي أن الحروب بين المسلمين والغرب بدأت فيما يعرفه طلاب المرحلة الابتدائية . في أرجاء الدنيا . بالحروب الصليبية الأولى والثانية والثالثة والرابعة. وكانت بداياتها القرن الحادي عشر وامتدت إلى الثاني عشر حتى الثالث عشر للميلاد، فضلاً عن الفتوحات الإسلامية التي وصفت وتوصف بأنها غربية قديماً وحديثاً، إلا أن الرجل يرمي من وراء هذا التاريخ، تحديداً، إلى ظهور الإسلام السياسي متمثلاً في ثورة الإمام الخميني (١٩٠٠ . ١٩٨٩م) عام ١٩٧٩م التي قضت مضجع الغرب وهددت مصالحه. فالغرب كان ينظر إلى إيران الشاه، وشاه إيران محمد رضا بهلوي (١٩١٩ .١٩٨٠م)، على أنهما شرطي المنطقة gendarme. وكان وجود الشاه يغني الغرب عن خوض أي حرب قذرة أو نظيفة ضد دول المنطقة، وحينما سقط نظام الشاه . مطلع العام ١٩٧٩م . كان على الغرب بزعامة أمريكا أن يقوم بدور الشرطي بنفسه. ومن هنا جاءت حرب الخليج الأولى والثانية، ومن هنا تحمل الغرب هماً على هم وغماً على غم- فلماذا لايُعدّ العام ١٩٧٩م بداية الحرب ضد الغرب، من وجهة نظر غربية صرفة؟ لكن كيف وجهت هذه الحرب ضد إسرائيل أيضاً؟ هذا ما لا افهمه وهذا ما لا يفهمه الكثيرون. وكما هو معروف فان احتلال السفارة الأمريكية في طهران وارتهان خمسين أمريكياً فيها لم يكن يعني إسرائيل وقتها في قليل أو كثير. وقد كان الأمر شكلاً من أشكال الصراع بين خصمين: إيران الخمينية والولايات المتحدة الأمريكية بزعامة جيمي كارتر الذي حكم الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من ١٩٧٧م إلى ١٩٨١م. فالربط بين هذه الحادثة وبداية الحرب على الغرب ربط غير موفق ولست أرى انه ينطلي على أحد الا اذا أراد دوبسون، ومن سار في فلكه، أن يؤرخوا لظهور الإسلام السياسي المعاصر.

عنصرية

بعد ذلك يُبين دوبسون عن وجهه الحقيقي، ويظهر



لنا شخصيته العنصرية حينما يقول: «المسيح علمنا السلام، أما محمد فليس بالقدر الكبير - يقصد من تعليم السلام «not that much». وقد أردف لاري كنج موضحاً لمشاهديه أن السيد دوبسون من أشد مؤيدي إسرائيل، وكأنه - بهذا التوضيح - يهيئ عقول مشاهديه كي يقبلوا هذا الافتراء على محمد ودينه في سبيل المحبوبة المدللة - إسرائيل. وهنا أخذ دوبسون يدلف إلى مستنقع المسيحية الصهيونية قائلاً: «إسرائيل محاطة بأعدائها - لقد أو جدها الله في هذه المنطقة. هناك ستة ملايين يهودي يحيطهم أربعمئة مليون مسلم فلماذا لا نؤيدهم (يقصد الستة)؟». هذه المغالطات التاريخية الكثيرة هي المتبادلة وهي المعتمدة في الغرب ولكثرة تكرارها أصبحت شبه حقائق لا تقبل الجدل - عند الغرب على الأقل. ولذا نجد انفسنا في حوار «طرشان» مع الغرب. إسرائيل لديهم ذات قيمة دينية، أما نحن فقيمة دنيوية - والمؤمن يوقن أن الديني باق والدنيوي زائل. وهم يعتقدون أن الملاذ الوحيد لهم من النار هو في تأييد إسرائيل. وأن هذا العمل هو المطهر، بضم الميم وكسر الطاء مع التشديد مرة، وفتح الميم وتسكين الطاء مرة ثانية - purgation وpurgatorial. فالذي أو جد إسرائيل هو الله، ونسي الباحث المحترم الحروب التي بين العرب وإسرائيل ١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ثم ١٩٧٣م. ونسي الصراع الداخلي في فلسطين بين الأقلية اليهودية التي كان عددها ٩٦٩٠ شخصاً حتى عام ١٨٣٩م وكانت تمثل حتى عام ١٩٤٨م عشرة بالمائة من سكان فلسطين، وكان الفلسطينيون يمثلون تسعين بالمائة، الا ان سياسات التهجير والطرد والترانسفير transfer، ضد الفلسطينيين ولمصلحة اليهود، قلبت موازين الديموجرافيا فأصبح الفلسطينيون لا يتعدون المليونين والإسرائيليون - زوراً - يقاربون الستة ملايين. وصحيح أن إسرائيل محاطة بأربعمئة مليون مسلم ولكن



دوبسون

هؤلاء لا يكنون كثيراً من العداء لإسرائيل بسبب اتفاقات السلام المباركة وبسبب ما فعلته في مقرراتنا الدراسية وبسبب انشغال هؤلاء الأربعمئة مليون ببطونهم وبسبب أننا نتطاحن فيما بيننا. ولننظر إلى مجتمعاتنا في أكبر الدول التي يخشى دوبسون خطرها على إسرائيل: الأم تقتل أبناءها، الأب يقتل ابناءه، الأخ يقتل أخاه، الزوجة تقتل زوجها وتضعه في أكياس حفظ اللحوم بالثلاجات، الابن يقتل أباه وأمه - لأسباب لايمكن قبولها وكذا لايمكن تصورها، فضلاً عن تصديقها. أما على مستوى الدول، فحروب بين كل دولتين متجاورتين ولعل التلميح يغني عن التوضيح، ويكفي احتلال العراق الكويت، في ٢ أغسطس ١٩٨٩م، مثلاً فعليًا، ليس هناك خطر على



محاولة لفرض الواقع بالقوة

إسرائيل من جيرانها الذين يعيشون على هامش حركة التاريخ ويسير شبابهم متيمين بالمغنين والمغنيات غربًا وشرقًا، ومعظمهم ادمن اكل الماكدونالدز وكي اف سي والبيتزا . وكلها من أفضال وفضلات الغرب. فما مصدر الخوف على إسرائيل والغرب من هؤلاء السكان سواء كانوا أربعمئة مليون أو أربعمئة مليار؟

وتأتي تصريحات دوبسون تترى: «لايهمني سواء قامت دولة فلسطينية أم لا. المهم هو أمن إسرائيل ... إن ما يقلقني هو قيام المراهقين بأعمال انتحارية ... صدام حسين طاغية وهو من فصيل هتلر وستالين. ولا أتصور إمكانية التفاوض مع أي من هذين الشخصين ... إن علينا أن نفعل ما يجب فعله». ويقاطعه لاري كنج: «هل يجب أن نلتزم فقط مقررات الأمم المتحدة؟» ويجيب دوبسون: «نعم، لكن يجب مساندة الرئيس فيما ذهب إليه». والرئيس جورج بوش الابن يعدّ الرئيس العراقي مسؤولاً عن محاولة قتل أبيه في الكويت في كمين بسيارة مفخخة. فقد تحول الموضوع الآن من سعي للقضاء على دولة ترعى الإرهاب العالمي إلى موضوع ثأر شخصي. أما بوش الابن فهو أكثر تشدداً وتطرفاً حيث يريد الثأر لمجرد محاولة فاشلة لا نعلم مدى صحتها ولا ندري ما اذا كانت ملفقة مدبرة أم أنها حقيقية؟

[هذا الحوار قبل الحرب الأمريكية البريطانية على العراق]

الجنس الفاحش

ثم ينتقل دوبسون إلى الحديث عن الواقع المر للمجتمع الأمريكي، عندما يسأله لاري كنج: «هل تغيرنا بعد احداث ١١/سبتمبر؟» فيجيب: «هناك وطنية وإحساس بالوحدة، والأسرة اتحدت مرة ثانية. وبدأنا نتحدث سوية ونبحث عن هويتنا. إن تأثير ١١/سبتمبر هو درس لنا ... هناك فساد في جميع جوانب الحياة

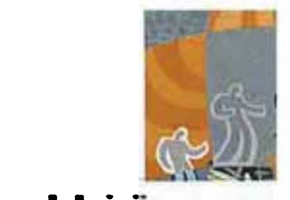
الأمريكية. فهناك الجنس الفاحش pornography على الإنترنت، ولدينا شر في كل مكان كما في العالم ... والجنس الفاحش مفتوح أمام الأطفال دون رقابة ... والأمر يبدو لي كمن يرى صفًا من النمل في بيته. اذا اردنا معرفة مكان عش النمل فيجب تتبع هذا الصف حتى نصل إلى أخره. والجنس الفاحش هو العش. وهو السبب في هذا الفساد». وبالطبع، تلك مأساة لا تعيشها امريكا فقط ولكن تعيشها كل أوربا وكثير من دولنا العربية الإسلامية. التي يخشى دوبسون خطرها على إسرائيل. فمعظم الدول الإسلامية لا تضع أي «فلاتر» على شبكة الانترنت، تظاهراً بالتقدم في مجال المعلوماتية. ولذا أصبح الدخول إلى مواقع الجنس الفاحش وغير الفاحش متاحاً لكل من لديه أي حاسب آلي وخط هاتف محلي. فالهم هذه المرة ليس أمريكياً غربياً، بل إسلامي عربي.

وبالطبع، تخلل البرنامج أسئلة من الجمهور أتت عبر الهاتف من جميع أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية والعالم. سألت سيدة من تورنتو: «هل تعتقد أن غير المسيحيين الذين ماتوا في أحداث ١١/سبتمبر سيذهبون إلى جهنم يوم الحساب؟» وقبل أن يجيب دوبسون بشيء، تدخل لاري كنج كقبطان يدير دفة الحوار، إلا أنه تدخل هذه المرة ليشكل إجابة السؤال. وبعد أخذ ورد، وبعد شد وجذب، صاغ دوبسون إجابته على النحو الآتي: «نعم، وذلك موافقة مني مع خمسمئة مليون مسيحي». وهذا الداعية المسيحي، يبدو في نظري ممن يتخلون عن كل تكليف في أصول المسيحية، وهي أصول لا تلغى الا اذا أريد النيل من الدين كعامل ضبط ومراقبة لسلوكيات المجتمع والحفاظ عليها في أفضل أحوال الفضيلة. وتمثل هذا التخلي في إجابته عن سؤال سيدة من أو ستن، تكساس: «ما هو موقف المسيحية من الزوج الذي يزني وبذلك يخون زوجته المسيحية، علماً أنها لاتزني وتعدّ ضحية لهذا الزواج؟» قال الداعية دوبسون: «أتفق معك في ذلك، هي ضحية، لكن المرأة المسيحية تستطيع أن تصبر وتحاول تغيير توجه زوجها لأنها الأقدر على ذلك». ولم يخض، بالطبع، في أي من أحكام الزنا ومعاقبة الزاني، ربما تخفيفاً على أحبائه المسيحيين، وربما خوفًا من الاتهام بالتطرف إن هو فكر في مجرد التذكير ولو بالوصايا العشر.

وعلى الرغم مما في هذه الساعة من برنامج لاري كنج «حياً»، الذي أذيع صباح الخميس ١٩ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٢م، من طُرف وأملوحات، تغص القلب وتلوع الفؤاد، وتنكد على أي مثقف حياته في عطلة نهاية الأسبوع، الا أن هذه الساعة تخللتها أربعة إعلانات رئيسة من دول عربية إسلامية، اثنان منها من دولتين تحيطان بإسرائيل يبدي دوبسون أشد تخوفه منهما. جاءت الإعلانات على النحو الآتي: وزارة السياحة في مصر، ثم وزارة الثقافة في سوريا، ثم وزارة السياحة في المغرب ومرة ثانية وزارة السياحة في المغرب. ومعروفٌ أن ساعة لاري كنج من أغلى وأعلى الساعات، في محطة CNN تسويقاً للإعلانات التجارية. فها هي ذي أموال المسلمين تُدفع لتمويل من يبث عداوات وخزعبلات ضد المسلمين. واذا كان في البلية ما يُضحك، فشرها.

الهوامش

١. محمد السماك، «المسيحية الصهيونية في أمريكا» (القاهرة: دار الشروق، وجهات نظر: العدد ٤١، يونيو ٢٠٠٢م)، ص٢٩





العالم الاسلامي

بين نهاية التاريخ وصـ



محمد نشطاوي

مراكش – المغرب

لقد انتهى الصراع بين المنظومتين الاشتراكية والرأسمالية باستسلام المنظومة الأولى، والاعتراف بعجزها عن مسايرة التطور العلمي والتقني والاقتصادي للبلدان الرأسمالية، وكان ذلك إيذانًا بتفكك الكتلة الشرقية، ونهاية الحرب الباردة بكل إفرازاتها الإيديولوجية والسياسية والعسكرية، وبداية مرحلة جديدة من سماتها الأساسية هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم وبروز مفهوم الأحادية القطبية، ولتفسير هذا التحول ظهرت أطروحات سياسية وأكاديمية لرسم ملامح العالم لفترة ما بعد الحروب الباردة.

فإذا كان فوكوياما قد عدّ ما وقع ليس مجرد نهاية لفترة الحرب الباردة، وإنما نقطة النهاية لتطور البشرية الإيديولوجي، وانتشار الديمقراطية الغربية في العالم بوصفها الشكل النهائي للحكم البشري وأنها تمثل نهاية للتاريخ (١)، فإن صامونيل هنتنغتون، قد عدّ ما حدث، بمنزلة تحول في طبيعة الصراع الدولي وتغيير في أطرافه من صراع بين إيديولوجيتين اشتراكية سوفييتية (شرقية) وليبرالية أمريكية (غربية) إلى صراع حضاري أطرافه الأساسية الدول الغربية المسيحية في مواجهة الدول العربية الإسلامية.

وقد أثار ذلك مخاوف وتوجسات كثيرة، فالنظام الدولي أصبح متعدد المراكز، مقسمًا ومعرضًا أكثر للانفجار ولتضخيم المشكلات القديمة، ولظهور مخاطر جديدة، حروب جمعوية، نزاعات قومية تغذيها غالبًا إيديولوجيا ارتدادية وثقافة المخاطر القومية وانتشار العنف والأزمات الاجتماعية (٢).

فكرة نهاية التاريخ

إن فكرة فوكوياما عن نهاية التاريخ La Fin de l'his-toire (٣) تبدو بسيطة إلى حد السذاجة، فالديمقراطية الغربية الحرة انتصرت، وانتصر الغرب معها، ولن يعود الآن أمام الأمريكيين والأوربيين ما ينتظرونه من جديد. لقد حدث هذا الجديد بانهيار الماركسية وتفكك الاتحاد السوفييتي، واعتماد الدكتاتوريات العقاندية السابقة وأغلب دول أوربا الشرقية للنظام الحر.

وحسب فوكوياما، فهناك توافق مدهش في السنوات الأخيرة، يتعلق بالديمقراطية الليبرالية بوصفها نظامًا للحكم، فالديمقراطية الليبرالية، بإمكانها أن تشكل منتهى التطور الإيديولوجي للإنسانية، والشكل النهائي لأي حكم إنساني، أي أنها من هذه الزاوية «نهاية للتاريخ».

فبينما كانت أشكال الحكم القديمة، تتميز بأخطاء خطيرة، وتناقضات لا يقبلها العقل أدت إلى إنهيارها، فإن بالإمكان الادعاء بأن الديمقراطية الليبرالية كانت خالية من التناقضات الأساسية.

يقول فوكوياما: «ليس هناك إيديولوجية أو عقيدة يمكن أن تحل محل التحدي الديمقراطية الغربي الذي يفرض نفسه على الناس، لا الملكية ولا الفاشية ولا

الشيوعية، ولا غيرها. وحتى أولئك الذين لم يؤمنوا بالديموقراطية، ولم يتبنوها منهاجًا لحكمهم أو حياتهم أو لعملهم، سوف يضطرون إلى التحدث بلغة ديمقراطية، ومجاملة التيار من أجل تسويغ الانحراف والدكتاتورية والتسلط الذي يمارسونه».

وحسب فوكوياما، فإن ذلك لا يرجع إلى كون الديمقراطيات الثابتة اليوم لم تعرف لا المظالم ولا المشكلات الاجتماعية الخطيرة. ولكن لأن هذه المشكلات كانت تنجم عن التطبيق غير الكامل لمبدأي الحرية والمساواة اللذين هما الركيزتان لأي ديمقراطية حديثة.

وفي نظر فوكوياما، فإن تطور المجتمعات بالنسبة إلى هيغل وماركس، ليس بلا نهاية، ولكنه قد يكتمل عندما تجد البشرية الشكل الاجتماعي الذي يشبع حاجاتها الأكثر عمقًا والأكثر أساسية.

وهكذا يكون المفكران قد وضعا «نهاية للتاريخ»، وتبدو هذه النهاية بالنسبة إلى ماركس في المجتمع الشيوعي، بينما تتجلى تلك النهاية بالنسبة إلى هيغل في الدولة الليبرالية.

هذا الانتصار الكاسح - في رأي فوكوياما - قد أغلق باب التاريخ، فلا جديد بعد اليوم إلا في حدود بعض الإصلاحات الطفيفة، لكن لن يتعد هذا ليصبح حدثًا تاريخيًا.

إن التهديد الإيديولوجي الذي وجهته الشيوعية ذات مرة للديمقراطية الحرة حسب فوكوياما - قد انتهى. ومع انسحاب الجيش الأحمر من أوربا الشرقية، أصبح التهديد العسكري أيضًا غير ذي موضوع. فالإيديولوجية الوحيدة المتجانسة التي تتمتع بشرعية حقيقية في هذا الجزء من العالم تظل هي الديمقراطية الحرة الليبرالية.

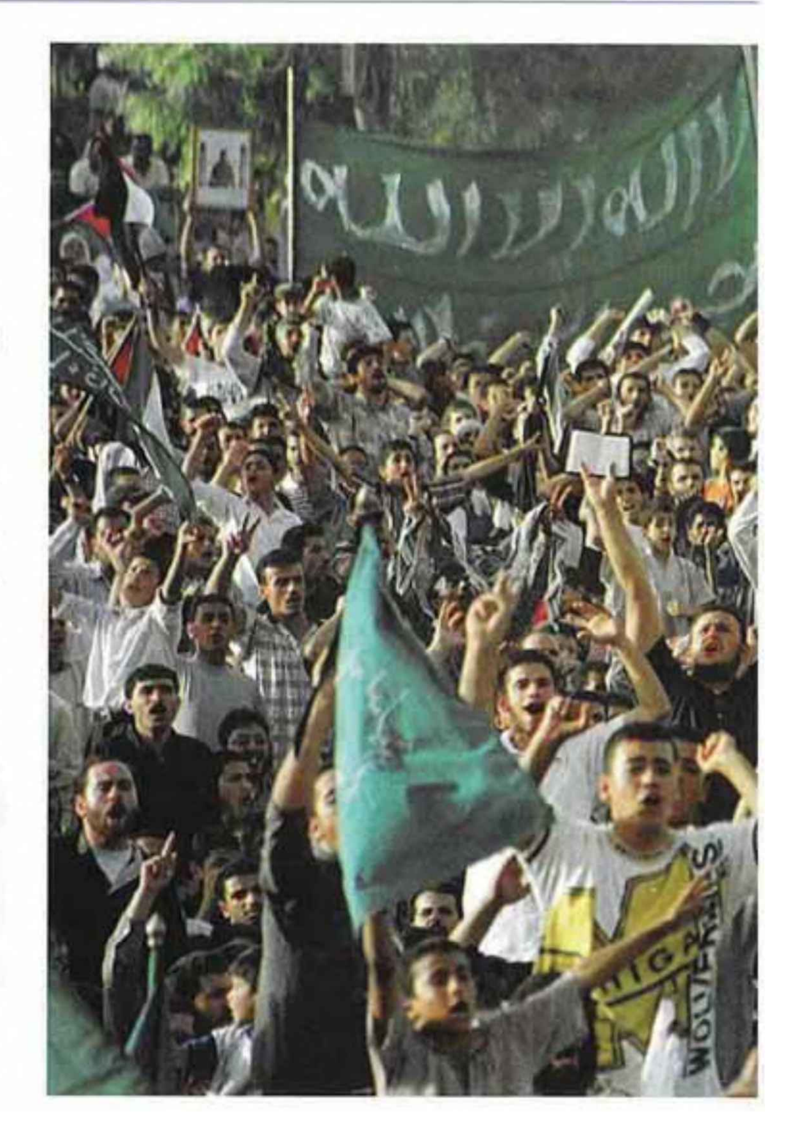
وفي حديثه عن الإسلام، يقول فوكوياما «إنه من الممكن استثناء الإسلام - مبدئيًا على الأقل - من هذا الحكم العام حول الإيديولوجيا المنافسة للديمقراطية، فالإسلام يشكل إيديولوجية متجانسة ومنظمة، مثله في



يوجد نحو مليار من سكان العالم تقريبًا ذوي ثقافة إسلامية

ذلك مثل الليبرالية والشيوعية مع دلالته الخاصة في الأخلاق ومذهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية. وقد هزم الإسلام في الواقع الديمقراطية الحرة في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، موجهًا تهديدًا خطيرًا للممارسات الليبرالية حتى في البلدان التي لم يستطع استلام السلطة فيها مباشرة.

وقد شهدت نهاية الحرب الباردة في أوربا تحديًا ساخرًا للغرب من قبل العراق الذي يشكل الدين



الإسلامي عاملاً مهمًا في تكوينه الإيديولوجي.

فهو إذًا يعدّ التحدي العراقي تحديًا إسلاميًا باعتبار الموروثات الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط.

وعلى الرغم من الحديث عن جاذبية الإسلام العالمية، إلا أن الحقيقة الواضحة والأكيدة حسب فوكوياما، هي أن هذا الدين ليس له جاذبية خارج المناطق ذات الثقافة الإسلامية. فقد انتهت أيام الغزوات الثقافية الإسلامية. وقد يكسب الإسلام أحيانًا أتباعًا ساخطين على أوضاع معينة، لكنه لا يقدم أبدًا إغراءات لدى الشباب في برلين أو طوكيو أو موسكو مثلا.

وبينما يوجد نحو مليار من السكان تقريبًا ذوي ثقافة إسلامية (نحو ١.٥ سكان العالم)، إلا أنهم لا يستطيعون تحدي الديمقراطية الحرة الموجودة في العالم على المستوى الفكري أو النظري (٤).

يقول فوكوياما: «إن الجنس (البشر) بالنسبة إليه يبدو كما لو كان قطارًا طويلا من العربات الخشبية التي تجرها الجياد متجهًا إلى مدينة بعينها عبر طريق طويل في قلب الصحراء، بعض هذه العربات قد حددت وجهتها بدقة ووصلت إليها بأسرع وقت ممكن، والبعض الآخر تعرض لهجوم من الأوباش (الهنود الحمر) فضل الطريق، والبعض الثالث أنهكته الرحلة الطويلة، فقرر اختيار مكان وسط الصحراء للإقامة فيه، وتنازل عن فكرة الوصول إلى المدينة. بينما من ضلوا الطريق راحوا يبحثون عن طريق بديلة للوصول إلى المدينة وفي النهاية يجد الجميع أنفسهم مجبرين على استعمال الطريق نفسه. ولو عبر طرق فرعية مختلفة. للوصول إلى غايتهم. وفعلاً تصل أغلب هذه العربات إلى المدينة في النهاية.

وهذه العربات عندما تصل لا تختلف عن بعضها البعض إلا في شيء واحد، هو توقيت وصولها إلى المدينة، سرعة أو بطأ بوصولها إلى الديمقراطية الليبرالية .. ومن ثم رحلتها الطويلة .. نهاية التاريخ»

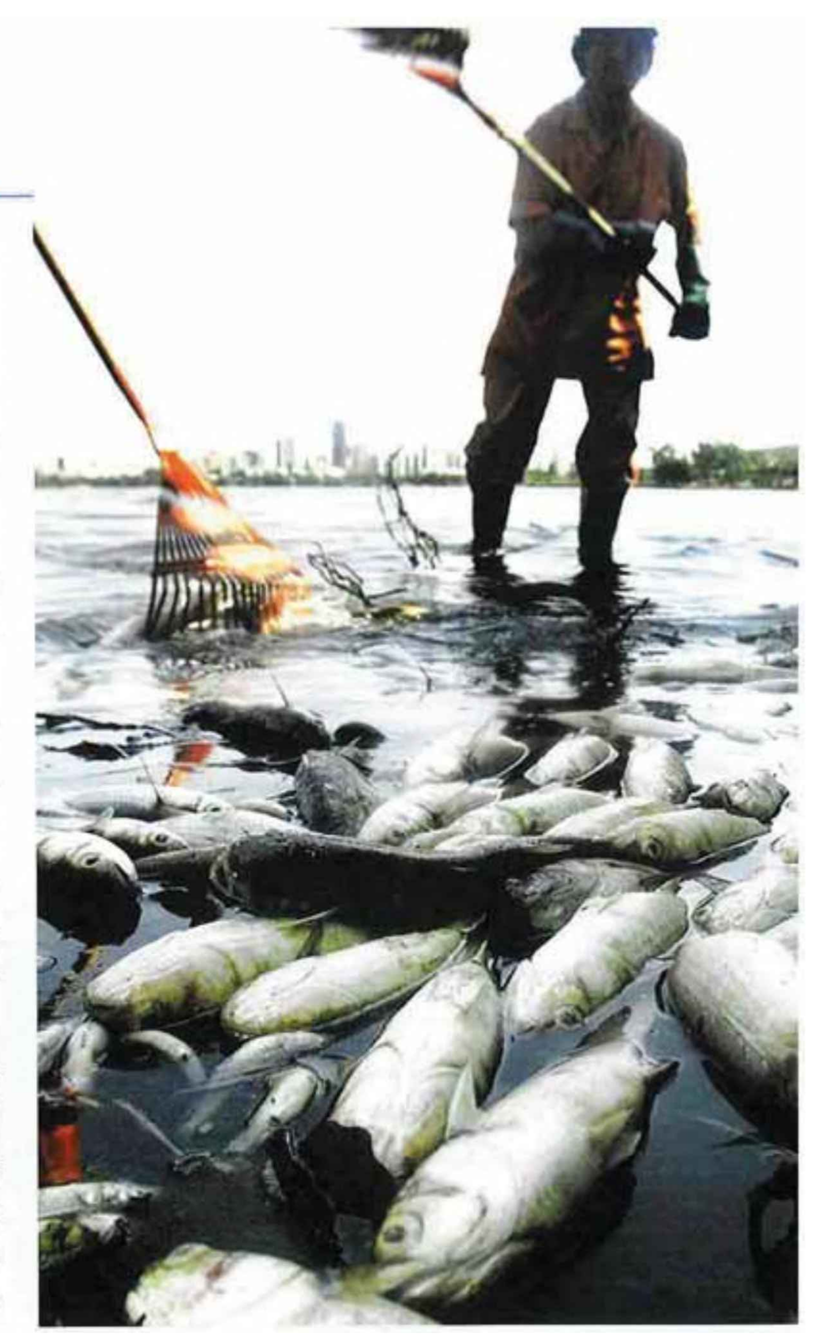
إن صاحب نهاية التاريخ وقع في تناقض حاد عندما بشر العالم بعالم جديد تبنى الفكر الديمقراطي الليبرالي، وهو هنا تبنى بشكل أو بآخر الفكر الشمولي Totalitaire الذي يجمد التطور الإنساني ويضعه في قوالب مهيأة سلفًا. إنها عودة من الباب الخلفي للفكر الشمولي الذي يرفضه. في الوقت نفسه. الفكر الديمقراطي الليبرالي الذي بشر به فوكوياما نفسه.

إن توقعات فوكوياما تبقى مجرد احتمالات شأنها

الاستهلاك التصنيعي خاصة في الدول الغربية ووجود ثقب ضخم لطبقة الأوزون، والذي إذا ظل يكبر بالمعدلات التي تحدث الآن، فإنه سوف تترتب عنه أخطار تهدد الحياة البشرية كلها، منها مثلاً زحف الماء على الكرة الأرضية وغمرها بالمياه، وحدوث فيضانات كبيرة (أوربا صيف ٢٠٠٢) وتلوث البيئة والجو وانتشار أمراض منها سرطان الجلد...

كما أن علماء الطب يبدون مخاوف كبيرة بسبب الأمراض التي أصبحت تفتك بالبشرية خاصة مرض نقص المناعة (السيدا) الذي يعد ضحاياه بعشرات الملايين، وحاملو الفيروس بمئات الملايين، ويتوقع أن تزداد النسبة بكثرة في السنوات القادمة، ويقف الطب عاجزًا عن إيقافها، مما يهدد السلالات البشرية وكذا الحياة على وجه الأرض.

وإذا أردنا أن نكون أكثر استفزازية من فوكوياما في حديثنا عن «نهاية التاريخ» ، فإننا يمكن أن نرسم صورة أخرى للانهيار متمثلة في انكفاء الغرب على نفسه وانكماشه واشتغاله بهمومه الخاصة ومشكلاته الداخلية وكفه عن تدخلاته الخارجية، وهي تمثل تيارًا في السياسة الأمريكية يطالب بعدم التدخل في الدول الأخرى والانشغال بالشؤون الداخلية.



التلوث خطر يهدد الحياة البشرية

شأن ما سبقها من توقعات كتلك التي أطلقها هتلر حينما تحدث عن الرايخ الثالث الذي سيعيش ألف عام على حد زعمه، لكن هذا التوقع اصطدم بالواقع تمامًا.

وإذا أردنا أن نتحدث عن نهاية التاريخ ومعه نهاية العالم، فيجب أن نتحدث عن معطيات أخرى مرتبطة بنهاية مفزعة عن الكون بسبب ظاهرة الاحتباس الحراري (زيادة طاقة الشمس، وحرارتها) نتيجة كثافة

ويعدّ هذا التيار علاقة أمريكا بالعالم، وما يطلبه ذلك من تدخل وإرسال للقوات وإعطاء المساعدات، إلى غير ذلك من أسباب الانهيار الاقتصادي الذي يهددها.

ومن ناحية أخرى يرى بريجنسكي (مستشار الأمن القومي السابق) في كتابه «خارج نطاق السيطرة»، أن بعض صور الديمقراطية يمكن أن تتحول إلى خطر يهدد أمريكا، ويرى بأن العالم الذي جاء بعد انهيار الشيوعية، عالم خطر، عالم قلق ومتوتر، ويجب أن ندرك حجم المخاطر الناجمة عن الديمقراطية الغربية حيث سيوجه في أمريكا نوع من الإباحية المطلقة، كل شيء مباح



الفيضانات من نتائج الاحتباس الحراري

ومسموح به (الاستنساخ مثلا) ومن ثم ستعارض مصالح الأفراد وسوف يوجه هناك قدر كبير من الأنانية بينهم مما يؤدي إلى انشطار في المجتمع.

إنه عالم يعيش - حسب بريجنسكي - حالة غليان بعد انهيار الشيوعية. وإنه سيواكب هذا الانهيار أزمات اقتصادية، ومن ثم فبدلا أن يكون انهيار الغرب ومعه الولايات المتحدة انهيارًا مفاجئًا، سوف يكون انهيارًا بطيئًا وتدريجيًا. ولهذا، فقد بدأت الولايات المتحدة نفسها شن حرب اقتصادية ضد اليابان وهي حرب مكشوفة.

وهكذا تضغط الولايات المتحدة على اليابان من أجل فتح أسواق للمنتجات الأمريكية، وبالمقابل تحاول أن تحد من وجود المنتجات اليابانية في الأسواق الأمريكية، وتضغط كذلك على بعض الدول الأوربية من أجل توقيع اتفاقيات للتبادل الحر دون أن تتورع في فرض قيود على المنتجات الفلاحية الأوربية، بل وفرض قيود جمركية على وارداتها من الصلب، كما تشن الولايات المتحدة حربًا اقتصادية ضد الصين حول حقوق الملكية الصناعية والفكرية.

ويتوقع أنه في ظل التراجع والتردي الاقتصادي الأمريكي، أن تجد أمريكا نفسها مضطرة إلى التدخل المباشر لحماية اقتصادها ومصالحها ونفطها وصناعاتها في أي منطقة في العالم.

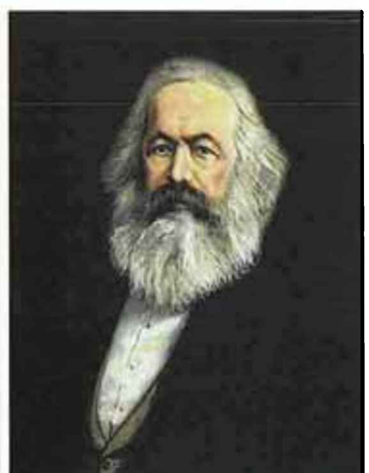
حسب فوكوياما، فالديمقراطية الليبرالية، بإمكانها أن تشكل منتهى التطور الإيديولوجي للإنسانية، والشكل النهائي لأي حكم إنساني، أي أنها من هذه الزاوية "نهاية للتاريخ"

فكرة صدام الحضارات Le Choc des Civilisations (٥)

حسب صامونيل هنتنغتون Samuel Huntington، فإنه في هذا العالم الجديد، فإن النزاعات الأكثر اتساعًا، والأكثر أهمية والأكثر خطورة سوف لن تكون بين الطبقات الاجتماعية ولا بين الأغنياء والفقراء، ولا بين مجموعات محددة تبعًا لمعايير اقتصادية، وإنما ستكون بين شعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة، خاصة بعد تصاعد قوة الحضارات الإسلامية والكونفوشيوسية اللتين تحاولان جاهدة توسيع قوتهما العسكرية والاقتصادية لمقاومة الغرب، وإيجاد توازن معه.

أسس فكرة صدام الحضارات:

حسب هنتنغتون، فإن نهاية الحرب العالمية الثانية تلتها الحرب الباردة، أي منافسة تضم نظامين اقتصاديين وسياسيين وإيديولوجيين وليس حضارتين. لذا فإن هذه الحالة من الصراع سوف لن تستمر إلى الأبد، لأنه من الواضح أن العامل الثقافي سيكون حاسمًا في السنوات المقبلة، فأول مرة في التاريخ، أصبحنا


ماركس


هتلر


فوكوياما


هنتنغتون

نعيش في عالم متعدد الأقطاب، حيث القوى الأساسية تنتمي إلى حضارات مختلفة وهذا ما غير الأشياء.

إن بعض الدول حاولت المرور من نموذج حضاري إلى آخر. وتقدم تركيا هنا خير مثال على هذه الظاهرة فكمال أتاتورك أراد تغيير بلده باتباع النموذج الغربي، فخلق دولية جديدة لكنها علمانية انطلاقًا من الشعب التركي القديم، والشيء نفسه قام به خلفه. إلا أن الدولة العلمانية أصبحت مرفوضة حاليًا من قبل الحزب المهيمن على الساحة التركية، حزب الرفاه الإسلامي، الذي رغم حله فقد حلت محله أحزاب دينية أخرى لها الحمولة الإيديولوجية نفسها، ومن ثم فتركيا حاليًا لا هي مع الغرب ومن ثمة أوربا، ولا هي بلد شرق أوسطي تمتد حضارته حتى آسيا الوسطى.

إن النزاعات القادمة ستكون إذن بين حضارات ذات قيم متعارضة، وسيؤدي الدين فيها دورًا أساسيًا.

فهنتنغتون وعلى عكس فوكوياما، لا يرى نهاية للتاريخ في المستقبل القريب، بل على العكس من ذلك، فالتاريخ سيكون أكثر حركية في العقود القادمة، وذلك بسبب استبدال البنية القديمة للحرب الباردة (معسكرين ودول عدم الانحياز) بنظام أكثر تعقيدًا وغير مستقر في الوقت نفسه، حيث ستتصارع ثماني حضارات: الغربية، الأمريكية واللاتينية، الإسلامية، الصينية، الهندوسية، السلافية الأورثدكسية، وربما حتى الإفريقية.

فالمنافسة بين القوى الكبرى حل محلها صراع الحضارات، والنزاعات الأكثر خطورة هي تلك التي تحدث على طول خطوط التماس بين الحضارات.

إن كل حضارة عندما تصل إلى أوجها فإنها تتجه بشكل طبيعي إلى تقدم قيمها، كما لو أنها قيم الإنسانية بأجمعها. وهذا ما سعت إليه روما القديمة وكذا بريطانيا.

إلا أن هنتنغتون يعدّ الظاهرتين الأكثر أهمية خلال العشرين سنة الأخيرة هما: صحوة الإسلام والتطور الاقتصادي الهائل لآسيا. وفي هاتين الحالتين معًا، فإن القيم المستند إليها ليست غربية بل معارضة لها، فالحداثة ليست مرادفة للانتماء إلى الغرب.

فالرجوع إلى قيم الإسلام ذو دلالة خاصة حسب هنتنغتون، ففي عام ١٩٩٥م، كل البلدان الإسلامية ما عدا إيران كانت أكثر إسلامية ثقافيًا، واجتماعيًا وسياسيًا، من فترة الثمانينيات. فالتجدر في الثقافة الإسلامية يمنح «كرامة» للشباب المهمش في المدن

الكبرى، الذي فقد معالم المجتمع الفلاحي الذي نشأ فيه آباؤه. فهؤلاء الشباب الذين يستوطنون الأحياء الفقيرة في المدن الإسلامية الكبرى، يشكلون تهديدًا لأنظمتهم التي تعدّ في نظرهم عميلة ومرتبطة أكثر بالغرب، الأجنبي والعدو.

وعلى الرغم من واجهتها العلمانية، فإن البلدان الغربية تحدد مواقفها تجاه الحضارة المتحدية (الإسلام) بالنظر إلى مرجعيتها المسيحية سواء كاثوليكية أو بروتستانتية. وإلا كيف نفسر رفض الاتحاد الأوربي لقبول عضوية تركيا منذ زمن طويل، في حين فتح أبوابه للبلدان المسيحية الأخرى كهنغاريا وبولونيا؟

الإسلام وصدام الحضارات عند هنتنغتون:

ومن خلال ذلك يرى هنتنغتون ضرورة ملامسة التطورات والإشكالات الآتية:

. إحياء الإسلام: ينظر هنتنغتون إلى الإسلام بصفته العائد بقوة، لأن المسلمين أصبحوا يثقون أكثر في أنفسهم، إنهم يؤكدون أن الإسلام هو الحل فهم يقبلون بالحداثة (استعمال الوسائل السمعية البصرية الحديثة)، والتكنولوجيا الغربية لكنهم يرفضون التغريب (نسبة إلى الغرب) وما يتضمنه من مثل غربية.

إن هنتنغتون يربط ما بين الإسلام والمذهب الماركسي وبشكل كبير الإصلاح البروتستانتي، فهما معًا ردود فعل لانحرافات حقبة، هما معًا يريدان رجوعًا إلى الأصول النقية لديانتيهما، فهما يقدسان العمل والنظام والتربية. إن هدفهما هو إصلاح المجتمع ككل.

وقد ميز هنتنغتون هنا بين ثلاثة أنواع من الأفراد المنخرطين في الإحياء الإسلامي، فالجوهر مكون من الطلبة والمثقفين (مهندسين وعلماء)، أما الفئة الثانية فمن الأعضاء النشيطين بحيث تتكون من الطبقة المتوسطة للمدن (حرفيين وتجار)، وأخيرًا فإن المجموعة الثالثة تجد ضالتها في القادمين الجدد إلى المدن، والقاطنين في ظروف بائسة حيث يمنحهم الإسلام «نوعًا من الكرامة».

ويفسر هنتنغتون عملية الإحياء، بأنها بمنزلة الجواب ضد الأنظمة التسلطية والقمعية في البلدان الإسلامية التي ينعتها بأنظمة حصينة (محصنة) Bun-kers، وكذا لعدم تلاؤم الإسلام مع الأفكار الليبرالية المدافع عنها من قبل أقلية داخل البلدان الإسلامية.

وأمام موجة الإحياء هذه، فإن الأنظمة القائمة تبحث عن شرعية إسلامية من خلال الاحتماء بمعطف الإسلام، إذ إن البعض منها لا يقتصر فقط على أسلمة واجهاته بل يذهب إلى حد مراجعة دساتيره.

ويعمد الباحث إلى اعتبار أن الإسلام يقدم حلولا لمشكلات الهوية، والأخلاق والعقيدة، لكن لا قدرة له على حل المشكلات الاجتماعية والسياسية أو الاقتصادية، فهذا قد يؤدي إلى الدخول في متاهات الإسلام السياسي، ومن ثمة البحث عن حلول بديلة.

وفي مجرى حديثه عن تلاحم البلدان الإسلامية،فإن هنتنغتون يرى أن مفهوم الدولة/ الأمة Etat/Nation غير متجذر في عدد من البلدان الإسلامية التي تبقى حدودها غالبًا مصطنعة (المغرب، المشرق، القوقاز، آسيا الوسطى)، ومن ثم فالكيانات المرجعية هي القبيلة والأمة L'oummah.

وقع صاحب نهاية التاريخ في تناقض حاد عندما بشر العالم بعالم جديد تبنى الفكر الديمقراطي الليبرالي، وهو هنا تبنى بشكل أو بآخر الفكر الشمولي الذي يجمد التطور الإنساني

إن الإسلام عبر . وطني. لكن جهود تأكيد وحدته تتبخر بسبب المنافسة بين عدة دول. إندونيسيا. إيران باكستان. تركيا. المملكة العربية السعودية. التي تتنافس من أجل تحقيق هذا الانسجام. فكلها ترغب في أن تكون الدولة الجاذبة/ المنار Phare التي تلجأ إليها كل الدول. لكن ينقص كل هذه الدول بعض العناصر التي تحول دون حصولها على هذا الهدف.

إن غياب هذا التلاحم هو مصدر النزاعات داخل الحضارة الإسلامية. ويعدّ كذلك تهديدًا للحضارات الأخرى. فالوعي بالهوية المشتركة يؤدي إلى ما يسميه هنتنغتون «بأعراض البلد الشقيق» Syndrome du Pays Frere وهذه مسألة مهمة بالنسبة إليه لأنه في النزاع الحضاري وعلى عكس النزاعات الإيديولوجية. فإننا ننحاز إلى «الإخوة». فكل الحضارات طورت هذا الميل إلى دعم الإخوة.

وقد ظهر هذا الدعم جليًا في نزاع البلقان حيث ساند الروس إخوانهم الصرب الأسلاف الأورثدكس. الألمان الكروات الكاثوليك. في حين كان المسلمون البوسنيون مساندين من قبل البلدان الإسلامية بما فيها تركيا.



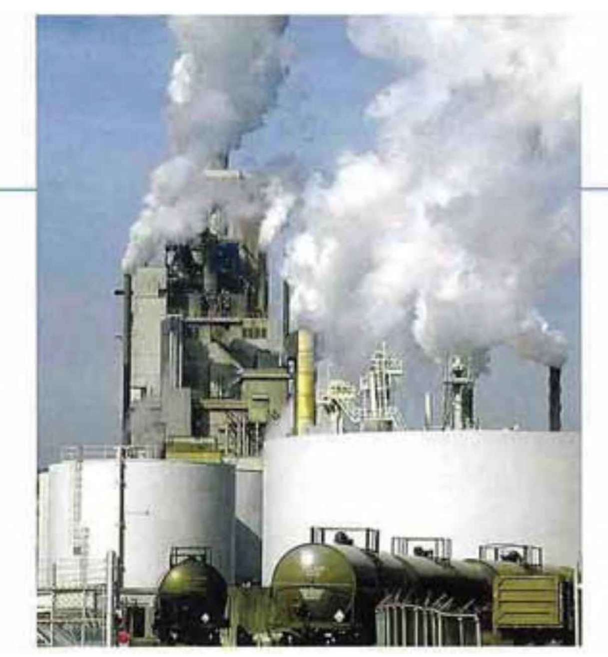
الإسلام يقدم حلولا لمشكلات الهوية. والأخلاق والعقيدة

عدّت آراء هنتنغتون وتحليلاته مجرد تبسيطات سياسية. ولا سيما تقسيمه الاعتباطي والتعسفي للحدود الحضارية وكذا دعوته إلى استنفار الغرب. وضرورة إيقاظه لمقاومة هجوم محتمل للإسلام

كما حاول هنتنغتون معالجة أطروحة أخرى مهمة تتعلق بالثقة المتزايدة بين الحضارتين الإسلامية والكونفوشيوسية (الصين). واللتين أحستا شيئًا فشيئًا بقدرتهما على مواجهة المد الغربي.

وإذا كانت هاتان الحضارتان مختلفتين بعضهما عن بعض بشكل جذري. فإن «عدوًا مشتركًا يخلق مصالح مشتركة». فتطور التعاون في تزايد مستمر بين الحضارتين ولا سيما في مجال نقل الأسلحة. فالصين تمد عدداً من البلدان الإسلامية بأسلحة تقليدية وغير تقليدية. مع أن القول بتحالف هاتين الحضارتين لا أساس منطقيًا له.

. الهجرة: فأمام التزايد المهم للسكان في البلدان الإسلامية. وغياب حقيقي لإقلاع اقتصادي. فإن السكان المسلمين يهاجرون إلى الغرب الذي يعاني من ضعف معدل الولادات ومن ثمة المشكلات التي تحدث في الغرب خاصة فرنسا التي تقبل بالأجانب إذا ما قبلوا الانصهار في القالب الثقافي الفرنسي. إلا أن المسلمين يرفضون ترك هويتهم مما لا يحول دون وقوع



تلوث أم تصنيع مكثف؟

توجسات متبادلة، أدت إلى جعل مراقبة الهجرة جزءًا من خطاب كل الأحزاب السياسية، وكذا إلى تزايد الأحزاب القومية في كل أوربا.

. الإسلام والغرب: إن بعض اتجاهات التفكير الجيوسياسي بما فيها اتجاه بيل كلنتون Bill Clinton، تؤكد أن الإسلام في حد ذاته لا يطرح أي مشكلات، وحدهم المسلمون المتطرفون يقومون بزرع التوتر في العلاقات بين الدول.

وإذا كان الإسلام بالنسبة إلى هنتنغتون، هو الحضارة الوحيدة التي هددت الوجود الفعلي للغرب، فإنه بذلك لا يوافق هذه الاتجاهات رأيها، لأن العلاقات بين الإسلام والمسيحية كانت متوترة على مدى ١٤قرنًا، في حين أن النزاع بين الشيوعية والليبرالية ليس سوى مجرد ظاهرة تاريخية مصطنعة بالموازنة مع العلاقات المتوترة دائمًا بين الإسلام والمسيحية، والتي راوحت بين التعايش السلمي والحرب العنيفة أحيانًا.

إن التعارض بينهما يرجع إلى الطبيعة نفسها لهاتين الديانتين، فالنظرة المسيحية للفصل بين المادي/ الدنيوي والروحي/ الديني، لا تتطابق مع النظرة الإسلامية نفسها، التي على العكس من ذلك تجمع بين الدين والسياسة. إلا أن هاتين الديانتين تتعارضان أيضًا لأنهما تتشابهان، إنهما معًا ديانتان توحيديتان لهما مدى كوني تبشيري، لا يقبل بالدينات الأخرى (٦).

كما يقوم الباحث بإلقاء الضوء على الموازاة بين مفهومي «الجهاد» Jihad و«الحملة الصليبية» Croisade. بوصف أن كلتا الحضارتين تفوقت إحداهما على الأخرى في مرحلة تاريخية معينة، وتبعًا لعدة عوامل: التفوق الاقتصادي، التقني (العسكري) والديموغرافي..

ويفسر هنتنغتون تزايد هذا التعارض في هذه الفترة تبعًا لخمسة أسباب:

. التزايد المطرد للسكان المسلمين.

. البطالة المرتفعة التي تدفع إلى الاحتماء بالإسلام باعتباره الأمل الأخير، وتدفع أحيانا إلى الهجرة.

. تزايد ثقة المسلمين في عقيدتهم، وفي تفوقهم بالنظر إلى الحضارة الغربية.

. اختفاء الشيوعية وبقاء الإسلام عدوًا وحيدًا للحضارة الغربية..

. وأخيرًا فإن زيادة المبادلات تؤدي إلى زيادة الوعي باختلاف القيم.

وربما حاول هنتنغتون تناسي دور الإعلام الصهيوني في إذكاء مخاوف الغرب من الإسلام والمسلمين، وتشويه صورتهم لدى الرأي العام الغربي.

وتجاه هذا الإحساس المتزايد المناوئ للغرب، فإن ذلك يؤدي إلى انتشار الخوف من التهديد الإسلامي (٧) (إرهاب، هجرة، تهديدات نووية ..).

وأخذًا في الحسبان لنظرة كل حضارة على حدة، فإن هنتنغتون يثير وجود شبه حرب. حضارية -Intercivil isationnelle، وليس حربًا كاملة، لأنه ليس كل المسلمين أعداء لغالبية الغربيين. ثانيًا لأن العنف ليس مستمرًا، والغرب خاصة والولايات المتحدة تعد العنف من صنيعة فئة قليلة في حين أن غالبية المسلمين الحداثيين يرفضون هذا العنف الأعمى.

ويعدّ هنتنغتون أن هذا الأمر قد يكون حقيقيًا. لكن الأكيد أن هناك غيابا لمظاهرات المسلمين للتنديد بالعنف ضد الأعمال «الإرهابية» التي تمس الغرب. وكذا بالنسبة إلى تردد القادة المسلمين للتنديد بها أيضًا، والشيء نفسه بالنسبة إلى الغرب. فالأوربيون لم يعارضوا العمليات الأمريكية، في حين أن تلك التي تمت ضد الاتحاد السوفييتي أثارت احتجاجات واسعة.

باختصار، فإن المشكلة الأساسية للغرب بالنسبة إلى هنتنغتون ليست التطرف الإسلامي. إنما الإسلام. تلك الحضارة المختلفة التي يعتقد مسؤولوها أنهم يتفوقون على الحضارة الغربية، لكن مع ضعفها من حيث قوتها.

إن المشكلة بالنسبة إلى الإسلام حسب هنتنغتون ليست هي المخابرات الأمريكية CIA ولا وزارة الدفاع الأمريكية. إنه الغرب. الحضارة المختلفة التي يؤمن مسؤولوها بكونية ثقافتها (٨)، وباقتناعهم بتفوقها العسكري والاقتصادي، حتى وإن كان في تراجع، مما يمنحهم واجب نشر هذه الثقافة عبر العالم. إنها



المعطيات التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب.

ويلاحظ هنتنغتون، أنه في الدراسات والتطورات الجيوسياسية الشاملة، فإن المصادمات تجعل الغرب في مواجهة باقي العالم، في حين على الصعيد المحلي، فإن الصدامات تجعل الإسلام في مواجهة الآخرين.

وانطلاقًا من إحصاء للنزاعات التي تورط فيها المسلمون ما بين ١٩٩٣ و١٩٩٤م، فإنه من بين ٢٠ نزاعًا حضاريًا، نحو ١٥ منها بين مسلمين وغير مسلمين (البوسنيون المسلمون ضد الصرب الأرثوذكس، والكروات الكاثوليك، واليونان ضد تركيا، والأرمن ضد الأذربيجانيين، والروس ضد الشيشان والمسلمين في آسيا الوسطى، الهند ضد باكستان، والمسلمون ضد المسيحيين في الفلبين وفي أندونيسيا، واليهود والعرب في الشرق الأوسط، والحرب الدموية بين المسيحيين والمسلمين في السودان.

ومن ثم، فإن هذه الأمثلة تؤكد لهنتنغتون، أن الدم على أبواب حدود الإسلام، وأن المسلمين أصبحوا يجدون صعوبة في العيش بسلام مع جيرانهم. كما أن الصدامات بين المسلمين أنفسهم هي أكثر ارتفاعًا من تلك الموجودة داخل الحضارات الأخرى.

ويلاحظ هنتنغتون إلى جانب ذلك ان معدل التسلح (عدد الجنود بالنسبة إلى ألف من السكان)، وكذا معدل المجهود العسكري (نسبة المصاريف العسكرية بالنظر إلى غنى البلد)، هي أكثر ارتفاعًا في الدول الإسلامية منها في باقي الدول، وذلك بنسبة الضعف بالموازنة مع البلدان المسيحية، مما يؤكد حسب وجهة نظره فكرة James Payne بأنه من الواضح أن «هناك علاقة بين الإسلام والتسلح».

الأسباب التاريخية.الديموغرفية والسياسية:

حسب هنتنغتون هناك ثلاثة أنواع من الأسباب:

أولاً: الميراث الثقافي الثقيل جدًا أحيانًا، ففقراء الأزمة (الأزمات التي تجعل المسلمين في مواجهة غيرهم)، لهم نزاعات في الماضي تظهر إلى الأفق كحالة فلسطين والبلقان.

ثانيا: تغيير التوازنات الديموغرافية قد يشكل عاملاً للتوتر، إذا ما كانت هناك ساكنة تتزايد بشكل واضح، في حين أن الساكنة الأخرى تتناقص أو لا تتغير، وهذا هو شأن البلقان حيث تزايد النمو الديموغرافي يمس تقريبًا المسلمين فقط.

ثالثًا: السبب الأخير وهو سياسي، حيث يبحث الأفراد عن هوية قوية.

ولتفسير هذا العنف، فإن هنتنغتون يثير عدم تمثلية Inassimilabilite المسلمين، فالإسلام عقيدة «شمولية (كليانية)»، تخلط بين الدين والسياسة، والمشكل يطرح في شقيه، فالبلدان الإسلامية تجد صعوبة في التعايش مع أقلياتها الدينية، والبلدان غير الإسلامية تجد مشكلات مع أقليتها المسلمة.

بالإضافة إلى ذلك، فإن التاريخ يمكن أن يفسر عودة العنف إلى البلدان الإسلامية، أولا بإحساس المسلمين بكونهم ضحايا، عانوا من الماضي الاستعماري، ومن غرب موجود بشكل دائم، ويستغل ضعفهم الاقتصادي والسياسي. ثم إن هناك غيابًا لمركز مهيمن، مما قد يؤدي إلى وجود عدة مناطق للتوتر، إذ لا يمكن إيجاد دولة بإمكانها استقطاب باقي



الدول الإسلامية من أجل قضية معينة.

وهناك أخيرًا الانفجار الديموغرافي الذي يشكل العامل الأخير والخطير فوجود عدد من الشباب الذي يعاني البطالة، يعدّ مصدرًا طبيعيًا لغياب الاستقرار وللعنف ومن ثمة فعندما تشيخ هذه الساكنة، آنذاك يمكننا أن نتوقع . حسب وجهة نظره . انخفاضًا في حدة النزاعات.

إن الحديث عن تفوق الحضارة الغربية الديموقراطية الليبرالية، يدفعنا إلى استحضار قصة هذا التفوق. فقد تشكلت الأسطورة المؤسسة للغرب على مرجعية يونانية . رومانية مقصية بذلك كل المصادر

ويستمر هنتنغتون في بحثه بالتساؤل حول أسباب هذا «العنف الرهيب» لدى المسلمين، إذ يعدّ الإسلام دين حرب ويمجد خصالها، فالإسلام يفرض محاربة الكفار، ومن ثم فمفهوم اللاعنف غائب عن الإسلام. ويشير هنا إلى الغزوات والفتوحات الكبرى للمسلمين الأوائل. وقد أخذ الأتراك على عاتقهم هذا المشعل ودفعوا بهاته الفتوحات حتى البلقان، حيث لم تكن تلك الفتوحات عامة، مما ترتبت عنها توترات دينية وعدم الاستقرار.

إن نشر الإسلام في محيطه أدى بالمسلمين إلى ربط علاقات مباشرة مع غير المسلمين.

الشرقية أو غير المسيحية الأخرى (المصرية، الهندية، الإسلامية ..) للحضارة الأوربية.

تجاهل الوسيط الإسلامي

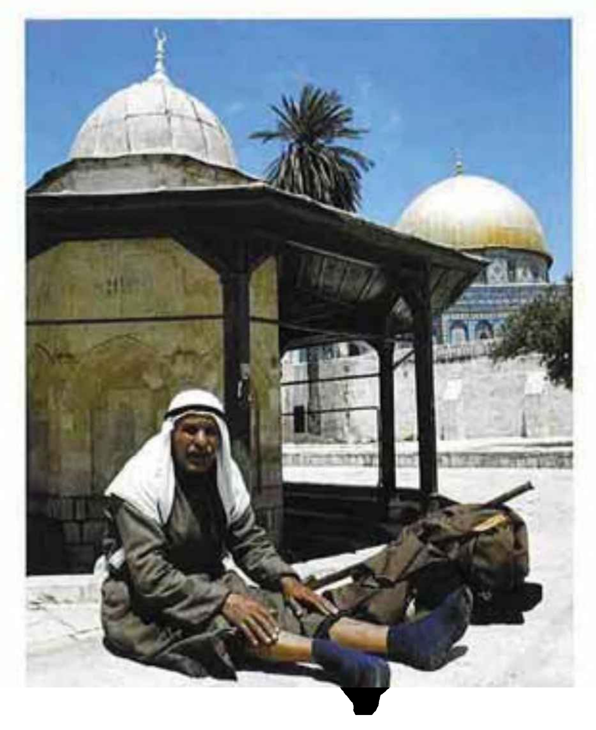
وتبعًا لهذه الأسطورة، فإن أوربا وريثة الإغريق وروما، هي حصرًا مسيحية، ولا يوجد أي نفوذ آخر «ليلوثها». ومن هنا فقد دأب المفكرون في عصر النهضة الأوربية على اصطناع نسب مباشر مع أثينا لتجاهل الوسيط الحضاري الإسلامي، الذي أخذت عنه أوربا مجمل التراث اليوناني. وكان طرد الإسلام من أوربا قد توافق وإقصاء الفكر الإسلامي من المجال الثقافي الأوروبي وعلى الرغم من الدور المميز له عبر فكر ابن رشد، ليس فقط في إيصال الفكر الإغريقي، بل أيضًا في إعادة قراءته، ولولا المفكرون المسلمون لما تمكنت النهضة الأوربية من مد خيوط نسب مميزة مع ذلك الإرث الثقافي الحضاري، الذي تدعي صلتها المباشرة به.

ومن خلال تأسيسها للتطهير والإقصاء (في الأندلس)، واكتشافها للعالم الجديد (أمريكا الشمالية والجنوبية)، تجسد تحرك أوربا بقيادة إسبانيا في المراحل الأولى عبر ثلاثة عناوين: الدين «المسيحية» والنقاء العرقي، والتفوق العرقي. وقد استخدمت هذه المسوغات لتسويغ غزو العالم والسيطرة عليه.

وإذا كانت النهضة الأوربية التي صقلت الغرب، قد ادعت الحرية والمساواة بين الأفراد، إلا أن الغرب كان هو أول من اغتصب هذا المبادئ، لما توسع في العالم على حساب الشعوب الأخرى.

ومن خلال أسطورة الرجل الأبيض ومهمته الحضارية، كانت مساهمة الفكر التنويري في ترسيخ التفوق الغربي وتسويغه في الوعي بارزة.

وحتى نهاية القرن التاسع عشر، بقي الأوربيون (مفكرين وساسة) يتحدثون عن «واجب» الجنس الأبيض



المسلمون عانوا العنف كثيراً

المتمثل في إدخال الأجناس الدنيا للحضارة، و «واجب» السيطرة على غيرهم. لكن مقتضيات المؤسسة الاستعمارية فرضت بعض التعديلات التكتيكية في هذه التراتبية العرقية، كالادعاء الفرنسي بقرب البربر في شمال إفريقية من الجنس الأوربي، وذلك في سبيل إبعادهم عن العرب(سياسة فرق تسد) (٩).

ومن ثمة تولدت وترسخت في الغرب، في الوعي

الشباب الذين يستوطنون الأحياء الفقيرة في المدن الإسلامية الكبرى يشكلون تهديدًا لأنظمتهم التي تعدّ في نظرهم عميلة ومرتبطة أكثر بالغرب الأجنبي والعدو



آسيا أصبحت تستحوذ على ٣٠٪ من الإنتاج الاقتصادي العالمي

واللاوعي، ثقافة التفوق، وستتجسد من خلال الهجمة الاستعمارية الأوربية. أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد بدأ الوعي الغربي يراجع تاريخه عساه يقيم علاقات من نوع آخر مع من اقترف بحقهم جرائم في الماضي، وهو بصدد وضعهم تحت مظلته. ولكن هذا التطور لم يزحزح القناعة بالتفوق على الآخرين.

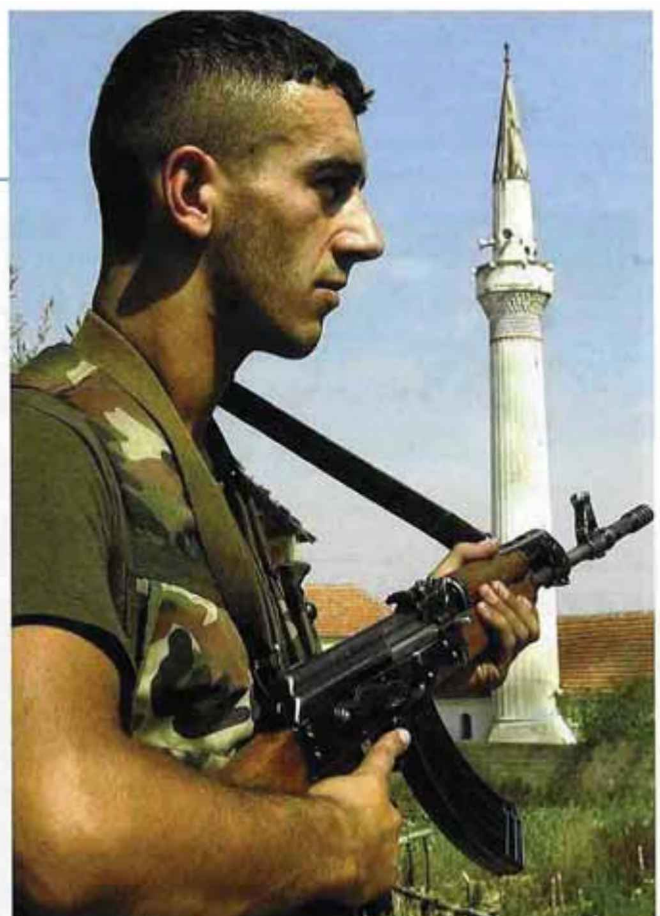
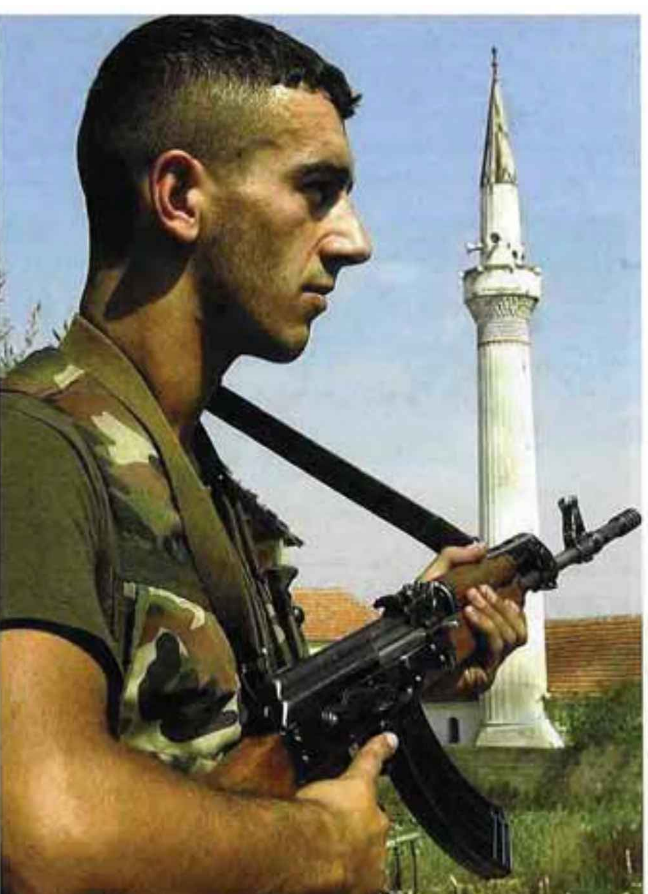
وهكذا، فإن الغرب اليتيم بعد انهيار المعسكر الشرقي، عمل على اصطناع عدو جديد، تمثل في الإسلام على الخصوص، خلفا للعدو الشيوعي.

وتؤكد صوفي بسيس أنه على الرغم من ظهور مراكز قوة جديدة في العالم، فإن الغرب يبقى مرشحًا للهيمنة على العالم، لكنها هيمنة من شكل جديد، وفي إطار علاقات مختلفة مع الآخرين. والعولمة ليست في نهاية الأمر سوى توحيد للعالم تحت قيادة الغرب.

لكن عصر الهيمنة قد ولى، ومركز القوة والقرار في العالم يتعدد. (آسيا أصبحت تستحوذ على ٣٠٪ من الإنتاج الاقتصادي العالمي). مما سيفقد الغرب ليس فقط تفوقه، بل مركزيته التي كانت ميزته الأساسية، أفلا تعبر الموجات الشعبية المناهضة للعولمة في الغرب عن سقوط الأساطير المؤسسة له، وعن نهاية القناعة بالتفوق الغربي.

إذن فقناعة التفوق لم تأت مع هنتنغتون، بل هي موجودة لدى الغرب منذ عدة قرون، وليست مرتبطة

دأب المفكرون في عصر النهضة الأوربية على اصطناع نسب مباشر مع أثينا لتجاهل الوسيط الحضاري الإسلامي، الذي أخذت عنه أوربا مجمل التراث اليوناني

فكرة الحدود الدموية للإسلام، فكرة خاطئة وتلفيقية

بمرحلة نهاية الشيوعية، بالإضافة إلى ذلك فقد عدّت آراء هنتنغتون وتحليلاته مجرد تبسيطات سياسية، ولا سيما تقسيمه الاعتباطي والتعسفي للحدود الحضارية وكذا دعوته إلى استنفار الغرب، وضرورة إيقاظه لمقاومة هجوم محتمل للإسلام.

لقد شجعت هذه التحليلات الممارسات العنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية و في عدد من البلدان الأوروبية، إذ جعلتهم يقتنعون بأن العدو الجديد للغرب هو الإسلام.

تلفيق

وقد ظهر ذلك جليًا عقب انفجار المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما Oklahoma بالولايات المتحدة في ١٩ أبريل/نيسان ١٩٩٥م. إذ إن كل وسائل الإعلام الأمريكية والأوربية أشارت بأصابع الاتهام الفوري لإمكانية وقوف جماعات إسلامية متطرفة وراء هذا التفجير، إلا أنه تم اكتشاف أن منفذ العملية ينتمي إلى اليمين المتطرف الأمريكي.

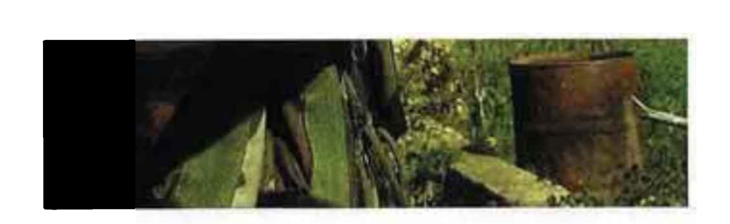
إن فكرة الحدود الدموية للإسلام، فكرة خاطئة وتلفيقية، إذ يمكننا أيضًا إثارة الحدود الدموية للمسيحية في البلقان والقوقاز وكذا الحدود الدموية للهندوسية في الكشمير وسريلانكا، وكذلك الحدود الدموية لمصالح البلدان الأوربية الكبرى أو الولايات المتحدة في خطوط المواجهة بين الشمال والجنوب.

بالإضافة إلى ذلك، هل يمكننا تجاهل آثار الاختلاط والتزاوج بين الحضارات، فتاريخ الإنسانية يعدّ سردًا للمبادلات من كل نوع بين الكائنات البشرية؟

وقد عدّ البعض (١٠)، أن هناك في الوقت الحالي تشابكًا وتداخلاً يتوسع بسبب الامتداد الكوني للنموذج الحضاري الغربي، عبر تبني العالم لتنظيم الدولة نفسه، وخاصة تعميم وسائل الإعلام التي تبث وتنشر طرق التعامل والاستهلاك والترفيه نفسها، لدرجة يمكن معها الحديث عن وجود حضارة واحدة فقط، الحضارة الرأسمالية، ومن ثم فإن النزاعات المقبلة ستكون نوعًا ما حروبًا أهلية من نوع جديد.

وهكذا فإنه داخل الحضارة الكونية نفسها، سوف لن تكون هناك حروب بين أمم أو بين حضارات. لكن إذا استمرت الفوارق في التزايد، فإن مواجهات ستندلع بشكل أكثر عنفًا بين المهمشين والأوفر حظًا في الاستفادة من هذه الأوضاع أي بين الفقراء و«السادة الجدد للعالم».

. إن فرضية هنتنغتون يكتنفها غموض كبير. فتقسيم العالم الحالي إلى ٧ أو ٨ حضارات ليس صحيحًا، فالحضارة السلافية . الأورثوذكسية (بما فيها روسيا) تشكل جزءًا من الحضارة الغربية، كما أن الحضارة الأمريكية اللاتينية منبثقة من الحضارة الأوربية الغربية (١١).



إن الصراع داخل كل حضارة ودين يبلغ أحيانًا درجات دموية أكثر بكثير من الصراع ضد الحضارات والأديان المنافسة (الحروب الأوربية الداخلية مثلاً على مدار القرون الثلاثة الماضية). يضاف إلى ذلك أن علاقات الدول والحضارات لا يحكمها الصراع وحده، بل المصالح والتعاون أيضًا.

المسلمون بين نهاية التاريخ وصدام الحضارات:

لقد نشرت مجلة نيوزويك الأمريكية بتاريخ ٢٥يناير/ كانون الثاني ٢٠٠١م، مقالين، الأول هو «هدفهم العالم المعاصر» لفوكوياما، والآخر «زمن حروب المسلمين» لهنتنغتون، جاءا في زخم الأحداث المتلاحقة وضمن الحملة الأمريكية لمحاربة الإرهاب، ليؤكد فيهما المفكران نظريتهما التي سبق أن بشرا بها، لكن بتطويع الأحداث المعاصرة وتأويلها بعيدًا عن الواقع، وباستخدام شريحة صغيرة جدًا من العالم الإسلامي لا تمثل على أي وجه التوجه العام لعموم المسلمين وتصرفاتهم والنظر إليها على تشكل تمثيلاً صادقًا للإسلام وللمسلمين، ومن ثمة الخروج بخلاصات خطيرة وعنصرية تغذي عقول المجتمعات الغربية وأذهانها. وهكذا تم تصوير العالم الإسلامي وتصنيفه في خانة قوى الشر التي تتآمر وتوجه ضرباتها إلى العالم الطيب المتمثل في الغرب، الذي يحصد الضربات والمؤامرات.

العالم الإسلامي يرفض النزعة التحكمية للغرب الراغبة في تذويب قيمه وصهرها والتحكم في كل مظاهر الحياة المعاصرة بكل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والحضارية

وإذا كنا لا نقبل تلك العمليات التي وقعت في نيويورك والتي ذهب ضحيتها مئات من الأبرياء، وشكلت عملاً إجراميًا بحق المدنيين، وبحق صورة الإسلام والمسلمين، فإننا لا بد لنا ان نربط الأحداث بالسياسة الخارجية الأمريكية وسياسة الكيل بمكيالين، ولابد لنا من ربطها بدعمها للكيان الصهيوني ومباركة بطشه وجرائمه ضد الأبرياء في فلسطين ومده بالسلاح والدعم السياسي.

كما يجب ربط ذلك بالعولمة الاقتصادية والأمنية السياسية التي تخنق الشعوب الفقيرة في العالم وتتسبب في زيادة إفقارها.

إن الحديث عن الصدام الحضاري والثقافي بين الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية، لم يكن وليد اليوم بل كان صدامًا وصراعًا تاريخيًا ودمويًا منذ بداية التوسع الإسلامي، حيث استمر هذا التناحر في اللاوعي الإنساني الغربي والذي تم إحياؤه وتأجيجه في أثناء الأزمات التي كانت تندلع من فترة إلى أخرى بين دول العالم الإسلامي ودول العالم المسيحي الغربي، والتي تطورت فيما بعد بفعل السياسات العدوانية للغرب إلى ما يعرف تاريخيًا بالحروب الصليبية حتى إن الرئيس بوش أخطأ في استخدام تعبير شن حرب صليبية ضد الإرهابيين المسلمين، وبدل أن تكون زلة لسان، لا يزال الكثير من المفكرين الإسلاميين يعتقدون أنه افصح عما يخالج قلبه تجاه المسلمين، بينما الغرض الأساسي للحرب الأمريكية غير المتكافئة التي تشن على أفغانستان حاليًا، هو تنفيذ مخطط سياسي استكمل حبكه للسيطرة على أواسط آسيا، فضلاً عن أن هنتنغتون كما يرى المفكر الإسلامي الإيراني عبدالكريم سروش، لم يأت بشيء جديد، إنما طرح نظرية قديمة ضمن قالب جديد، يثبت انه ليس بين المسيحيين والمسلمين سوى حد السيف.

وقد تم الترويج لهذه النظرية في الغرب في السابق عندما افترض أن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف مما

دفع آنذاك الغرب إلى خوض تجربة فاشلة بإعلان الحرب الصليبية على المسلمين لاعتقادهم أن الدافع الديني سوف يكون حافزًا لنصرهم على المسلمين. ومع ذلك، فإن هنتنغتون لم يكن الوحيد الذي يحرض الغرب ضد الإسلام، فقد حرض جون دي إسبوزيتو في كتاب نشره عام ١٩٩٣م، بعنوان «الخطر الإسلامي»، الغرب على الانتقام من المسلمين، وتنبأ بحدود أسطورة صدام الغرب مع الإسلام والعرب.

كما ظهرت تصريحات غربية تدعي رقيها على الحضارات الأخرى وتحتقر نتاجها الثقافي، حينما ادعى برلسكوني رئيس وزراء إيطاليا، بأن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية من خلال منطق استعلائي، متناسيًا أن الحضارات في دورة التاريخ تسود ثم تباد.

إن نهاية الحرب الباردة التي واكبتها حرب الخليج الثانية أبرزت الاختلافات والتباينات الثقافية والسياسية والإيديولوجية بين الدول والشعوب الإسلامية والدول والشعوب الغربية.

فالعالم الإسلامي بدأ يبحث له عن موقع في المعادلة الدولية والحفاظ على هويته الثقافية وخصوصيته الحضارية، رافضًا النزعة التحكمية للغرب الراغبة في تذويب قيمه وصهرها والتحكم في كل مظاهر الحياة المعاصرة بكل أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والحضارية، واحتواء أي مبادرة ترمي إلى امتلاك عناصر القوة والتقدم والتفوق والاكتفاء الذاتي.

إن هذه النزعة التحكمية أفرزت رد فعل الشعوب الإسلامية والحركات الأصولية الإسلامية، مما شكل رفضًا للسياسة الغربية وثقافتها وحضارتها، ما دامت لا تعترف بالآخر ولا تقر بمشروعية مخاوفه ولا تتفهم مطالبه ومصالحه ولا تقدر قيمة حضارته وثقافته.

إلا أنه مع ذلك لا يمكن مجاراة أطروحة هنتنغتون حول حتمية الصدام بين الحضارات الإسلامية والحضارة الغربية المسيحية، فأصل أطروحة صدام الحضارات ناتج من رفض الثقافات المتعددة وخوفها من سيطرة ثقافة واحدة أو ثقافات أخرى، سواء في نمط تفكيرها ولغتها أو في تسويقها لمنتوجاتها وسلعها، أو في فرضها لقيمها.

إن طرح هنتنغتون وفوكوياما، ينظر إليه كطرح بديل للنموذج التقليدي الذي يقدم العلاقات الدولية كاستمرار لمصلحة الدولة، والاختلاف الأساسي الذي يميز الطرحين يتمثل في أن طرح هنتنغتون يركز، بإدخاله للمصالح الخاصة، على دور المعتقدات الروحية وعلى التراث الثقافي، فما يهم الناس بالنسبة إليه ليس الإيديولوجية السياسية أو المصالح الاقتصادية، إنها العقيدة والأسرة، الدم والإيمان، التي تميز الناس ويناضلون ويموتون من أجلها.

لهذا السبب فإن صدام الحضارات هو بصدد الحلول محل الحرب الباردة كإشكالية مركزية في العلاقات الدولية ويشكل نقطة البداية لفهم التغييرات في العالم (١٢).

في حين أن فوكوياما مازال يردد «إننا ما زلنا نعيش نهاية التاريخ، لأن نظامًا واحدًا فقط هو الذي سيستمر في الهيمنة على السياسة العالمية، وأعني بالقول النظام الغربي الديمقراطي الليبرالي، وهذا مايعني أن النزاعات ستختفي وستندثر الخصائص الثقافية التي تميز المجتمعات، بل إن الصراع المرتقب لن يتمثل في مواجهة بين مجموعة من الثقافات المتكافئة، كما كان عليه الشأن بين القوى العظمى الأوربية في القرن التاسع عشر، وإنما يتمثل في تعاقب أعمال رجعية تقوم بها مجتمعات تهدد الحداثة استمرار نظامها التقليدي، وسيكون رد الفعل بحجم التهديد الذي ستلقاه هذه المجتمعات، لكن الزمن والوسائل يلعبان لمصلحة الحداثة ولا أرى أن الغرب تنقصه إرادة كسب هذا الرهان (١٣).



يرى هنتنغتون أن العلاقة بين الإسلام والمسيحية كانت متوترة على مدى ١٤ قرناً

المراجع والهوامش

١. فوكوياما (فرانسيس): نهاية التاريخ، خاتم البشر، ترجمة حسنين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٣م ص ٣.

٢- انظر. Lamchichi (Abderrahim): Islam-Occident, la Confrontation? in Confluences Mediterrance, no16 Hiver, 1995.

٣- انظر- Fukuyama (Francis),la Fin de l'histoire?, in the National Interest no 16 (ete1989) PP3-18 Traduction Francaise dans la Revue Commentaires no 47.

فرانسيس فوكوياما: مرجع سابق ص ١١.

٤- انظر لتفصيل اكثر: Huntington (Samuel P.), The Cluch of Civilizations and the Remaking of World Order, Simon and Schuster 1996

٥- الإسلام لا يرفض المسيحية، بل يعدّ نفسه مكملا لما جاءت به، على عكس هذه الأخيرة.

٦- إن الطائرات المجنونة التي ارتطمت ببرجي التجارة العالمية World Trade Center بنيويورك في١١ سبتمبر ٢٠٠١م، هي إعلان للحرب من قبل الإسلام

٧ ضد الغرب انظر. Le Point 14/9/2001, no 1513, Special Attentat U S A.

٨- إن تأكيد المبادئ الإنسانية والكونية تواكبه ممارسة ثابتة لازدواجية الخطاب ،إذا يتم الدفاع عن الديمقراطية، لكن ليست تلك التي تمنح الفوز للإسلاميين المتطرفين (مثال الجزائر)، ويتم تأكيد منع انتشار الأسلحة المتطورة بالنسبة إلى العراق وإيران، ولا يمس ذلك الترسانة النووية لإسرائيل، وتشكل حقوق الإنسان مشكلة بالنسبة إلى الصين ويتم تجاهل وضعها في البلدان الحليفة للغرب ..)

لتفصيل أكثر انظر: Bessis (Sophie), l'Occident et les Autres, Histoire d'Une Suprematie, 1ere ed. Paris. La Decouverte 2001.

٩- انظر: Ramonet (Ignacio) Civilisations en Guerre? Le Monde Diplomatique Juin 1995.

١٠- انظر: Kirpatrick (Jeanef.), The Modernizing Imperative, in World Economy and Politics, No 2,1994,pp 48 -58.

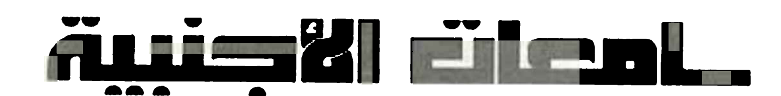
١١- انظر: Huntington (Samuel):(Ifnot Civilization, then What?) Foreign Affairs, Voi. 72,no3, Summer 1993.

١٢- انظر Fukuyama(F). (Nous Sommes Toujoursa la Fin de l'histoire) le Monde 18 Oct 2001

-١٣



الحرية الأكاديمية في الجـــ



محـمـد أحـمـد شـقـيـر
القاهرة ــ مصر

إن قرار حقوق الإنسان الذي تبنته الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨م والذي يتضمن ثلاثين مادة، كان الهدف منه تدعيم احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية.

ويدعو الإعلان إلى ضرورة كفالة حقوق الإنسان الشخصية والمدنية والسياسية والاجتماعية والثقافية، والتي تقتصر فقط على الإقرار والاعتراف بحقوق الآخرين الأخلاقية وحرياتهم، والأمن والصالح العام.

والحرية Liberty/Freedom تعني حق كل فرد في المجتمع بالتصرف حسب ما يراه مناسبًا، ويأتي تعريف الحرية الشخصية من هذا المنطلق، كما يستخدم هذا المصطلح فيما يرتبط بتحقيق السيادة للشعب وهو ما نُسميه بالحرية القومية عند استخدامه بهذا المعنى.

والمفهوم الحديث للحرية يذهب أبعد من ذلك، حيث يشير ضمنًا إلى مجموعة عامة من الحقوق كفرص التعليم والاقتصاد. وفي هذا المجال، فإن تعريف الحرية كحق من حقوق الأفراد هو التصرف دون قيود ما دامت تصرفاتهم لا تمس الحقوق المتكافئة للآخرين. وقدسببت طبيعة هذه القيود وآفاقها واختيار الوسائل لتنفيذها مشكلة كبيرة للفلاسفة وواضعي القوانين عبر التاريخ.

وقديمًا كانت الحريات تعني الحرية القومية حيث كان ينظر إلى العبودية كأنها أداة ضرورية للمجتمع. وفي العصور الوسطى كانت الحرية ذات صلة أساسية بطوائف اجتماعية تسعى إلى اقتناص بعض الامتيازات الخاصة واستغلالها من الأسياد الذين نازعوهم طمعًا في الوصول إلى السلطة. وبانتهاء العصور الوسطى جاء عصر النهضة ليُحذر من مشكلات الحرية الفكرية متحديًا بذلك المبادئ الثابتة للكنيسة الكاثوليكية، في الوقت الذي روِّجت فيه حركة الإصلاح Reformation لأفكار خاصة بالحرية الدينية وحرية الضمير.

وبانتصار الثورة الأمريكية عام ١٧٧٦م قامت بدمج مشكلات تحقيق الحرية الفردية بتلك القائمة على خلق دولة جديدة. وعكس إعلان الاستقلال الذي أصدره الثوريون الأمريكيون قرونًا من الكفاح من أجل نيل الحرية في إنجلترا.

وكان على إثر ذلك صدور الميثاق الثاني العظيم من جانب الثورة الأمريكية ألا وهو «دستور الولايات المتحدة». لقد أثيرت مشكلة جوهرية بالنسبة إلى الحرية القومية ذات الصلة بنضال الولايات الصغيرة والمستعمرات التي طالبت بتحريرها من السيطرة السياسية والاقتصادية الأجنبية مما يكفل لها السيادة الكاملة، وتَبِعَ ذلك الجهود التي بذلتها الأقليات القومية والعنصرية في نيل الحكم الذاتي الثقافي والاقتصادي في إطار الدولة. أمّا بخصوص الحرية الشخصية في العصر الحديث فكان التحدي هو الاحتفاظ والتوسع في الحصول على الحقوق والحريات المدنية كحرية التعبير وحرية الصحافة.

والحـــريات على أشكال متـعـددة أخرى، فـمنهـا حـرية العقيدة والتنقل والتملك والاجتماع والإرادة والتـجـارة والعمل والاختيار والتـصـــرف والفكر والرأي والحـــرية الدينية والسياسية، إضافة إلى الحرية الأكاديمية التي نحن بصدد الحديث عنها بشيء من الإسهاب.

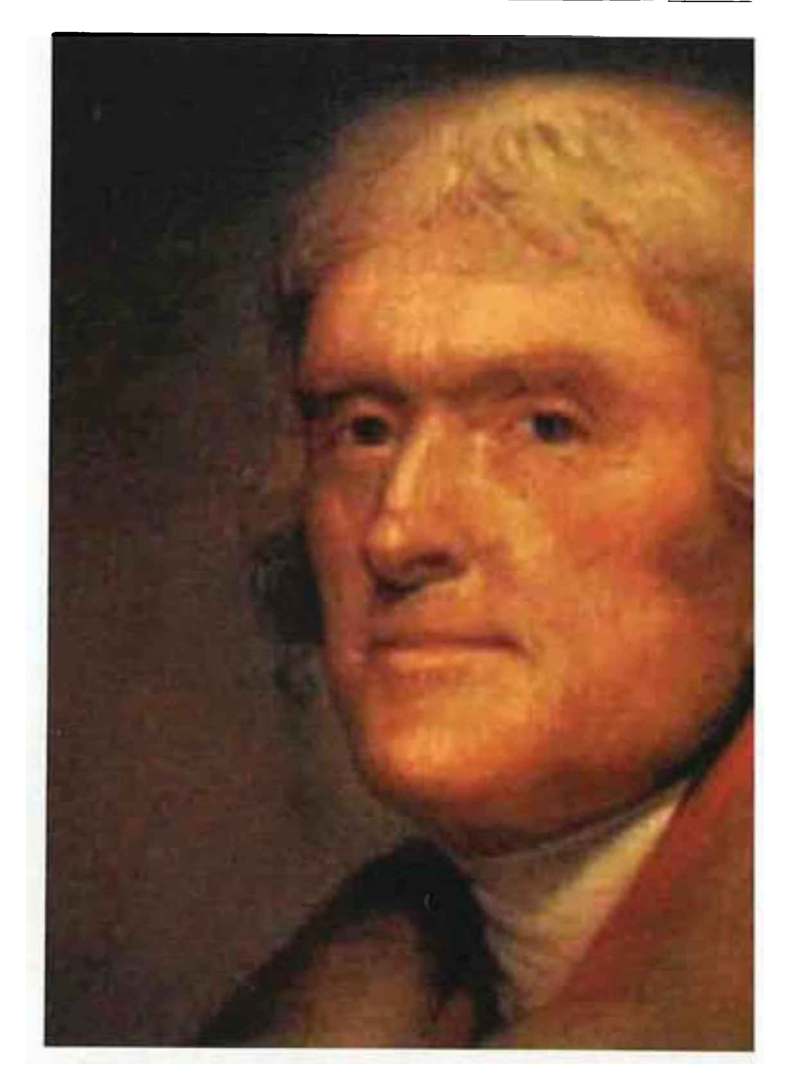
مفهوم الحرية الأكاديمية

الحـرية الأكـاديميـة هي حق المعلّم أو المتـعلّم أو البـاحث في استقصـاء مجالات المعرفة والتعبير عن رأيه دون خـــوف أو وَجَل من التدخل القَسْري أو القيود أو الطَّرْد. فالحرية الأكاديمية تتساوى مع حرية الكلمة وحرية الصحافة وحرية العبادة كصفة جوهرية يتميز بها المجتمع الديمقراطي.

الحرية الأكاديمية هي حق المعلم أو المتعلم في استقصاء مجالات المعرفة

تاريخ الحركة

إنَّ الجدَل الذي أُثير حول موضوع الحرية الأكاديمية والقيود التي فرضت عليها يُمْكِنُ تتبعه من خلال تاريخ التعليم منذ العصر القديم فصاعدًا. وقد شمل الكثير من الجدل الصراع بين الآراء الليبرالية للمدرسين والطلاب، ومذهب المحافظين (المناوئ للتغيير) المؤسس للسلطة. فـأيُّ رأي أو استنتاج يتعارض مع المبادئ الدينية كان عرضةً للاستنكار أو الاستهجان. وقديمًا حكمت سلطات أثينا على سقراط بالموت لاعتقادها بأنَّ تعاليمه أفسدت عقول الشباب. وفي العصور الوسطى وجد كل من بيتر أبيلارد Peter Abelard ومارسيليوس Marsilius، وهما باحثان بارزان، وجَدَا نفسيهما في صراع مع الكنيسة، حيث حكمت على بعض تعاليم أبيلارد بأنها هرطقية Heretic (أي منشقة عن عقيدة ما)، وقد دفع الشك بالهرطقة مارسيليوس، الذي شغل يومًا منصب عميد جامعة باريس، إلى اللجوء إلى ألمانيا. كما أنَّ الإصلاح خَلَقَ مصادر جديدة للصراع، وكان مارتن لوثر أحد الباحثين في هذه الفترة والذي عُرِفَ بتمسكه بمعتقداته على الرغم من معارضة السلطات له، وأدرك رُوَّاد العلم، أمثال جاليليو Galileo، بأن أبحاثهم أصبحت لا تجد قبولاً لديها حيث صَدَر الحظر على نشرها.



ويرجع الفضل في ظهور الحركة الأكاديمية في القرن السابع عشر إلى ما مَهَّدَ له الفيلسوفان الإنجليزيان جون لوك John Locke وتوماس هوبز Thomas Hobbes حيث استعرضا - حسب المفهوم الحديث - الحاجة إلى حَلٍّ عام للتعليم بلا عوائق وذلك عن طريق التصورات المسبقة Preconceptions. وكان للجامعتين الألمانيتين هال Halle (١٦٩٤م) وجوتنجن Gottingen (١٧٣٧م) قصب السبق في أوربا بتوفير الحرية الأكاديمية منذ افتتاحهما.

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تمتعت الجامعات في غرب أوربا وبريطانيا والولايات المتحدة بقسط وافر ومتزايد من الحرية الأكاديمية. فقبول الوسائل التجريبية للعلوم أصبح أكثر انتشارًا في الوقت الذي انهارت فيه الهيمنة الدينية للمؤسسات.

أساسيات الحرية الأكاديمية

للحرية الأكاديمية بالنسبة إلى المدرس جوانب ثلاثة:

- له الحرية في تقديم مكتشفاته وأحكامه لتلاميذه في مجال تخصصه.
- له الحرية في متابعة البحث التعليمي والتوصل إلى أي استنتاج.
- له الحرية في نشر نتائج بحثه وفكره لكي يتسنى لزملائه والجمهور العام الاستفادة منه على أساس ما يقوم بدراسته، والاستماع والتعبير عن آرائه، ورغبته في تقرير ما هو قائم على دراسته.

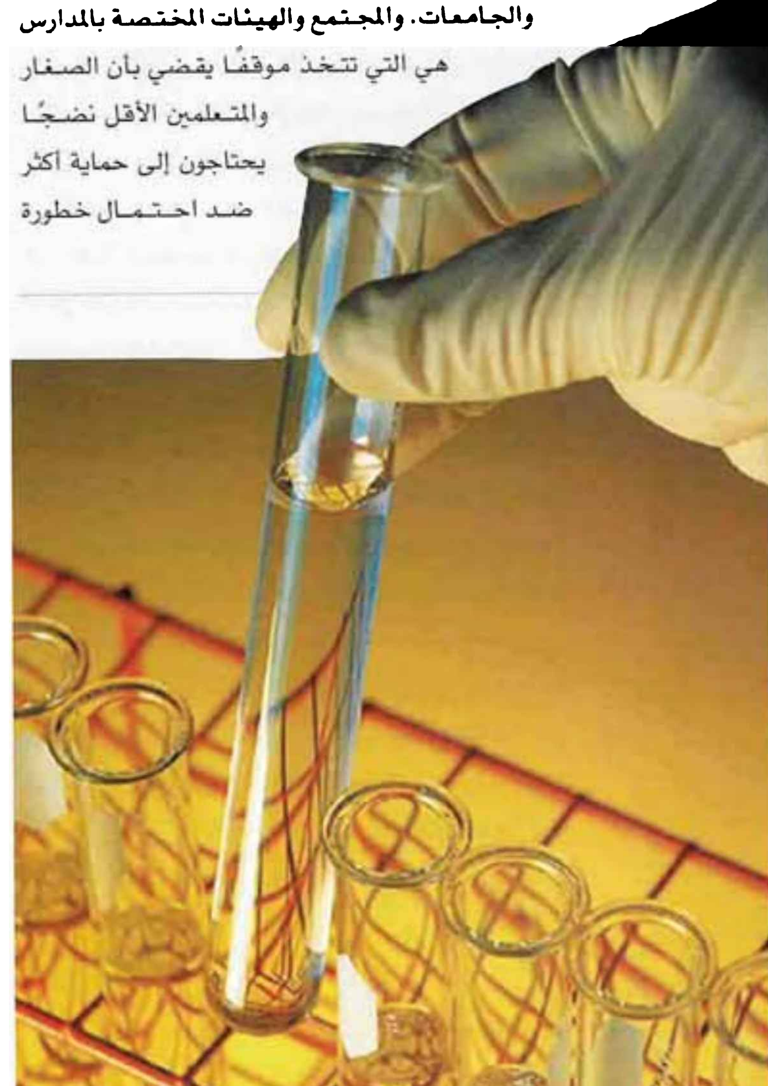
ولطلاب الكليات في القرن العشرين الحرية المعقولة في اختيار مناهجهم الدراسية، كما لهم الحرية في إبداء الرأي فيما تقوم به الكلية من أعمال عن طريق المؤسسات الطلابية.

وبعد الحرب العالمية الثانية شرع الطلاب في الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان مختلفة في أوربا وامريكا اللاتينية في المطالبة بمشاركة أوسع في صُنع القوانين الجامعية وإقرارها، والتخطيط للمناهج الدراسية، وبفضل هذه التحركات توسع مفهوم الحرية الأكاديمية الطلابية، فلا الطالب ولا المعلم يستطيعان التوقع بأن تكون الحرية الأكاديمية غير محدودة، فالحق في ممارسة أي حرية يعني الواجب في استخدام هذه الحرية بالتزام ومسؤولية. وقد صرح المحامي هولمز Justice Oliver Wendell Holmes لدى المحكمة العليا الأمريكية أن حرية الكلمة لا تعني إطلاق

العنان جزافًا على المنابر، وكذلك فإن الحرية في التدريس لا تعطي المدرس الحق في تقديم أفكاره بطريقة تقوم على خداع زملائه وتلاميذه.

فالحرية التي تستخدم بتجرُّدها من المسؤولية تصبح رخصة، وتتدخل بالحرية الأكاديمية للآخرين. وإضافة إلى الحدود التي تُقرها المسؤولية الشخصية، فإنَّ هناك قيودًا معينة يفرضها المجتمع على الحرية الأكاديمية، ومثال ذلك القوانين التي تنظم حرية التعبير والنشر وتلزم المدرس بالتقيد بما يقوله أو ينشره. فالكليات والمؤسسات تقوم بإصدار القوانين للتحكم في سلوك أعضائها.

وعمومًا فإن القوانين والأحكام تكون أكثر إلزامًا وتقييدًا في المدارس الابتدائية والثانوية منها في الكليات والجامعات. والمجتمع والهيئات المختصة بالمدارس هي التي تتخذ موقفًا يقضي بأن الصغار والمتعلمين الأقل نضجًا يحتاجون إلى حماية أكثر ضد احتمال خطورة



الثورة الأمريكية قامت بدمج مشكلات تحقيق الحرية الفردية بتلك القائمة على خلق دولة جديدة. وعكس إعلان الاستقلال قرونًا من الكفاح من أجل نيل الحرية

التدريس من طلاب الكليات، وأنَّ معلمي المدارس ليست لهم الميزة التي يتمتع بها أساتذة الجامعات بما لهم من خبرات واسعة، وأن الطلاب يُمنحون استقلالاً ذاتيًا أكثر وهم يتقدمون إلى مستويات أعلى في الدراسة.

وتبرز هنا إحدى القضايا الصعبة فيما يختص بالحرية الأكاديمية، وهي مسألة تحديد المدرسين والطلاب للأنشطة المدرسية. ويمكن تصوير هذه المشكلة بالعادة المزمنة القائلة بأنَّ معلمي المدارس الأمريكية العامة هم من الفئة المنعزلة عن السياسة، فهم لا يجرون وراء المناصب أو يشاركون في الحملات السياسية، وحتى مدرسو الكليات يشعرون بضغوط ليتجنبوا الدخول في الإرهاصات العامة.

وفي القرن العشرين أصرَّ المدرسون على حقهم في العمل بوصفهم مواطنين عاديين في مجتمعاتهم، ومع ذلك فإن هذا الحق بقي نفسه عمليًا حيث يتوقع من المدرس التصرف دومًا بيقظة وحذر ووعي وإدراك لمسؤوليته لكونه مرشداً لأجيال حديثة السن. وتعطي المجتمعات الكبيرة عادة حرية أكثر للمدرسين مما تعطيه المجتمعات الصغيرة، وذلك لتُمكّن المدرس من العيش في بحبوحة.

وثمة سبب آخر وهو عامل الطابع الزمني Temper of Time عندما يجد المدرسون والطلاب أنفسهم معرضين لقيود وضغوط غير عادية داخل المدرسة وخارجها إذا ما نشبت أزمات محلية أو دولية.



تكون القوانين والأحكام أكثر التزامًا وتقيدًا في المدارس الصغرى منها في الكليات والجامعات

المفهوم الحديث

إن بداية الموقف الحديث تجاه الحرية الأكاديمية، أي بمعنى الاعتقاد بإتاحة الفرص الكبرى للمدرسين والطلاب بالإمكان تتبعها مع تأسيس جامعة ليدن Leiden بهولندا عام ١٥٧٥م، فهذه المؤسسة لم تمنح حرية أكاديمية كاملة، ولكن القيود الدينية والسياسية المفروضة على الكلية وطلابها كانت تصل إلى درجة متدنية. ولسوء الحظ فإن سجل هذه الجامعة كمركز للبحث الحر قد تم التعتيم عليه عن طريق القيود الدينية التي فرضتها عليها سلطات الكنيسة الكلفينية (نسبة إلى جون كلفن ١٥٠٩ . ١٥٦٤م) في وقت مبكر من القرن السابع عشر. ومع النصف الثاني من القرن السابع عشر تسارعت وتنامت باتجاه الحرية الأكاديمية، فقد تمّ على سبيل المثال وضع اقتراح في عام ١٧٦٧م يتم من خلاله إنشاء نموذج لجامعة حرة في ألمانيا وذلك عندما تمكن البارون السويدي بنت سكايت Bengt Skytte من إقناع فريدريك وليام المنتخب العظيم لمدينة براندنبرج في رعاية مؤسسة للبحث والتدريب ذات أهداف متحررة، على أساس ان تكون الكلية المُزْمَع

يرجع الفضل في ظهور الحركة الأكاديمية في القرن السابع عشر إلى ما مَهَّدَ له الفيلسوفان الإنجليزيان جون لوك وتوماس هوبز. وكان للجامعتين الألمانيتين هال وجوتنجن قصب السبق في أوربا بتوفير الحرية الأكاديمية منذ افتتاحهما



جاليليو أحد رواد العلم

إنشاؤها دولية، وعرقية دينية متداخلة، وتعمل بلا قيود باستثناء الحظر على تحويل معتقدات الشخص الدينية بالتحريض والترغيب؛ غير أن الخطة هذه استخدمت كدليل للمُربين الجدد. وهناك رائد آخر من الرواد التربويين وهو كريستيان توماسيوس Christian Toma-sius الذي أدخل عام ١٦٨٧م ممارسة إلقاء المحاضرات باللغة الألمانية في جامعة ليبزج Leipzig وفضّلَها عن اللغة اللاتينية. وهذا التجديد إضافة إلى معارضته للخرافة وأعمال السحر أدّيا في نهاية المطاف إلى الإسراع في رحيله عن الجامعة، ومع ذلك فإن توماسيوس ومُنْشَقيْنَ آخرين كانت تُوجه إليهم الدعوة لحضور بعض المحاضرات في جامعة هال المتحررة من كل تعصّب ديني.

وخلال القرن الثامن عشر أصبحت الحرية الأكاديمية قائمة على أسس راسخة وخصوصًا في جامعة جوتنجن (١٧٣٧م) بألمانيا. وثمة مَعْلَم آخر من معالم التعليم في أوربا هو القرار الذي أصدره الماركيز العلامة الفرنسي دي كوندورسي Condorcet عام ١٧٩٢م، والذي ألهمته أجواء الثورة الفرنسية في المطالبة بأن يكون التعليم حُرًا وغير مقيّد من قبل الرقابة الكَنَسيّة والحكومية والقوى الأخرى كافة، بما في ذلك الرأي العام. ومع ذلك فلم تضع فرنسا تلك الأفكار حَيّز التنفيذ، غير ان نابليون أدخل أنظمة وسياسات أخرى في التعليم العالي حدّت من الحرية الأكاديمية.

وأما بروسيا وهي أحد المعارضين لسياسة نابليون، فقد قامت بتأسيس جامعة برلين في عام ١٨١١م، وفيها تشكلت ومُورست مبادئ التعليم والدراسة، حيث قام عميد الجامعة جوهان جوتليب فيشت Johann Gotti-leb Fichte بالإضافة الكلاسيكية لهذه المبادئ، وحسب ما قاله الفيلسوف المشهور بأن الجامعة تستطيع تحقيق أهدافها فقط إذا ما توفرت لها الحرية الخارجية والحرية الأكاديمية بمعناها الواسع.

وهناك بيان آخر بالمبادئ خاص بالحرية الأكاديمية صدر عن توماس جيفرسون Thomas Jefferson في عام ١٨١٩م عند تأسيس جامعة فرجينيا حيث قطع

تاريخ الحرية الأكاديمية في القرنين التاسع عشر والعشرين هو سجلّ من المشكلات والتقدم، حيث إن القوى بأنواعها المتعددة كالقومية، والإكليروسية والمحافظين والراديكالية، باشرت ممارسة ضغوطها على المؤسسات التعليمية

الحرية في التعليم جزء أساسي من الحرية الأكاديمية

عهدًا على نفسه بأن مبادئ المؤسسة الجديدة سوف ترتكز على الحرية غير المحدودة للفكر البشري.

إن تاريخ الحرية الأكاديمية في القرنين التاسع عشر والعشرين هو سِجِلٌ من المشكلات والتقدم، حيث إن القوى بأنواعها المتعددة كالقومية، والإكليروسية (سياسة تأييد قوة القساوسة ونفوذهم في الأمور السياسية والدنيوية)، والمحافظين والراديكالية، باشرت ممارسة ضغوطها على المؤسسات التعليمية، ويتضح ذلك جليًا من الأمثلة التالية:

في ألمانيا طُرِدَ رائدان في علم اللغة والفولكلور الشعبي وهما جاكوب ويلهيلم جريم Jabcob and Wil-helm Grimm من جامعة جوتنجن في عام ١٨٣٧م لمعارضتهما إلغاء مَلِك هانوفر للدستور.

مما ساعد على تحريك جذوة المعارك الكبرى الخاصة بالحرية الأكاديمية في القرن العشرين هو التوتر الدولي والإيديولوجي حيث إنه خلال الحرب العالمية الأولى واجه المدرسون تضييق الخناق عليهم

في إنجلترا لم تُلْغَ المؤهلات الدينية في جامعتي اكسفورد وكمبردج إلا بحلول عام ١٨٧١م.

وفي إنجلترا والولايات المتحدة ودول أخرى واجه الدارسون والباحثون المؤيدون لنظرية داروين في الارتقاء والنشوء كثيرًا من السخرية والتهكم لدرجة انهم فقدوا وظائفهم.

وفي وقت متأخر من القرن العشرين استمر وجود القيود على تدريس علم الأحياء الدارويني، وخير برهان على ذلك محاكمة سكوب Scope الشهيرة في عام ١٩٢٥م التي أخفقت في إبطال مفعول قانون تينيسي Tennessee Act الذي منع تدريس مفهوم الارتقاء والنشوء في المدارس العامة.

وعلى الرغم من المقاومة، فقد سارت الحملة من أجل الحرية الأكاديمية قدمًا حيث تنامت الدعوة إلى العلمانية Secularism، وظهور الجامعات الألمانية، والتوسع في وجهات النظر الاجتماعية والفكرية التي ساهمت جميعها في قضية حرية التعليم. وكان لتأسيس بعض الهيئات مثل الجمعية التربوية القومية (١٨٥٧)، والجمعية الأمريكية لأساتذة الجامعات (١٩١٥م) والاتحاد الأمريكي للمعلمين (١٩١٦م) واتحاد الحريات المدنية الأمريكي عام (١٩٢٠م) دفعة قوية جديدة في العمل على ترسيخ حقوق المدرسين وامتيازاتهم وحفظها.



في إنجلترا لم تُلغ المؤهلات الدينية في جامعتي أكسفورد وكمبردج إلا بحلول عام ١٨٧١م

قضية الانتماء

ومما ساعد على تحريك جذوة المعارك الكبرى الخاصة بالحرية الأكاديمية في القرن العشرين هو التوتر الدولي والإيديولوجي حيث إنه خلال الحرب العالمية الأولى واجه المدرسون تضييق الخناق عليهم فطُردُوا من أعمالهم بسبب أنهم لا يدينون بالولاء أو الانتماء إلى أوطانهم.

وفي غضون فترة الكساد في الثلاثينيات عندما تمكنت الشيوعية من تثبيت أقدامها في الدوائر الفكرية سنَّ كثير من الهيئات التشريعية قوانين تطالب فيها المدرسين الحلف بقسم الانتماء. كما صدر قانون الدفاع التربوي القومي (١٩٥٨م) الذي يقضي بضرورة الحلف بيمين الانتماء كشرط للمعونة الفيدرالية للطلاب، كما صدر شرط مشابه لذلك من قبل المؤسسة العلمية القومية.

وقد دفعت الأزمات الطاحنة المحكمة العليا في الولايات المتحدة إلى الاهتمام بالأمن القومي مما عَزَّز من أهمية النقاش الخاص بالحرية الأكاديمية، ويبدو أن شيئًا من الإجحاف تضمنه التحقيق الخاص بنشاط المدرسين والطلاب الذي عدّته المحكمة بمنزلة المصلحة العامة مما جعلها تبطل العمل بالحصانة الأكاديمية والفردية.



نادى الطلاب بمشاركة أوسع في وضع القوانين الجامعية وإقرارها

خروقــــات

وخلال النصف الأول من القرن العشرين تمّ الاعتراف بشكل كبير بالحرية الأكاديمية في معظم البلدان الغربية. وعلى الرغم من كل ذلك، فقد زادت الخروقات والمخالفات بظهور النزعة الاستبدادية أو الحكم المطلق في عدة أقطار من العالم وخاصة في ألمانيا وإيطاليا وجمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية (سابقًا)، كما ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية متمثلة بما جرى عند محاكمة جون ت سكوبس الشهيرة التي عرفت بمحاكمة القرد Monkey

الحرية التي تستخدم بتجرُّدها من المسؤولية تصبح رخصة، وتتدخل بالحرية الأكاديمية للآخرين. فبالإضافة إلى الحدود التي تُقرها المسؤولية الشخصية، فإنَّ هناك قيودًا معينة يفرضها المجتمع على الحرية الأكاديمية.

Trial في ذلك الوقت حيث غرمته المحكمة ١٠٠ دولار لمخالفته قانون بتلر Butler Act الذي كان معمولاً به بولاية تينيسي حتى عام ١٩٦٧م، والذي كان يحرم تدريس الداروينية في المدارس العامة.

وعقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) اشتد الخوف على نطاق واسع في الولايات المتحدة لاعتقاد الناس بأن أعضاء الحزب الشيوعي استطاعوا التغلغل في مجال التعليم، كما اتّهم بعض رجال التعليم الأمريكيين بالانضمام إلى عضوية الحزب الشيوعي، كما طُرد المدرسون بحجة استخدامهم لمناصبهم لتحقيق أغراض التعاليم الشيوعية مما يعدّ انتهاكًا وخرقًا لأصول الأخلاق المهنيّة.

تَوَرُّط طلابّي

لقد كانت الحرية في التعليم دائمًا جزءًا أساسيًا من الحرية الأكاديمية. وقد تورّط بعض المدرسين والطلاب عدة قرون بقضايا كبرى في هذه المنطقة، وثار نزاع مماثل بين الكلية والإدارة، والرئيس وأمناء الجامعة أو الكلية، والولاية والحكومة الوطنية.

وفي منتصف القرن العشرين تورَّط عدد من الطلاب وبشكل متزايد في حركات تَوَسَّعت في تفسير معنى الحرية الأكاديمية وعَقّدت من مشكلة تعريف حدود هذه الحرية. وقد دعا الطلاب إلى أن يكون لهم صوت مسموع في سياسة الجامعة وعلى وجه الخصوص في الولايات المتحدة الأمريكية، وأمريكا اللاتينية وأقطار أخرى حيث طالب البعض على سبيل المثال لا الحصر:

- السماح لهم بتقويم أداء الكلية.
- المطالبة بممارسة الحرية الكاملة في السلوك الاجتماعي والعمل السياسي.

وقد ساند هذه المطالب ما قام به النشطاء من تكتيكات كمظاهرات الاعتصام والإضرابات. ونتيجة لهذه الجهود الطلابية فقد ازداد مجال الحرية الأكاديمية اتساعًا في أقل من سنوات عشر.



1- American Civil Liberties Union, Academic Freedom and Civil Liberties of Students in College and Universities, rev. ed. (1971).

2- Bok, Derek C., Beyond the Lvory Tower (Harvard Univ. Press 1982).

3- Fenichel, A., and Mandel, D., Academic Corporation - Justice, Freedom and the University (Black Rose Bks. 1987).

4- Hofstadter, Richard, and Metzger, Walter P., The Development of Academic Freedom in the United States (Columbia UnivPress 1955).

5- Kirk, Russel, Academic Freedom (1955; reprint, Greenwood Pressc 1977).

6- Pincoffs, Edmund L., ed.., The Concept of Academic Freedom Univ. of Texas Pressc 1975).

7- Robbins L.C., Of Academic Freedom (London 1986).





اشكاليـة العـلاقـة بين اللغـ



وليد بن بليهش العمري

المدينة المنورة – السعودية

لعل من نافلة القول ذكرنا أن هناك رابطة وثيقة العرى بين اللغة والتفكير، فخبراتنا الحياتية اليومية البسيطة تؤكد أن الكثير من تفكيرنا تؤثر فيه اللغة. ولكن هل هناك تأثير تشكيلي بينهما؟ هل يمكننا التفكير بلا لغة؟ أم هل تملي لغتنا الطرق التي نتمكن بها من التفكير؟ هذه الأسئلة تطلبت جهدًا كبيرًا من أجيال من الفلاسفة وعلماء النفس واللغويين الذين كشفوا عن طبقات متراكبة من التعقيد في هذه الأسئلة التي تبدو مباشرة. وإجابة سهلة واحدة غير ممكنة. ولكن يمكننا على أقل تقدير إيضاح بعض العوامل التي تسهم في إيجاد هذه التعقيدات.

طرق التفكير

يمكن تعريف الكثير من التصرفات الإنسانية بأنها تفكير. ولكن لا تتطلب جميعها منا ربطاً باللغة يكون التأثير أساسه. وأكثر الأمثلة وضوحًا على هذا هو أننا لا يمكننا إقحام اللغة في المعادلة عند الحديث عن ردة الفعل الإنسانية لشيء أو حدث ما. كالتأثير الذي تحدثه فينا رؤية لوحة فنية مبدعة أو حادث مروري مريع. قد نلجأ إلى اللغة للتعبير عن ردة فعلنا للآخرين. ولكن لا نستطيع التعبير عن شعورنا بالكلمات. ولا يجد المبدعون حاجة لا يمكن الهروب منها للتفكير لغويًا. فذوو الآذان الموسيقية عادة ما يذكرون أنهم يسمعون ما يودون تدوينه والتعبير عنه. وكذلك تفكيرنا اليومي الشارد وأحلامنا وتيار الشعور يمكنها الانسياب دون تدخل اللغة.

التفكير الذي يتطلب اللغة هو من نوع آخر. فهذا هو التفكير المنطقي الذي نعود به إلى مشكلاتنا ونقص به الأقاصيص وتخطط به. ويعرف هذا النوع من التفكير بالتفكير المنطقي، والتفكير الموجه، والتفكير الاقتراحي. وينطوي هذا النوع من التفكير على عوامل منها الاستنباطي (كحلنا لمشكلة ما بناء على قواعد معروفة) ومنها المبني على المعطيات (عندما نحل مشكلة ما انطلاقًا من المعلومات المتوافرة عنها)، ويبدو أن للغة أهمية خاصة في هذا النوع من التفكير. وخصائص اللغة الرئيسة كترتيب الكلمات وبناء الجمل، تمثل وسيلة يمكن عرض أفكارنا المتسلسلة وتنظيمها بواسطتها.

علاقة اعتمادية أم تشكيلة

ولكن ما حقيقة هذه العلاقة بين اللغة والتفكير؟ عادة ما ينظر إلى هذا السؤال من زاويتين مختلفتين تمامًا. أولا. هناك الفرضية القائلة: إن اللغة والتفكير كيانان مختلفان، يعتمد أحدهما على الآخر. وفي المقابل هناك فرضية تقول: إن اللغة والتفكير شيء واحد، بمعنى أنه يستحيل التفكير دون استخدام اللغة. ويبدو أن الحقيقة تكمن في أرضية وسط بين هذين الموقفين. هناك احتمالان واضحان في الموقف الأول: قد تعتمد اللغة على التفكير، أو قد يعتمد التفكير على اللغة. والنظرة التاريخية الواسعة الانتشار تتبنى الاحتمال الأول. أي أن للناس أفكارًا يصوغونها لغة. وتلخص هذه النظرة مجازيًا بالقول: إن اللغة لباس وأداة للأفكار.

وتنتشر هذه النظرة في مجال اكتساب اللغة عند الأطفال حيث يعتقد أن الأطفال يطورون قدرات إدراكية تتقدم على تعلم اللغة.

والاحتمال الثاني منتشر أيضًا: الطرق التي نستخدم بها اللغة تملي طريقتهم في التفكير. وهذا الاحتمال أيضًا يتمثل في حقل اكتساب اللغة في النظرة التي تقول: إن اتصال الطفل الأول باللغة يشكل الطريقة التي يتعلم بها الأفكار.

و هناك احتمال ثالث، وهناك الكثير ممن يؤمنون به في هذه الأوقات، وهو أن اللغة والتفكير يؤثر كل منهما في الآخر ولكن لا يعني هذا أنهما متطابقان. ولم تعد رؤية التشكيل التي تقول: إن التفكير هو حديث داخلي صامت، واسعة الانتشار كما كانت. فهناك الكثير من الاستثناءات مما يجعل من هذه نظرية مهلهلة: نحتاج فقط إلى التفكير في الأشكال المتعددة من العمليات العقلية التي نمارسها دون الحاجة إلى لغة، كتذكر سلسلة حركات في لعبة رياضية مثلا، أو تصور الطريق من العمل إلى المنزل. ويعتقد الكثيرون أن الصور الذهنية والنماذج الشكلية تساعد على حل المشكلات، وفي كثير من الأحيان تقوم بعمل أفضل من مجرد الوصف اللفظي البحت.

التفكير الذي يتطلب اللغة هو من نوع آخر، فهذا هو التفكير المنطقي الذي نعود به إلى مشكلاتنا وننقص به الأقاصيص وتخطط به. ويعرف هذا النوع من التفكير بالتفكير المنطقي، والتفكير الموجه، والتفكير الاقتراحي

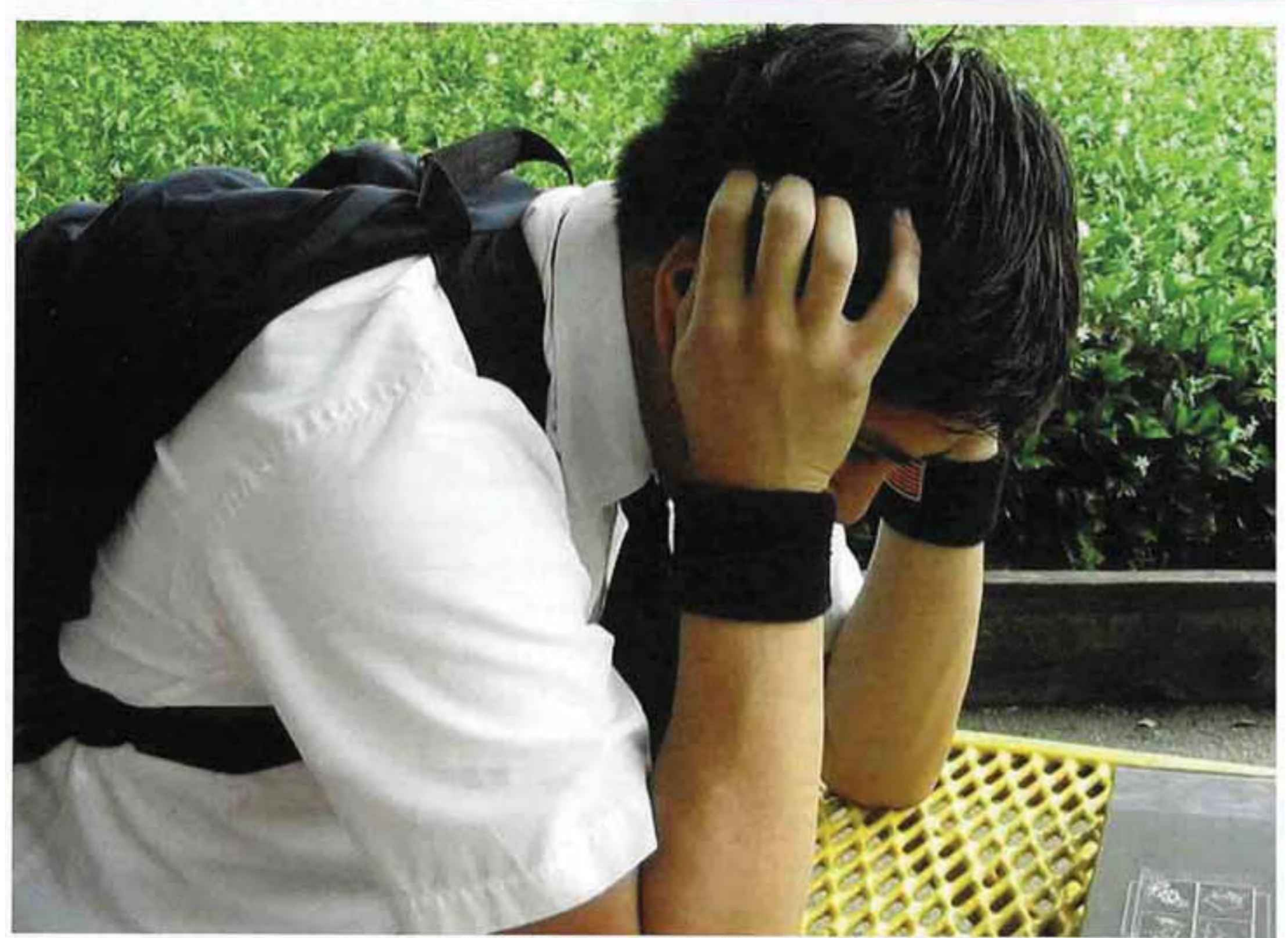
هناك الفرضية القائلة: إن اللغة والتفكير كيانان مختلفان، يعتمد أحدهما على الآخر. وفي المقابل هناك فرضية تقول: إن اللغة والتفكير شيء واحد

و من ناحية أخرى فإن هذه الحالات لا توازن عددًا بتلك التي يبدو أن اللغة هي الوسيلة الأساسية للتفكير الناجح فيها. ورؤية اللغة والتفكير معتمدين على بعضهما البعض تعني أن اللغة جزء متكرر في عملية التفكير، وفي الوقت نفسه تعني هذه الرؤية أنه لكي نفهم اللغة يتعين علينا التفكير. ولب القضية لا يكمن في تقدم أحدهما على الآخر بل في أهمية اللغة والتفكير معًا إذا أردنا أن نصل حقًا إلى معرفة أكثر عمقًا للسلوك الإنساني.

اللغة والتفكير الثقافي (فرضية سابر ـ وورف)

واقعية أواخر القرن الثامن عشر الرومانسية كما نواجهها في آراء جوهان وردروولهم فان همبولت أكدت بصفة خاصة تنوع الثقافات واللغات العالمية. وتأثر بهذا الإرث المعرفي عالم اللغة والأنساب الأمريكي إدوارد سابير وتلميذه بنجامين لي وورف، مما نتج من نظرة للعلاقة بين اللغة والتفكير كانت ذات تأثير واسع الانتشار خاصة في أواسط القرن الماضي.

وفرضية سابير ـ وورف هذه، كما عرفت فيما بعد، تحوي مبدأين. الأول: وهو الفرض اللغوي، يقول: إن اللغة تفرض الطريقة التي نفكر بها. والثاني: هو النسبية اللغوية وفحواه أن الفروقات المعنوية المضمنة في لغة ما لا تتوافر في أي لغة أخرى. ويذكر وورف في إحدى مقولاته الأكثر اقتباسًا: نحن نقسم الطبيعة



للغة دور في تحديد هوية المجتمع وربطه بواقعه

(الواقع) على امتداد خطوط ترسمها لغتنا الأصل. والتصنيفات والمسميات التي نعزلها من عالم الظواهر (العالم الخارجي) لا تجدها ثَمّ لأنها ماثلة للعيان بل بالعكس نقوم بتمثيل الواقع في صورة معشقة الأجزاء من الانطباعات التي يجب أن تنظم في اذهاننا، وهذا التنظيم يتم بواسطة النظام اللغوي الذي نحمله في اذهاننا. نقوم بتقطيع الواقع أجزاءً، وننظمها في مفاهيم، ونعلق بها أهمية قصوى ربما لأننا أطراف في اتفاقية تنص على تنظيمها بهذا الشكل وهي اتفاقية يدخل تحتها الكل في مجتمعاتنا اللغوية وهي مشفرة في أنماط لغاتنا. وهذه الاتفاقية هي، بطبيعة الأمر، ضمنية وغير معلنة ولكن شروطها إجبارية إلى أقصى مدى: فنحن لا نستطيع التحدث أبداً دون التقيد بتصنيف المعلومات التي تنص عليها الاتفاقية.

و يستدل وورف على هذه النظرة بأمثلة أخذها من عدة لغات، خاصة من الهوبي وهي لغة هندية أمريكية. ففي الهوبي هناك كلمة «ماساياتاكا» التي تعود على كل شيء يطير خلاف الطيور . ومنها الحشرات والطائرات.



وهذا المفهوم يبدو غريباً لشخص معتاد التحدث باللغة الإنجليـزية ولكنه ليس - برأي وورف - أغـرب من كـون متحدثي اللغة الإنجليزية يعودون بكلمة واحدة على أنواع متعددة من الجليد، بينما تحوي لغة الاسكيمو بالموازنة عدداً من الكلمات للتعبير عن الجليد المتساقط، والجليد على الأرض، والجليد المتثلج، والجليد المسحوق، وما إلى ذلك. وفي لغـة الأزتك تغطي كلمة واحـدة مجـالاً أرحب من المفاهيم الإنجليزية لأشياء مثل الجليد والبرد والثلج. وعند الحديث عن المفاهيم الأكثر تجريداً كالوقت والمدة والقـوة، يزداد الاختـلاف تعقيـداً، فـالهوبي على سبيل المثـال ليس فيـهـا مـفـهـوم للوقت كبـعـد، وليس هناك تصـاريف تتوافق مع الأزمنة في اللغـة الإنجليـزية، ولكن هناك سلسلة من الصيغ تمكن من التعبير عن مدد زمنية متـفـاوتة من وجـهـة نظر المتكلم. وبناء على هـذا يرى وورف أنه من الصـعـوبة بمكان أن يفـهـم شـخـصـان إنجليـزي وهوبي مـا يعنيـه الآخـر إذا مـا أخـذنا في الحسبان هذا الكم من الاختلافات بين اللغتين.

هناك علاقة شائكة بين اللغة والتفكير

و أمثلة كهذه تمهد الطريق للاقتناع بفرضية سابير- وورف. ولكن يندر أن نجـد في هـذا الزمـان من يؤمن بصحة الصيغـة الأكثر تطرفاً لهذه الفرضيـة. فحقيقة الترجمـة النـاجحـة بين اللغات ذات الثـقافـات المتبـاينة يمكن بحق الاحتجاج بها ضد الفرضية. وكذا حقيقة أن تفرد المفاهيم في لغة كالهوبي يمكن توضيحها بشكل ما باستخدام لغة أخرى. ولا يمكن إنكار وجود اختـلافات في المفاهيم بين الثقافات بسبب الاختلاف اللغوي. ولكن هذا لا يعني أن الاختـلافات من العِظَم بمكان مما يجعل التفاهم بين بني الثقافات المختلفة مستحيلاً. فلغة ما قد تعبر بعدة كلمات عن المفهوم نفسه الذي تعبر عنه لغة أخرى بكلمة واحدة. ولكن قد يفلح المرء في التعبير عن هذا المفهوم بالوصف.

و في خط النقـاش نفسـه، لا يعني عدم امـتلاك لغـة لكلمـة مـا أن متحـدثيها لا يمكنهم الاهتداء إلى المفهوم. فهناك الكثير من اللغات التي يندر فيها كلمات تعود على الأعداد. فمثلا لغة سكان استراليا الأصليين يتسع نطاقها ليشمل عدداً قليلاً من الكلمات العامة: «كل وكثير وقليل». وفي حـالات كـهـذه قـد يقـول البـعض إن هؤلاء يفـقـدون مفهوم العدد وإنهم لا يملكون الذكاء الكافي ليعدوا. ولكن هذا ليس هو الواقع فـعـندمـا يتـعلم سكان أسـتـراليـا الأصليون اللغة الإنجليزية كلغة ثانية لا تقل مقدرتهم على العد والحساب عن قرنائهم من أهل الإنجليزية.

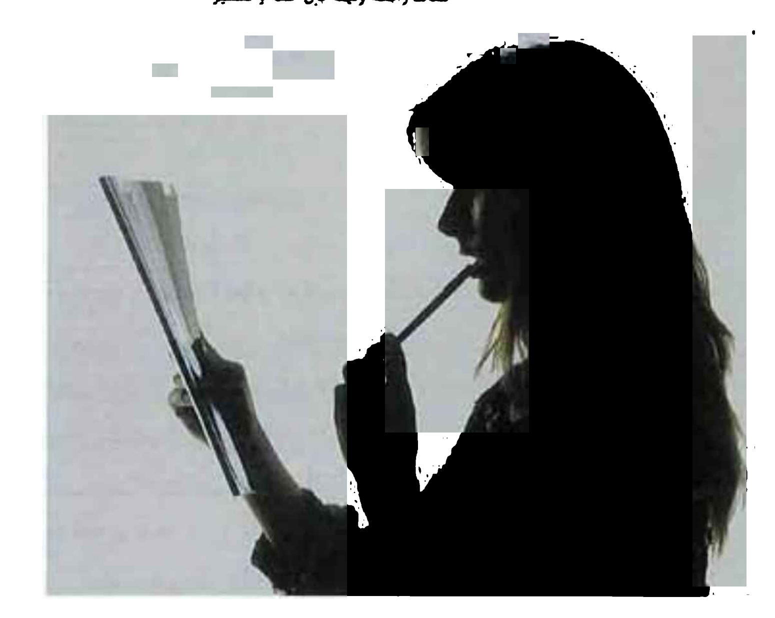
و مع هذا فـالصيغـة المخففة من فـرضيـة سـابيـر-

للغة أيضاً دور كبير في تحديد هوية المجتمع وربطه بواقعه. ولقد عرف المستعمر ذلك منذ وقت مبكر وحاول فـصـل المستولى عليـهم عن لغاتهم التي تشـكل نصـوصـهـا مـجـمـوع إرثهم الثـقـافي

السؤال الذي يجب طرحه هنا هو ما هي علاقة التفكير باللغة، خاصة فيما يتعلق بتأثير اللغة في التفكير الذي يؤثر بدوره في الهوية؟

وورف يعتقد بصحتها الكثيرون. فاللغة قد لا تفرض الطريقة التي نفكر بها ولكنها تؤثر في الطريقة التي نفهم بها الأشياء ونتذكرها، وتؤثر في سهولة قيامنا بعمليات ذهنية. وبينت عدة تجارب أن الإنسان يتذكر الأشياء التي توجد لها كلمات يعرفها. ويسهل على الناس بطبيعة الحال التفريق بين المفاهيم إن كانت تتوافق مع كلمات متوافرة في لغاتهم. هناك أمل إذاً لفرضية سابير-وورف في هذه الدراسات التي يقوم بها علماء اللغويات النفسية psycholinguistics.

هناك رابطة وثيقة بين اللغة والتفكير



اللغة والهوية: التخطيط اللغوي

خلافًا للعلاقة الشائكة بين اللغة والتفكير فقد لا يتمارى اثنان على السلطة القوية التي تمارسها اللغة على هوية المجتمع ومن ثم هوية أفراده. فثقافة المجتمع هي كم كبير من النصوص يتم تداولها وإدامتها بين أفراده. هذه النصوص تتخذ من لغة المجتمع وسيلة أو جسداً لا يمكنها الانفصال عنه بل تؤثر تأثيراً بالغاً في هذه النصوص. والقرآن الكريم ليس إلا مثالاً بينًا على تشكيل النص لهوية مجتمع المسلمين وثقافته وتصرفاته، وكذا على ارتباط النص القرآني الكريم باللغة العربية. ولكن هذا لا يعني أن الأفكار الثقافية نفسها التي تعبر عنها لغة ما لا يمكن التعبير عنها بلغة أخرى والتأثر بها بالقدر نفسه، فكم من مسلم عرف الإسلام واعتنقه وهو لم يتعرض لنصوص كتبت بالعربية. ومع هذا فإبدال النص القرآني باللغة العربية بلغة أخرى يبقى أمراً مستحيلاً؛ وذلك للثراء الدلالي وتراكم المعنى الذي مكنت منه وسيلة اللغة ولا تتوافر في لغات أخرى كوسيلة، فلكل لغة خصائصها المميزة.

و أفراد المجتمع تتشكل هوياتهم بعدد النصوص الصادرة عن مجتمعاتهم التي تعرضوا لها وتأثروا بها. فعلى سبيل المثال، وسائل الإعلام التي تعتمد على تصوير الحدث والتعليق عليه لغوياً لها دور مؤثر وفعال في صياغة رؤية متلقيها للواقع ولا سيما بكثرة طرق الطروحات التي تود جعل المستهدفين يعتقدونها.

للغة أيضاً دور كبير في تحديد هوية المجتمع وربطه بواقعه، ولقد عرف المستعمر ذلك منذ وقت مبكر وحاول فصل المستولى عليهم عن لغاتهم التي تشكل نصوصها مجموع إرثهم الثقافي: القصائد التي تحث على فضائل الأخلاق والدفاع عن الشرف، قصص الأبطال والشخوص الميثولوجيين، النصوص الدينية التي تربط الإنسان بواقع أسمى مما هو على الأرض. ولذلك نشروا



حاول المستعمر فصل المستولى عليهم عن لغاتهم التي تشكل نصوصها مجموع إرثهم الثقافي

اللغة السواحلية في شرق إفريقية، وهي لغة أقلية مغيبة عن ساحة التأثير بين شعوب تلك المنطقة حتى لا تثور عليهم الشعوب على أهازيج الأناشيد الحماسية، وحاصروا عرب ٤٨ من الفلسطينيين في كانتونات محصورة تشكل مناطق لغوية معزولة جغرافيًا ثم سلطوا عليهم برنامجاً مكثفاً سعى إلى محو هويتهم العربية، وهاجموا اللغة العربية الفصحى بضراوة ليحلوا مكانها اللهجات المحلية ليذيبوا بذلك لحمة الكيان العربي الكبير ويعزلوا شعوبه المسلمة عن نصوصهم الدينية التي هي ما يحيون ويموتون لأجله.

هذا التخطيط قد لا يؤدي نتيجته المرجوة في أغلب الأحيان، فكما نعلم لم تنجح المخططات في إحلال اللهجات العامية مكان اللغة العربية الفصحى، ولم تفلح إسرائيل في تدوير عرب ٤٨ تماماً في فلكها، وربما فطن المستعمر الجديد لهذا الإخفاق ونحا منحى جديداً أقل صداماً وأكثر دهاء يتوافق مع الاستعمار الثقافي بل ويتماهى فيه.

يسمي هربرت ماركيوز في كتابه «الإنسان ذو البعد

خلافًا للعلاقة الشائكة بين اللغة والتفكير فقد لا يتمارى اثنان على السلطة القوية التي تمارسها اللغة على هوية المجتمع ومن ثم هوية أفراده

الواحد» هذا النوع من الصياغة اللغوية «لغة الشرطة العالمية». إلماحاً بذلك إلى دور الشرطة العالمية التي تضطلع به الولايات المتحدة التي هي منشأ هذا الاتجاه اللغوي أو على الأقل أكثر من روج له. وفي هذا التخطيط اللغوي الجديد يغلب المسمى على الفكرة التي تتشكل عن الواقع الذي يعود عليه، مثل مصطلحات: التطهير العرقي، وتجفيف الينابيع. وأكثر هذه العبارات إثارة للجدل هي عبارة الضرر الموازي collateral damage التي واجهت نقداً حاداً من بعض الأقلام الشريفة في الغرب، وأصدر مؤخراً كتابًا بعنوان Language Collateral يتحدث عن هذه الظاهرة اللغوية ويلمح في العنوان إلى التدليس الذي تنطوي عليه هذه العبارة.

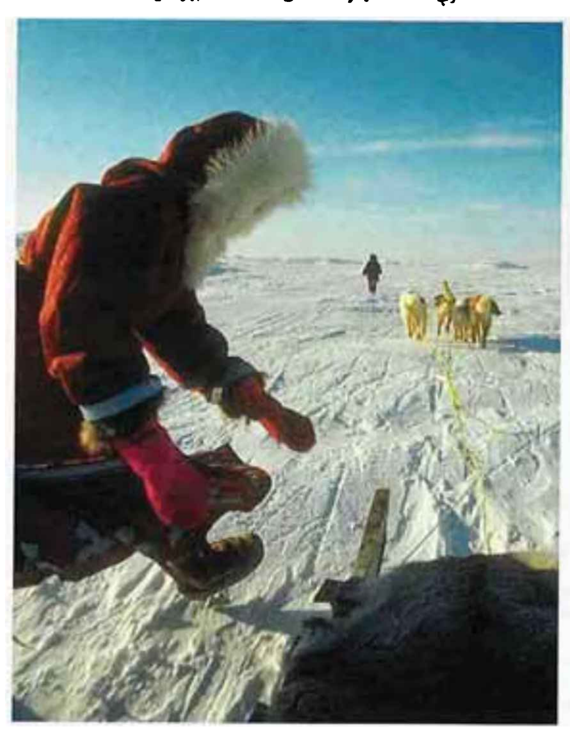
ومن مظاهر هذا المنحى اللغوي المتجدد الأكثر جلاء تسمية الشيء نفسه الموجود في الواقع بتسميتين إحداهما تلطيفية والأخرى تهويلية بحسب وجهة نظر المسمي ومصلحته. فهل هي طائرات استكشافية أم هي في حقيقتها طائرات تجسس. وهل الهجوم الأمريكي على العراق هجوم وقائي أم عدواني، تحرير أم استعمار.

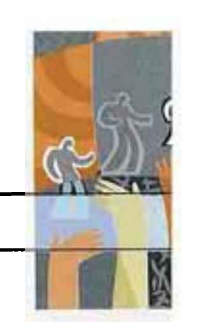
يذكر روبرت فسك الصحفي البريطاني المعروف بمواقفه المتعاطفة مع القضية الفلسطينية في مقال نشرته صحيفة الأندبندنت البريطانية (٢٠ أبريل ٢٠٠٢م) بعنوان «أمريكا من الداخل: كيف يتلاعب المحررون في الكلمات لتغطية جرائم إسرائيل» أمثلة على تحيز الصحافة الأمريكية في الشرق الأوسط،

ومنها: تسمية الأراضي المحتلة بـ«مناطق متنازع عليها»، والمستوطنات بـ «الأحياء»، ووصف عمليات إعدام المقاومين الفلسطينيين الناجين بـ «التطهير». وهذه اللغة من شأنها أن تضرب سياجاً على تفكير المتلقي خاصة وأنها تأتي من الإعلام الأمريكي «الموضوعي» الذي يثق به رجل الشارع الأمريكي.

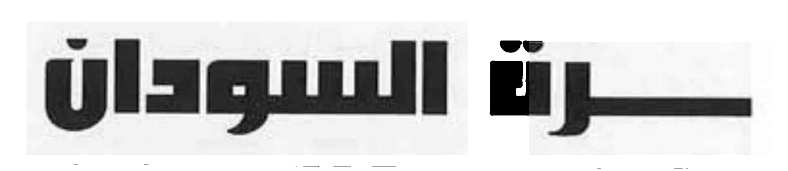
السؤال الذي يجب طرحه هنا هو ما هي علاقة التفكير باللغة، خاصة فيما يتعلق بتأثير اللغة في التفكير الذي يؤثر بدوره في الهوية؟ هذا سؤال جوهري في عالم تتطامن فيه الحواجز الجغرافية، وتنفتح فيه العقول والأبصار على شتى وسائل الإعلام بشتى مشاربها وإيدليوجياتها. أتمنى أن نعير هذا السؤال بعض وقتنا.

تحوي لغة الاسكيمو عدداً من الكلمات للتعبير عن الجليد





دار الوثائق القومية: ذاك



حوى النبي علي صالح

قسم التحرير

تعد دار الوثائق القومية السودانية بالخرطوم من أعرق المراكز المتخصصة في جمع التراث الإنساني وحفظه في العالمين العربي والإفريقي. إذ تدرجت في جمع الوثائق العلمية وتصنيفها وحفظها وعرضها خلال العقود السابقة حتى بلغ رصيدها منها نحو الثلاثين مليون وثيقة تشكل في جملتها كنزًا نفيسًا ليس للسودان فحسب بل لكثير من دول الجوار العربية والإفريقية.

وتقع هذه المقتنيات فيما يربو على المئتي مجموعة وثائقية تغطي جميع الحقب التاريخية باختلاف أنشطتها السياسية والاجتماعية والثقافية والإدارية والاقتصادية والقانونية والدستورية، مما جعل الدار رافدًا مهمًا للدولة وأداة تطوير لا غنى عنها للبحث العلمي والعلماء والباحثين من داخل السودان وخارجه، فقد كانت وراء المئات من البحوث العلمية والأطروحات الجامعية مما غيّر وجه الدراسات السودانية كمًا وكيفًا وثراءً وتنوعًا وعمقًا، كما ساهمت الدار عبر مقتنياتها في حسم الكثير من المشكلات والنزاعات الداخلية فضلاً عن الإقليمية والدولية.

النشأة والتطور

تعود فكرة إنشاء هذا المرفق إلى عام ١٩١٦م إبان الاستعمار البريطاني، حينما خطط السكرتير المالي لإنشاء جهاز مركزي لحفظ المكاتبات المالية التي كانت عرضة للضياع والتراكم، ولكن هذه الفكرة لم تر النور إلا في عام ١٩٢١م، عندما كُونت أول لجنة للمحفوظات برئاسة السكرتير القضائي، حددت مهامها في جمع الوثائق والمستندات المالية وتنظيمها.

وفي عام ١٩٤٨م، أصدر السكرتير الإداري قرارًا بإنشاء مكتب لجمع الوثائق التاريخية والحكومية وتنظيمها، وكونت بموجب هذا القرار لجنة محفوظات السودان، وعقدت اللجنة أول اجتماعاتها في ٢ فبراير/ شباط عام ١٩٤٩م، ووضعت الأسس والاجراءات التنظيمية الخاصة بالوثائق.

وقد تعاقب على إدارة هذا المكتب عدد من موظفي السكرتارية، ثم وُكِل الأمر إلى المستر ب.م. هولت الذي قام بوضع اللبنة الأولى لمسار الأرشيف السوداني، وكانت له مجهودات رائدة في فحص الوثائق التاريخية وترتيبها وفهرستها، ولاسيما وثائق المهدية والمخابرات الحربية التي عالجها أرشيفيًا. وقد دعا هولت في سبتمبر/أيلول عام ١٩٥٣م إلى فصل إدارة مكتب محفوظات السودان عن إدارة وزارة الداخلية «السكرتير الإداري سابقًا» والمطالبة بإنشاء وظيفة لأمين المحفوظات ليشغلها سوداني جامعي تمشيًا مع سياسة سودنة الوظائف الحكومية قبيل الاستقلال. وكان أن عُيِّن في عام ١٩٥٥م السيد محمد إبراهيم أبوسليم في وظيفة مساعد أمين المحفوظات والسيد مبارك سري في وظيفة المساعد الفني. وفي العام نفسه استقال المستر ب. م. هولت من وظيفته ليتولى أعباءها السيد أبوسليم بالإنابة، ثم رقي ليكون أول أمين سوداني لمكتب محفوظات السودان. وظل أبوسليم في خدمة التراث حفظًا وبحثًا وتنقيبًا

حتى بلغ سن التقاعد عام ١٩٩٥م، وخلفه الدكتور علي صالح كرار الأمين العام الحالي، تعاونه الأستاذة عواطف عمر عبدالله في منصب نائب الأمين العام.

القوانين واللوائح

بعد استقلال السودان عام ١٩٥٦م، تشعبت مهام مكتب محفوظات السودان ونمت إدارته لكي تواكب الطفرة السياسية والفكرية التي شهدتها البلاد بقيام المؤسسات السياسية التشريعية والتنفيذية، وتنامى الوعي بأهمية الوثائق في دراسة أصول المشكلات السياسية والاجتماعية؛ وفي إطار هذا التوجه برز دور مكتب محفوظات السودان. وتقديرًا لهذا الدور صدر القانون الذي سمي قانون دار الوثائق المركزية لعام١٩٦٥م، والذي حُوِّل بموجبه مكتب محفوظات السودان إلى دار الوثائق المركزية، وعُدل اسم وظيفة أمينه إلى مدير دار الوثائق، وحلت لجنة الوثائق المركزية محل لجنة المحفوظات، وحدد

قبة (ضريح) الأمام المهدي

القانون أيضًا مهام الدار واختصاصاتها، والضوابط التنظيمية التي تحكم حركة الوثائق وشروط الاطلاع، وكيفية اقتناء الوثائق الحكومية والوثائق الخاصة، واستنادًا إلى هذا القانون أصدر السيد وزير الداخلية الذي كان مشرفًا على الدار لائحة دار الوثائق لعام ١٩٦٦م، التي فصّلت ما أجمله القانون فيما يختص بشروط الاطلاع وضوابط الحفظ والإيداع وتحديد مهام مدير دار الوثائق وتنظيم أعمال لجنة الوثائق.

وصاحب هذه اللائحة الداخلية عدد من الأوامر المكتبية كقواعد تنظيم أعمال إدارة المحفوظات لعام ١٩٧٣م، التي اهتمت باحتياطات الأمان داخل المستودعات ونظمت حركة الوثائق وصيانتها، وقواعد تنظيم المكتبة لعام ١٩٧٣م، التي حددت بمقتصاها اختصاصات أمين المكتبة ونظمت وسائل التسجيل والتصنيف والاستعارة والجرد.

وفي عام ١٩٦٦م، صدر قانون إيداع المصنفات المعدل لعام ١٩٧١م، الذي ألزم المؤلفين والناشرين بإيداع نسخة من إصداراتهم ومنشوراتهم بدار الوثائق المركزية ومكتبة جامعة الخرطوم والمكتبة المركزية بأم درمان. ثم صدر توجيه إلى الوزارات والوحدات الحكومية المختلفة يلزمها إرسال ثلاث نسخ من تقاريرها الرسمية إلى الدار.

وفي عام ١٩٨٢م، صدر قانون دار الوثائق القومية الذي ألغي بموجبه قانون دار الوثائق المركزية لعام ١٩٦٥م، ومن ثم أصبحت دار الوثائق هيئة ذات شخصية اعتبارية تدار بواسطة مجلس قومي ذي صبغة تشريعية إشرافية يرأسه الوزير الذي يسميه رئيس الجمهورية بدلاً عن لجنة الوثائق المركزية ذات الصفة الاستشارية. وعُدل اسمها إلى دار الوثائق القومية، ووظيفة مديرها إلى أمين عام. واستنادًا إلى هذا القانون أصدر المجلس القومي اللائحة العامة لدار الوثائق لعام ١٩٨٤م، التي فصّلت ما أجمله القانون فيما يختص بشروط الاطلاع


جامعة الخرطوم عمرها تجاوز المئة عام

وسائل الحفظ والإيداع وتنظيم أعمال المجلس القومي وتحديد اختصاصات الأمين العام.

وقد أوردت اللائحة فيما يتعلق بالاطلاع على الوثائق ما يأتي:

- يجوز للأمين العام السماح لأي شخص بالاطلاع على الوثائق إذا اقتنع بأن له أهلية البحث مع مراعاة الآتي:

(أ) أن يكون ذلك الشخص حائزًا على درجة جامعية أو إجازة من معهد معترف به.

أو (ب) سبق أن نشر له بحث جاد أو يقوم بالإعداد لنشر بحث جاد.

أو (ج) موصى له بالاطلاع على الوثائق من:

أولاً: شخص متخصص في موضوع البحث.

أو ثانيًا: الجامعة أو المعهد الذي ينتمي إليه.

أو ثالثًا: شخص مشهود له بمكانته العلمية.

أو رابعًا: رئيس الوحدة الحكومية في حالة الموظفين لعمل رسمي.

- يجب أن تكون الوثيقة مفتوحة للباحثين والقراء بعد مضي ثلاثين عامًا على نشأتها، ويجوز للأمين العام أن يتجاوز عن هذا الحد بزيادة الفترة أو تخفيضها.

- يتقيد الأمين العام بشروط أصحاب الوثائق الخاصة للاطلاع عليها.

ورافق هذه القوانين واللوائح عدد من الأرانيك الخاصة بضبط حركة الوثائق ومسارها داخل الدار.

مقتنيات دار الوثائق القومية

تحوي دار الوثائق القومية نحو ثلاثين مليون وثيقة، تقع في نحو مئتي مجموعة وثائقية، وردت عبر مصدرين أحدهما عام يتمثل في مؤسسات الدولة المختلفة من وزارات ووحدات مصلحية، والآخر خاص يتمثل في الأسر والأفراد. وتغطي هذه المقتنيات جميع الحقب التاريخية باختلاف مناشطها السياسية والاجتماعية والثقافيه والاقتصادية والإدارية. ويمكننا أن نفصّلها كالآتي:

- مجموعة سلطنتي الفونج والفور (١٥٠٤- ١٩١٦م): وتحوي هذه المجموعة عددًا من الوثائق الإثباتية الصادرة من السلاطين وبعض المخطوطات الدينية.

- مجموعة المهدية (١٨٨١ - ١٨٩٩م): وتعد هذه المجموعة من أغنى مقتنيات الدار الوثائقية إذ يتجاوز كمها الثمانين ألف وثيقة، وقد قتلها المؤرخون بحثًا وتنقيبًا، فهي ملاذ لكل باحث في تاريخ السودان لتلك الفترة، وكان على رأس المؤرخين الذين بحثوا في هذه الفترة الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم الذي أصدر بعد إكمال الفهرسة والتحقيقات دليلاً خاصًا بوثائق المهدي تحت عنوان «المرشد إلى وثائق المهدي»، ويشتمل الدليل على رمز الوثيقة وموضوعها والمرسل إليه، وتاريخها وبداية نصها، ثم أصدر في وقت لاحق كتاب «الآثار

الكاملة للإمام المهدي»، وهو كتاب ضخم يقع في سبعة مجلدات ويضم كل وثائق الإمام المهدي: رسائله، ومنشوراته، ومجالسه، وأدعيته، وأذكاره، والأحكام والأوامر التي أصدرها، وهنالك أيضًا قسم آخر من وثائق المهدية يضم منشورات خليفة المهدي الخليفة عبدالله وأمرائه ورسائل كبار الأمراء وقادة المهدية.

وثائق المخابرات والأمن

وتحوي هذه المجموعة:

ـ مجموعة المخابرات المصرية: وهي أرشيف قلم مخابرات الجيش المصري وتحوي الوثائق التي حفظت في القاهرة في أثناء فترة المهدية والسنوات الأولى للحكم الثنائي، فهي تغطي الفترة من ١٨٨٠م إلى ١٩١٤م، وهي مكملة نسبيًا لوثائق المهدية من جهة، وصورًا لتحول الحكم من المهدية إلى الحكم الثنائي من جهة أخرى، والمجموعة بها تقارير قيمة كتبها بعض اللاجئين من المهدية مثل تلك التي تحوي معلومات عن سقوط نفوذ الخديوي في السودان وحامية بربر وسنار وكسلا، وبعضها يحكي الحوادث في مديريات كردفان ودارفور وبحر الغزال، وبعضها عن سقوط الخرطوم. ومن التقارير المهمة أيضًا تقرير أمين باشا عن الاستوائية في عام ١٨٨٦م، وآخر عام ١٩٨٩م، وآخر عن حاميات الخديوي في شرق السودان.

ـ مجموعة المخابرات السودانية: وهي وثائق إدارة المخابرات البريطانية التي كانت تابعة للحاكم العام وهي تهتم برصد التحركات السياسية في السودان في الفترة ما بين ١٨٩٨م و١٩٢٦م.

ـ مجموعة الرقابة: وتشمل ملفات جهاز الرقابة الذي أنشئ خلال الحرب العالمية الثانية لمراقبة المطبوعات والخطابات الصادرة والواردة.

ـ مجموعة الأمن: وتشمل هذه المجموعة أوراق المكتب الذي حل محل مكتب المخابرات وامتد بنشاطه حتى عام١٩٤٥م، وهي ملفات مكاتبات وتقارير تغطي أنشطة جهاز الأمن والقوانين واللوائح التي تسير العمل وفقها خاصة في أثناء الحروب، وتعالج المجموعة شتى الموضوعات المتعلقة بالإمدادات والمؤن والاحتياجات الطبية وإجراءاتها والمواصلات والتشريعات الطارئة في ظروف الحرب، وغير ذلك وأيضًا الإجراءات المتعلقة بمشكلات الحدود والتهريب والسلاح ومراقبة الأجانب، ومسائل الجنسية والجوازات وكل ما يتعلق بالنواحي الأمنية.

ـ مجموعة السكرتير الإداري: وهي أرشيف مكتب السكرتير الإداري والوحدات التابعة له في رئاسة الحكومة والأقاليم، وتحوي هذه المجموعة معلومات تغطي الفترة من ١٨٩٩م إلى ١٩٣٣م، وهي معلومات سياسية وإدارية وتاريخية، ومن الملاحظ أن نظام ترقيم الملفات الذي جرى به العمل في بداية الحكم الثنائي كان هو النظام المتبع في نظام السكرتير الإداري، وقد صُنفت فيه الوثائق وفهرست على أساس الموضوع، وقسمت المجموعة إلى أقسام تراوح بين (١و١٢٢) وقد صار نظام حفظ الملفات هذا هو النظام المتبع في إدارة مكاتبات حكومة السودان فيما بعد.

ـ مجموعة الداخلية: وهي أرشيف وزارة الداخلية للفترة الأولى من الاستقلال.

ـ مجموعة المؤسسات التشريعية: وتضم وثائق المجلس الاستشاري لشمال السودان، ووثائق الجمعية التشريعية، ووثائق المجلس التنفيذي، ووثائق البرلمانات التي أعقبت الاستقلال (١٩٥٤ـ ١٩٥٨م)، ووثائق المجلس المركزي (١٩٦٢ـ ١٩٦٤م) ووثائق الجمعية التأسيسية الأولى والثانية، والثالثة، ووثائق مجالس الشعب القومية، ووثائق الاتحاد الاشتراكي، ووثائق مجالس الشعب الإقليمية.

ـ مجموعة التقارير: وتضم المجموعة تقارير البنوك، والتقارير المصلحية، وتقارير مجالس المديريات، وتقارير السودان الشهرية.



حضارة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ

. مجموعة اللجان: وتضم المجموعة وثائق لجنة السودنة (١٩٥٣ .١٩٥٥م)، ووثائق اللجنة القومية للدستور، ووثائق لجنة الإدارة الأهلية (١٩٦٦. ١٩٦٧م)، ووثائق لجنة الانتخابات المركزية، ووثائق اللجنة الشعبية للميثاق الوطني، ووثائق لجنة إعادة تقسيم المديريات، ووثائق لجنة الخدمة العامة، ووثائق لجنة القاش.

. مجموعة وثائق مؤتمر المائدة المستديرة ١٩٦٥م.

. مجموعة الأحزاب السودانية.

. مجموعة المديريات: وتتكون هذه المجموعة من أرشيفات المديريات والمراكز، وتشمل مديريات: الخرطوم، والإستوائية، والنيل الأزرق، ودارفور، وبحر الغزال، وأعالي النيل، وكردفان، والشمالية، وكسلا، والبحر الأحمر، وهي مديريات السودان قبل إعادة تشكيل المديريات.

. مجموعة الوزارات والمصالح الحكومية: وتشمل هذه المجموعة ملفات مجلس الوزراء ووزارات: الداخلية، والزراعة، والمالية، والتجارة، والتربية والتعليم، والخدمة العامة والإصلاح الإداري، والري، وديوان شؤون الخدمة، ومصلحة الأراضي، ومصلحة البساتين، ولجنة الخدمة العامة، والأشغال، وبعض المؤسسات والشركات.

. مجموعة المؤتمرات: وتشمل هذه المجموعة وثائق مؤتمرات الوحدات الحكومية والجمعيات والنقابات والاتحادات المختلفة.

. مجموعة الرسائل الجامعية: وتحوي هذه المجموعة مجموعة ضخمة من الرسائل الجامعية بلغات مختلفة كالعربية والإنجليزية والروسية والفرنسية واليابانية، وموضوعات شتى في جميع العلوم الإنسانية والتطبيقية



النضال ضد الاستعمار

والطبيعية في الجامعات السودانية أو إعداد طلبة سودانيين في الجامعات الأجنبية.

. مجموعة القضائية والقانونيات: وهي مجموعة أرشيفية من المكاتبات والأحكام القضائية ووقائع المؤتمرات وأعمال اللجان المتخصصة.

. مجموعة الوثائق السودانية بالخارج: وتضم هذه المجموعة وثائق وكالة السودان بلندن، ووثائق وكالة السودان بالقاهرة، ووثائق سفارات السودان في كل من روما وأثينا وقبرص.

. مجموعة دار الوثائق البريطانية: توجد أصول هذه الوثائق بدار الوثائق البريطانية بلندن وتشمل: صور وثائق من أرشيف مجلس الوزراء البريطاني خاصة بشؤون السودان، وصور وثائق من أرشيف وزارة الخارجية البريطانية خاصة بشؤون السودان.

. مجموعة الغازيتة: وتشمل هذه المجموعة جميع إصدارات الجريدة الرسمية.

. الأرشيف الصحفي: وقد وصلت هذه المجموعة إلى أكثر من ستمئة مجلد لكل أنواع الصحف التي صدرت في السودان سواء أكانت يومية أم أسبوعية بكل توجهاتها السياسية ومدارسها الفكرية بدءًا من عام ١٩٠٣م، حتى الآن، وتضم هذه المجموعة مجموعات قيمة مثل صحيفة السودان، والحضارة، والسودان الجديد، والأمة، والنيل، والعلم، والثورة، والصحافة، والأيام، والرأي العام، وبعض الصحف الإنجليزية، وهي أيضًا تشكل مجموعة قيمة لا غنى عنها لإمداد الباحثين



غردون باشا احد الحكام ايام الاستعمار البريطاني

والقراء بالمعلومات والأحداث المهمة في تاريخ البلاد، وهي الآن مرجع لكثير من الصحفيين والكُتّاب في شتى ضروب المعرفة الأدبية والسياسية والاجتماعية.

. مجموعة المتنوعات: وهي وثائق متنوعة من المخطوطات والمطبوعات والوثائق الخاصة.

. مجموعة القصر: وتضم هذه المجموعة أوراق مكتب الحاكم العام وشؤون القصر وسكرتاريته والمكاتبات المتبادلة بين القصر والوحدات المركزية والإقليمية.

. المجموعة الدينية: وهي مجموعة من المصاحف والمخطوطات الدينية وبعض المطبوعات الخاصة بالتراث الإسلامي.

الوثائق الخاصة

بجانب الوثائق الحكومية والمجموعات التي أشرنا إليها أفردت الدار حيزًا لوثائق الأهالي والأسر، وحفظتها بطريقة علمية تضمن سلامتها وتيسر سبل الاطلاع عليها والاستفادة منها في البحث العلمي، ونشرها كجزء من التراث الإسلامي.

وبهذا التوجه اكتسبت الدار صداقة عدد من المهتمين بأمر التراث وحفزتهم إلى إيداع وثائقهم الخاصة أو صور منها بدار الوثائق كمجموعة خاصة تحمل أسماءهم، ونذكر منهم: المؤرخ محمد عبدالرحيم، والشيخ عطية محمد سعيد، والأستاذ عثمان حسن أحمد الكد، وحسن سالة، ومكي شبيكة، واللواء عبدالرحمن الفكي، وعبدالله الحسن، والأستاذة حاجة كاشف، والدكتور عبدالله علي إبراهيم، والأستاذ معاوية محمد نور، والدكتور محمد عبدالحي. كما اقتنت الدار مكتبات عدد من العلماء والشخصيات منهم على سبيل المثال الصاوي، والريح العيدروس، وحسن أحمد الكد، والصادق محمد الطيب.

المخطوطات

تبنت دار الوثائق القومية منذ مطلع ستينيات القرن الماضي مشروعًا لجمع المخطوطات العربية الإسلامية من شتى أنحاء السودان من المكتبات الخاصة بالأفراد والأسر والبيوتات عن طريق التصوير أو الإهداء أو الشراء، وقد أثمرت هذه الجهود كنزًا نفيسًا من آلاف المخطوطات في الفلسفة والدين الإسلامي، واللغة العربية، والتاريخ، والوقف، والحجج السلطانية، والطب، والفلك، معظمها ألفت أو نسخت في فترة الفونج في القرن الخامس عشر، وهي فترة كان الاهتمام فيها بالعلوم النقلية أكثر من التأليف، ونشطت فيها حركة

التدوين، فظهرت الشروحات والحواشي والمختصرات.

ومن أبرز المخطوطات التي تزخر بها دار الوثائق «الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان» لمؤلفه محمد النور بن ضيف الله، وحققه الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن. وصدرت منه عدة طبعات، ومع ذلك ظهرت منه نسخة مخطوطة أخرى لم يشملها التحقيق، وهناك مخطوط «كاتب الشونة» أو «تاريخ ملوك سنار» لمؤلفه أحمد بن الحاج أبو علي، وهو يؤرخ لأول مملكة إسلامية في السودان. كذلك من المخطوطات البارزة مخطوط «بدء الأمالي» أو «القصيدة اللامية» أو قصيدة «يقول العبد»، وهي في التوحيد، وتوجد منها نسختان بهما بعض الاختلافات، وقد كانت هذه القصيدة متداولة في السودان في فترة الفونج، وقد شرحها العالم السوداني المضوي محمد أكداوي وله فيها شرحان. ومخطوطة «شباك ابن الهايم» وهي في علم المناسخات، وقد كان هذا المخطوط وقفًا على طلبة العلم بالأزهر الشريف بخزانة الشيخ الخرشي، ومخطوطة «مختصر أصول الفقه المالكي» ويرجع تاريخه إلى سنة ٩٧٥هـ، وكذلك مخطوط في الفقه مجهول المؤلف، ونسخ سنة ٦٢٥هـ، كتبه عبدالجليل محمد تكرور.

المبنى المؤقت للدار

إسهامات الدار وعلاقاتها

لا تنحصر رسالة دار الوثائق في اقتناء التراث فحسب وإنما تسعى إلى الإعلام به عبر عدد من المراشد والفهارس فضلاً عن توفير خدماتها للباحثين في داخل البلاد وخارجها وفق شروط أهلية معينة لا اعتبار فيها للون أو العرق أو المعتقد أو الوطن. وقد أثمر هذا الجهد كتبًا ومقالات وأطروحات أكاديمية بدلت وجه الدراسات السودانية وجعلتها تتسم بالموضوعية والمنهجية العلمية بعيدًا عن الانطباعات الخاصة.

وللدار اسهام رائد في حل القضايا القومية من واقع السوابق التشريعية والإدارية أو برفد اللجان والمؤتمرات بممثلين من ذوي الخبرة والكفاءة، وأصدق شاهد على ذلك الدور الذي أدته في مؤتمر المائدة المستديرة ولجان إعادة تقسيم المديريات ولجان الحدود الدولية والإدارة الأهلية والصراعات القبلية ومجالس المؤسسات الأكاديمية والثقافية ومؤتمرات الحوار الوطني والمعارض القومية، وعلى المستوى الإقليمي اضطلعت الدار بدور بارز في حل بعض المشكلات، ومن أمثلة ذلك حسمها مشكلة طابا بين مصر وإسرائيل بتقديم المعلومة الصحيحة الموثقة التي أعادت طابا إلى جمهورية مصر العربية كاملة غير منقوصة.

وفي مجال التعليم العالي لها القدم الراسخ والباع الطويل في تأسيس عدد من أقسام الوثائق والمكتبات بجامعة أمدرمان الإسلامية وكلية الأحفاد الجامعية

والجامعة الأهلية وجامعة النيلين، وذلك بفضل تعاون كوادرها المؤهلة كأساتذة في قاعات التحصيل سدًا للنقص الذي تعانيه مؤسسات التعليم العالي.

ولا ينحصر نشاط دار الوثائق في النطاق المحلي بل يتجاوزه إلى المستويين الإقليمي والدولي، ويكفي أنها عضو دائم في المجلس الدولي للأرشيف (I.C.A) منذ عام ١٩٦٦م، وعضو مؤسس للفرع الإقليمي العربي(ARAB I.C.A) وعضو في الفرع الإقليمي لدول شرق ووسط وجنوب إفريقية (E.SARB I.C.A). وقد تولى فريقها الإداري عددًا من الوظائف القيادية في هذه المنظمات الثقافية: إذ انتخب أمينها العام السابق رئيسًا وأمينًا للفرع الإقليمي العربي لعدة دورات متصلة كما سبق أن انتخب نائبًا لرئيس المجلس الدولي للوثائق في إحدى دوراته، وشغل نائب الأمين العام السابق لدار الوثائق منصب رئيس الفرع الإقليمي لدول شرق ووسط إفريقية التابع للمجلس الدولي للأرشيف، والأمين العام السابق عضو فخري في المجلس الدولي بصفته الشخصية. أما الأمين العام الحالي فعضو في لجنة النشر التابعة للفرع الإقليمي العربي للأرشيف.

ويضطلع هذا المجلس بفروعه الإقليمية ولجانه المتخصصة بدور متعاظم في ترقية العمل الوثائقي وتنمية العلاقة وترسيخها بين الوثائقيين في شتى أنحاء العالم. ونتيجة للسمعة الطيبة التي اكتسبتها دار الوثائق القومية في أوساط العاملين في هذه المؤسسة الدولية تشرف السودان باستضافة المؤتمر الإقليمي لدول شرق ووسط إفريقية عام ١٩٧٨م.

وعلى المستوى الثقافي والأكاديمي فإن للدار علاقات تعاون مع معهد هوفر ومكتبة الكونغرس الأمريكي ومكتبة جامعة درم البريطانية وجامعة بيرجن النرويجية. وهذه العلاقات تبلورت في شكل منح للدراسات العليا قدمت للعاملين بدار الوثائق، وأجهزة تقنية وتعاون مشترك في مجال البحث العلمي فضلاً عن الزيارات المتبادلة في سبيل ترقية الأداء ورفع الكفاءة في مجال البحث العلمي.

الهيكل الإداري لدار الوثائق

يتكون الهيكل الإداري لدار الوثائق القومية من المجلس القومي برئاسة السيد الوزير والأمين العام على قمة الجهاز التنفيذي ويساعده في تصريف شؤونه نائب الأمين العام ومديرو الإدارات الآتية:

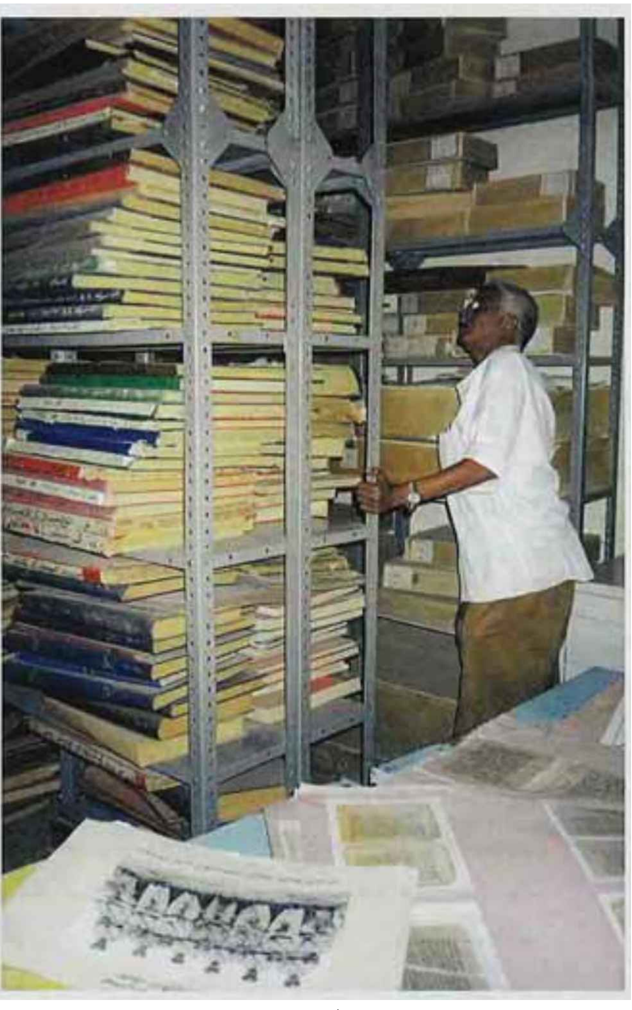
- إدارة الوثائق الحكومية:

تقوم هذه الإدارة بتفتيش الوثائق الحكومية المهمة والإثباتية وفرزها وتقييمها وتحويلها إلى مستودعات الدار وفق ثوابت علمية محددة بالإضافة إلى أنها تقوم بتقديم المشورة الفنية بشأن تنظيم أرشيفاتها وترتيبها، ومن اختصاصات هذه الإدارة أيضًا الإشراف العام على أرشيفات الوحدات الحكومية وتقدم المشورة والنصح في مجال فرز الوثائق الحكومية وتقييمها وتصنيفها وترتيبها، وتقييم الملفات الحكومية العلمية والبحثية والإثباتية وتحويلها إلى مستودعات الدار، وتصنيف وترتيب ووضع القوائم وعمل الفهارس الأولية للمجموعة المقرر حفظها، وهناك أقسام لتنفيذ هذه المهمات، منها قسم التفتيش وقسم الفرز والتقييم، وقسم التصنيف والترتيب والفهرسة، وقسم التسجيل والتسليم.

- إدارة المحفوظات:

تختص هذه الإدارة بحفظ الوثائق المودعة بالدار وفق مواصفات علمية يراعي فيها التصنيف والفهرسة لضبط حركة الوثائق وتيسير الاستفادة منها، وأهم اختصاصاتها وفقًا للمعايير الفنية والعلمية المتفق عليها عالميًا، ووضع الفهارس والكشافات والمراشد التي تعين الباحثين على الوصول إلى المعلومة المطلوبة، وجمع وثائق المؤتمرات والمطبوعات الحكومية. ومن أقسامها: قسم المستودعات، وقسم الإيداع القانوني، وقسم الفهرسة، وقاعة الباحثين، وقسم الحاسوب.





نظرة رثاء لما آل إليه حال هذه الكنوز النفيسة

ـ إدارة البحوث والمخطوطات:

تختص هذه الإدارة بالإشراف على المكتبة والتبادل الثقافي وجمع المخطوطات وفهرستها، وإعداد الدراسات المصدرية التي تسهم في إرساء دعائم البحث العلمي، ومن مهمات هذه الإدارة أنها تقدم المساعدة للباحثين، وتلبية طلبات الدولة من المعلومات والبيانات، وجمع الوثائق الخاصة، وأيضًا تحقيق المقتنيات الوثائقية ذات القيمة المصدرية ونشرها، ومن أقسامها: قسم المكتبة والتبادل، وقسم المخطوطات وقسم الدراسات والنشر.

ـ الإدارة الفنية:

وتعنى هذه الإدارة بصيانة الوثائق وترميمها وتجليدها وتصويرها وتصميم أوعية حفظ المستندات، وتشمل مهامها: صيانة الوثائق وترميمها، والتصوير الفوتوغرافي والمايكروفيلمي للوثائق، وتجليد المطبوعات والوثائق، وصناعة أوعية حفظ الوثائق. ومن أقسامها: قسم الصيانة والترميم، وقسم التصوير، وقسم المواد المسموعة والمرئية، وقسم التجليد وصناعة صناديق حفظ المستندات.

ـ إدارة العلاقات العامة والتدريب:

وتعني هذه الإدارة بالجانب الإعلامي، وتدريب العاملين بالدار والدولة، وتوثيق علاقات الدار الثقافية مع المؤسسات الشبيهة وذات الصلة على المستويين المحلي والخارجي. ومن مهامها: الإشراف على برامج التدريب والتأهيل الداخلي، وإعداد برامج تدريب الأرشيفيين بالمرافق الحكومية والأخرى، وعكس أنشطة الدار المختلفة عبر وسائل الإعلام الداخلية والخارجية، وتوثيق علاقات دار الوثائق بالمجلس الدولي للأرشيف وفروعه الإقليمية ولجانه المتخصصة وبعض الجامعات ودور الوثائق وغيرها. ومن أقسامها: قسم التدريب، وقسم الإعلام، وقسم المنظمات الدولية والإقليمية.

ـ إدارة الشؤون المالية والإدارية:

وتقوم هذه الإدارة بتصريف الشؤون الإدارية والمالية وإدارة شؤون العاملين في الهيئة. ومن أقسامها: قسم الإدارة العمومية، وقسم شؤون العاملين، وقسم الحسابات، ومعظم العاملين في هذه الإدارة منتدبون من ديوان شؤون الخدمة وديوان الحسابات.

المباني الجديدة

ومن المفارقات التي ظلت تقلق المهتمين بالتراث القومي والإنساني أن كل هذه الكنوز ظلت طوال الحقب



الماضية تعيش أوضاعًا مأساوية، إذ إنها توجد في مكان غير لائق، بل ويفتقر إلى الحد الأدنى من مواصفات مباني دور الوثائق، مما حدا بالمسؤولين ان يسعوا جاهدين إلى إقامة مبنى يليق وعظمة هذا التراث، فقد بادرت الدولة بتخصيص قطعة أرض مساحتها عشرة آلاف متر مربع في موقع إستراتيجي بالخرطوم، وتم فحص التربة وإعداد الخرط والرسومات والتصاميم الهندسية، وتم وضع حجر الأساس لانطلاق هذا المشروع الذي تبلغ تكلفته نحو أربعة ملايين ونصف المليون دولار في التاسع عشر من ديسمبر/كانون الأول الماضي ليجيء متزامنًا مع إعلان استقلال السودان من داخل البرلمان في احتفال شرفه رئيس الجمهورية.

أهداف المشروع وأقسامه

يهدف المشروع إلى تشييد مبان تراعي خصوصية الوثائق وحفظها بجميع أشكالها وكياناتها المادية والورقية وغيرها، ويتكون المبنى المقترح من أربع وحدات ترتبط أفقيًا في طوابقها المختلفة وتتصل أخيرًا لتكون وحدة بناية واحدة.

والوحدات هي:

-الوحدة (أ): مبنى الإدارة ويتألف من أربعة طوابق تشمل الإدارة وقاعة للاطلاع على الوثائق وأخرى للمحاضرات ومكتبة وقاعة للاجتماعات.

-الوحدة (ب): مبنى مستودعات حفظ الوثائق ويتألف من أربعة طوابق.

-الوحدة(ج): مبنى إدارة الوثائق الحكومية ويتألف من أربعة طوابق.

-الوحدة (د): وهي مبنى الإدارة الفنية والمختبر ويتألف من أربعة طوابق.

هذه نبذة مختصرة من تاريخ دارالوثائق السودانية وزخائرها القيمة التي لم تكتشف حتى الآن، ونرجو ان تجد الاهتمام الذي يليق بها من كل السودانيين على جميع الأصعدة، فقديمًا قيل: إن البلاد التي ليس بها دور وثائق أشبه بالمريض الذي أصيب بفقدان الذاكرة.

المراجع والهوامش

. الكتيب التعريفي لدارالوثائق القومية السودانية.
. الصحف والمجلات.
. الفهرس المنتقى للمخطوطات العربية في دار الوثائق القومية السودانية.





الفاتيكان: دولة في م



خـــالد خلف زيدان
المنيا – مصر

الفاتيكان ليس ثمة دولة على وجه الأرض مثلها، فهي الأصغر مساحة، والأقل سكانًا وهي الأغرب في انتخاب رئيسها، وانتقاء حرسها وهي الأقوى بنفوذها الروحي والمعنوي، وهي صاحبة النصيب الأوفر من الميراث الفني لمشاهير عصر النهضة الإيطالية. فمتى ظهرت ككيان سياسي؟ وماذا تملك من مقومات الدولة؟ وكيف ينتخب رئيسها؟ وعلى أي أساس يتم اختيار حرسها؟ وإلى أين يمتد تأثيرها العقائدي؟وما ميراثها من تاريخ العمارة والفن؟

حي صغير يرث مجد الماضي

قبل أكثر من الف سنة وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان البابوات يسيطرون سياسيًا على رقعة واسعة من أراضي القارة الأوربية حيث كانت ولايتهم تمتد لأكثر من ستة عشر ألف ميل مربع من مدينة روما غربًا إلى أثينا شرقًا، ولكن عندما اتحدت إيطاليا تحت زعامة عائلة سافوي الملكية عام ١٨٧٠م، غزا ملكها الأول فكتور عمانوئيل الثاني أراضي الكنيسة البابوية، وقرر دمج الولايات البابوية في مملكة إيطاليا الموحدة، فانسحب البابا بيوس التاسع حيث سجن نفسه بين جدران مدينة الفاتيكان، ونهج خلفاؤه هذا السبيل، حتى وقع موسوليني في عام ١٩٢٩م مع البابا بيوس الحادي عشر معاهدة اللاتيران الشهيرة التي قضت بإسقاط المطالبة بالأراضي البابوية السابقة مقابل تعويض مالي يبلغ تسعين مليون دولار، بالإضافة إلى اعتراف الحكومة الإيطالية باستقلال الفاتيكان كدولة ذات سيادة داخل حدود العاصمة روما، وحددت الممتلكات البابوية بالمساحة الحالية التي تشغلها الفاتيكان، والتي تقدر بأربعة وأربعين هكتارًا أي أقل من نصف كيلو متر مربع، هذا بخلاف بعض المباني في روما وسكن البابا الصيفي في قلعة جاندولفو.

والفاتيكان بموقعها الحالي لا تشغل سوى أحد الأحياء الصغيرة في شمال غرب روما، حيث تجثم فوق تل مسمى باسمها يطل من بعيد على نهر التيبر وعلى الرغم من مساحتها المتناهية الصغر، فإنها تتمتع بكل مميزات الدولة الحقيقية، فمنذ استقلالها صار علمها المكون من اللونين الأصفر والأبيض والمفتاحين المتقاطعين مع التاج البابوي - أحد الأعلام الوطنية المعترف بها في العالم، كما أنها ترسل وتستقبل الممثلين الدبلوماسيين، إذ إن كثيرًا من الدول لها ممثل دائم في أراضيها فضلاً عن أن سفاراتها الخارجية تنتشر في أكثر من ثلثي دول العالم، ويسمى السفير البابوي بالقاصد الرسولي، والحقيقة التي لا يجب إغفالها أن الفاتيكان تعدّ أكثر دولة لها تمثيل دبلوماسي في العالم، فهذه الدويلة لا يقتصر وجودها على عواصم العالم فقط، وإنما يمتد إلى أصغر قرى العالم أيضًا ! لذلك فإن الكتّاب والمفكرين يصفونها بأنها أصغر وأقوى دولة في العالم بتأثيرها الروحي والمعنوي الذي يمتد إلى أبناء الطائفة الكاثوليكية كافة في العالم، الذين يصل تعدادهم إلى نحو مليار نسمة كما لا يجب إنكار أن



بابا الفاتيكان في إحدى جولاته

الفاتيكان تملك اقوى جهاز مخابرات في العالم ! لأن لها في أصغر قرى العالم كنيسة وقسيسًا لديه معلومات كاملة عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية، وليست الدينية فحسب.

مقومات الدولة

طبقًا لآخر الإحصاءات، فإنه لا يعيش في الفاتيكان سوى ٨٩٠ شخصًا، يمثلون في مجموعهم الكرادلة والأفراد الذين يعملون في جهازها الإداري بشكل دائم. وهؤلاء فقط هم المسموح لهم بحمل جوازات السفر وبطاقات الهوية البابوية، ذلك أنه لا يوجد شخص يتمتع بالجنسية البابوية طوال حياته، إذ إن الشباب يفقدون هذه الجنسية إذا بلغ كل منهم سن الخامسة والعشرين دون أن يلتحق بخدمة الفاتيكان، كما أن البنات يفقدن جنسيتهن إذا تزوجن من أجانب عن الدولة، حتى وإن كن متزوجات من إيطاليين وعلى الرغم من ذلك، فإن هناك ١٥٠٠ موظف يعبرون بوابة «سانتا آنا» قادمين من روما كل صباح للعمل داخل جدران الفاتيكان، وهؤلاء ليسوا جميعًا موظفين بالمعنى المتعارف عليه، بل إن عددًا لا بأس به منهم يعملون في الفاتيكان رغبة منهم في خدمة البابا، لأسباب إيمانية، وهؤلاء يطلق عليهم اسم «الأيدي الصغيرة».

وحتى منتصف القرن التاسع عشر، لم يكن العمال والموظفون في الفاتيكان يتقاضون أي رواتب منتظمة، بل كانوا يتقاضون هبات وعلاوات تأتيهم في مناسبات معروفة، مثل انتخاب البابا الجديد أو في ذكرى ميلاده أو وفاته وفي الأعياد الرسمية. أما الكرادلة فكانوا يتلقون مبالغ شهرية، كان يقوم خدمهم وأتباعهم بجمعها لهم، وكان يطلق عليها اسم «الطبق». أما الآن فقد تغيرت الأمور وأصبح الموظفون يتقاضون رواتب شهرية معروفة، ويستفيدون من بعض الميزات، مثل الإعفاء الضريبي والعلاج المجاني.

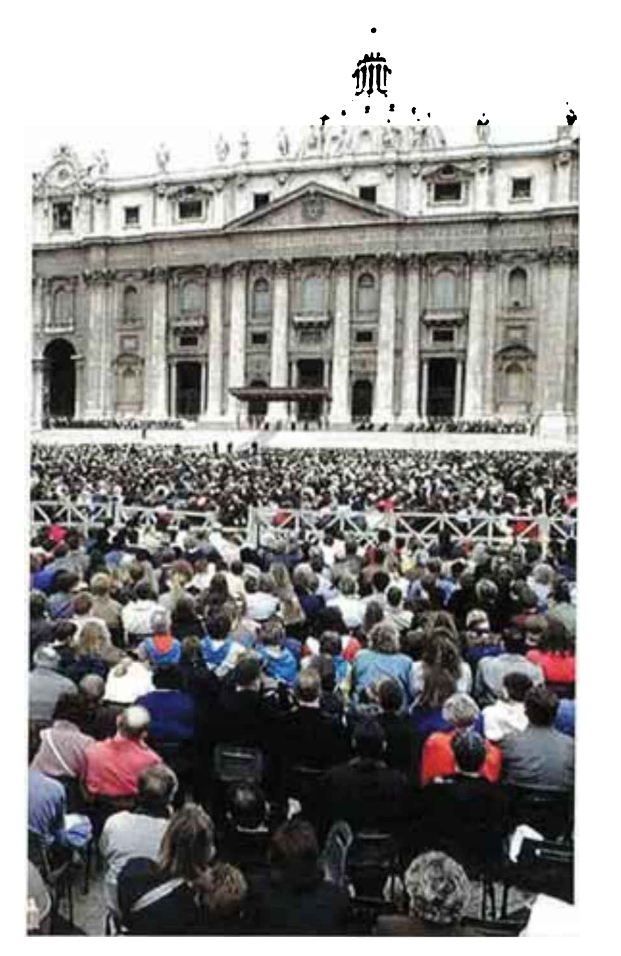
وباستثناء اتخاذ اللغة الإيطالية لغة رسمية، وقيام القوات المسلحة الإيطالية بمسؤولية الدفاع الخارجي، فإن الفاتيكان تسن قوانينها الخاصة، فهي تمنح جوازات الإقامة والمرور الخاصة بها، كما أنها تعد بمنزلة أمن واستقرار لسكانها؛ لأن ارتكاب الجرائم بكل أنواعها نادر الحدوث بين جدرانها، وتنص القوانين البابوية على أن أي جريمة ترتكب في حدودها يترك أمر تحديد عقوبتها للبابوية، حتى إذا كان مرتكب الجريمة يقيم في إيطاليا، تسري عليه العقوبة التي تقررها هيئة المحكمة في الفاتيكان.

وتسير الحياة اليومية في الفاتيكان من خلال مجموعة وزارات، لكن أيا منها لا يحمل اسم وزارة، فرئيس الوزراء يحمل اسم سكرتير عام الدولة، ووزير الخارجية يحمل اسم سكرتير الدولة لشؤون العلاقات مع الدولة الأجنبية، وهكذا.

وللفاتيكان مثل غيره من الدول الحديثة، صحيفته التي يهتم بقراءتها كل مراسل صحفي في إيطاليا، والمعروفة باسم «الأوبزر فاتور رومانو»، وهي الصحيفة الوحيدة التي تطبع في مطابع الفاتيكان، حيث يتم طبع خمسين ألف نسخة يوميًا منها وتصدر الصحيفة - التي تكتب مادتها باللغة الإيطالية - ملاحق أسبوعية باللغات الفرنسية والألمانية والإسبانية والبرتغالية، إضافة إلى ملحق شهري باللغة البولندية. وتغطي موضوعاتها حياة الكنيسة والقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية العالمية الرئيسة.

وتملك الفاتيكان محطة إذاعية وقناة تلفازية، ومنظومة متكاملة من شبكات الهاتف، كذلك توجد بها إدارة لإطفاء الحريق، وعدد كبير من وسائل المواصلات كلها تحمل لوحات باسم الفاتيكان، كما يوجد بها مصرف يطلق عليه اسم «مؤسسة الأعمال الدينية»، ومحطة لتموين السيارات بالوقود، وصيدلية، ومحل أدوات كهربائية ومحل أزياء وسوبر ماركت، وكلها مقصورة على خدمة سكان الفاتيكان. لأن البضائع المتجهة إليها تعفى من الجمارك والضرائب خلال

ميدان القديس بطرس خلال أحد الاحتفالات





ميدان القديس بطرس

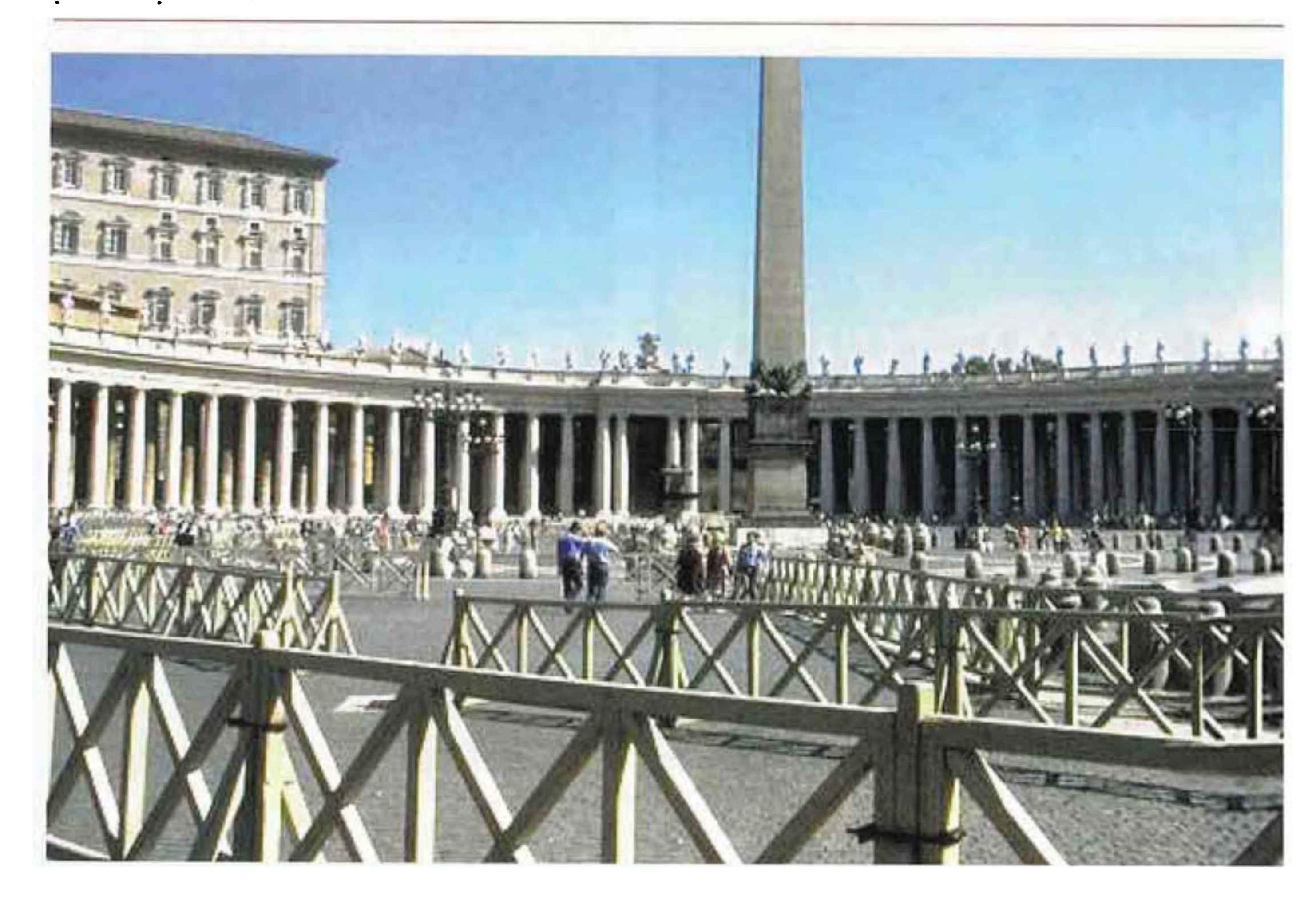
عبورها حدود إيطاليا.

تضم الفاتيكان كذلك بين جدرانها بعض المباني العتيقة والقصور الشامخة التي تحيط بها مساحات كبيرة من الحدائق الغناء، حيث تتجاوز أشجار السنديان والأرز والزيتون عاليًا، وتتجمل الأرض بأنواع جذابة ونادرة من الورد والأزهار.

ولعل أول ما يستوقفنا من تلك الأبنية قصران يكادان يتوسطان هذه الحدائق، أولهما هو مقر الحكومة، أما الثاني فهو محطة القطارات، وهذا الأخير هو مبنى جميل من الرخام الأبيض بُني عام ١٩٢٩م، والمهمة الأساسية لهذه المحطة هي استقبال قطارات الشحن التي تتوقف لتفريغ أو شحن حمولتها الآيبة والذاهبة من وإلى إيطاليا.

وتعد خطوط السكة الحديدية في الفاتيكان أصغر مصلحة من نوعها في العالم، فقضبانها التي لا تزيد على ٨٦٢ مترًا تتصل بأشرطة السكك الحديدية في إيطاليا، ومنها بمختلف الدول والموانيء الأوربية.

وهناك مبنى آخر يلوح في الأفق حيث مكتبة الفاتيكان التي تعد من أهم المكتبات في العالم، إذ تحتوي على أكثر من مليون مجلد، وسبعة وستين الف مخطوط نادر، ويرجع بعض هذه المخطوطات إلى العصور الوسطى، ومنها عدد من المخطوطات العربية



التي تبرز شطرًا زاهيًا من نضج حضارة العرب العلمية. ويجاور المكتبة مبنى الأكاديمية البابوية المنشأة في عام ١٩٣٦م، والواقع أن هذه الأكاديمية ما هي إلا معهد الأبحاث الذي يرجع تاريخ إنشائه إلى عام١٦٠٣م، وتدور الدراسة الأساسية فيه حول العلوم الطبية والرياضية، ويحدد عدد أعضائه بثمانية وسبعين، وكثير منهم غير كاثوليكيين.

وثمة مبنى آخر عريق ليس ببعيد وهو مصلحة البريد. وتعد هيئة البريد بالفاتيكان من أقدم هيئات البريد العالمية، فقد بدأت الحكومة البابوية في إصدار طوابعها البريدية الخاصة منذ عام ١٨٥٢م، أي بعد اثني عشر عامًا فقط، من أول دولة استعملت الطوابع في مراسلاتها، البريدية ونعني بها إنجلترا، وطوابع البريد التي تصدرها الفاتيكان هي دائمًا جميلة الشكل وروحية التصميم، وهي كنز ثمين لهوة جمع الطوابع ومصدر دخل كبير لميزانية الدولة.

وليست طوابع البريد هي مصدر الدخل الوحيد، بل إن الفاتيكان تملك مشروعات كثيرة وأموالاً طائلة في انحاء متفرقة من العالم، تجعلها من أغنى الدول، وتأتي مالية الفاتيكان على وجه العموم من تبرعات الكاثوليك في أرجاء المعمورة، بالإضافة إلى ما تدره رسوم دخول متاحفها، وبيع المؤلفات الموقوفة لها.





تضم الفاتيكان كذلك بين جدرانها بعض المباني العتيقة والقصور الشامخة

الدخان يبوح بالسر

تعدّ الكنيسة الكاثوليكية البابا هو الرئيس المرئي لها، كما تعدّ المسيح عليه السلام هو الرئيس الخفي الأعلى، ويؤمن الكاثوليك بأن المسيح هو الذي أسس منصب البابوية، وأعطاه حوارية القديس بطرس. وفيما عدا فترات قصيرة، لم ينقطع النظام البابوي الذي بدأ في عهد القديس بطرس، وقد تعاقب على هذا المنصب حتى الآن مئتان وثلاثة وستون من البابوات.

وينتخب البابا لمدى الحياة ويجوز له أن يستقيل، ولكن لا يمكن إبعاده عن منصبه، ومن الناحية الرسمية يحق لأي رجل كاثوليكي أن ينتخب ليشغل منصب البابوية. غير أن ذلك لم يتحقق منذ القرن الرابع وحتى الآن؛ لأن انتخاب البابا يتم من بين الكرادلة الذين يضمهم المجمع البابوي الذي يتكون حاليًا من مئة وعشرين كاردينالاً يعدون هيئة استشارية للبابا وإذا توفي البابا يتم استدعاء هؤلاء الكرادلة إلى الفاتيكان؛ لأن عددًا كبيرًا منهم يسافر إلى الخارج، وذلك لحضور مراسم الجنازة، وانتخاب خليفة للبابا الراحل ويجري الاقتراع في مقصورة «السيكستينا» ذات النقوش

العريقة المتألقة. وبعد أن يقسم الكرادلة على الاحتفاظ بسرية الانتخاب يحتجزون في غرف القصر البابوي وملحقاته، ويخلى سبيلهم إلى حين انتهائهم من اختيار بابا جديد، وعندئذ يكون الكرادلة قد أعدوا بالفعل قائمة قصيرة تضم بضعة مرشحين، وتتواصل الاجتماعات يوميًا حتى يحصل احد المرشحين على أغلبية ثلثي أصوات الكرادلة المقترعين، وإذا لم يكن التصويت حاسمًا، تحرق أوراق الاقتراع في فرن خاص مع قشة مبتلة لكي تبعث دخانًا أسود. ينطلق من المدخنة، وهو ما يعد إشارة إلى الجماهير المحتشدة في ميدان القديس بطرس بأن الاختيار لم يقع بعد. وعندما يتم الاختيار في نهاية المطاف، تحرق أوراق الاقتراع وحدها من دون القشة المبتلة، بحيث ينطلق الدخان الأبيض المنتظر. وفي اليوم التالي لتنصيب البابا الجديد، يتفرق الكرادلة إلى دولهم التي قدموا منها، ما عدا أولئك الذين ينتمون إلى هيئة الإدارة البابوية.

والبابا بخلاف منصبه الديني يعد في الوقت نفسه حاكمًا زمنيًا لسكان الفاتيكان. والبابا الحالي «يوحنا بولس الثاني» تولى البابوية عام ١٩٧٨م، وتعرض لمحاولة اغتيال فاشلة عام ١٩٨١م، وهو بولندي الأصل، ولد بضاحية فادوفيتش قرب كراكوف في عام ١٩٢٠م.

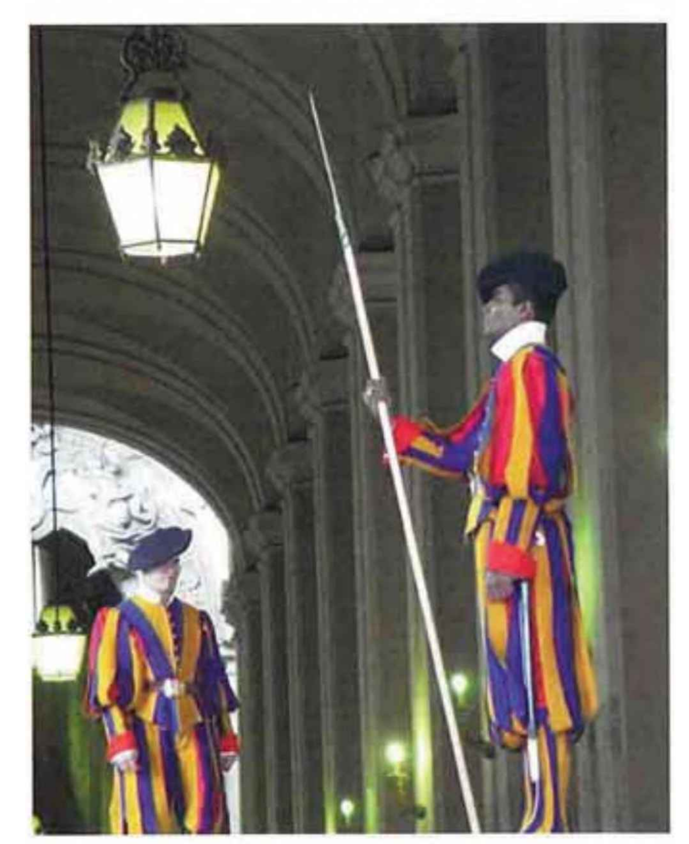
حراس غرباء أم عارضو أزياء؟

إن أبرز ما يسترعي انتباه الزائر للفاتيكان هو منظر هؤلاء الحراس ذوي الملابس الزاهية المقلمة بالخطوط الحمراء والصفراء والزرقاء وخوذاتهم الريشية وحرابهم التقليدية، ويشكل أفراد هذا الحرس. البالغ عددهم مئة فرد - قوات نخبوية تتقيد بنظام وانضباط صارمين للغاية، كما أنهم على دراية تامة بأحدث أساليب القتال العسكرية. ففي ساحة الشرف في حي الحرس عند بوابة «سانتا آنا» يتم تفقد الحضور والغياب في الثامنة من صباح كل يوم، ويسمح للحرس بأن يجيبوا بكلمة «حاضر» بإحد اللغات (الإيطالية أو الألمانية أو الفرنسية)، وبعد ذلك يتلقى كل منهم واجباته اليومية التي تتلخص في تفتيش المداخل، وحراسة أبواب المساكن البابوية، وتنظيم حركة المرور. غير ان اجل أعمالهم هو التفاني في حراسة البابا.

وليس من السهل أن ينضم المرء إلى هذا الحرس الذي يعد اقدم قوة عسكرية في العالم، فكما نصت معاهدة اللاثيران فإن كل منضم إلى هذا الحرس ينبغي «أن يكون سويسرى الجنسية، كاثوليكي المذهب، غير متزوج، تراوح سنه بين التاسعة عشرة والخامسة والعشرين، وفي أتم صحة، ولا يقل طوله عن ١.٧٤ متر»، ويجوز للشباب السويسري طبقًا لذلك أن يقضي فترة خدمته العسكرية ملتحقًا بهذا الحرس، كما يجوز له أن يتطوع لهذه المهمة من تلقاء نفسه، وبعد أن يمر الشباب المتطوعون بمرحلة عنيفة طويلة من التدريب البدني والإعداد الديني في وطنهم يؤتى بهم إلى الفاتيكان، فيقسمون يمين الولاء للعلم والبابوي، ويسلم كل منهم البزة الرسمية بألوانها المبهرجة التي يرجع تاريخها إلى عهد أسلافهم من أسرة «ميدتشي» منذ القرن السادس عشر، والتي يعود فضل تصميمها إلى الفنان الشهير روفائيل.

ويذكر أن البابا سيكستوس الرابع، قد أبدى إعجابه بشجاعة الجنود السويسريين، ومدى انضباطهم، فاختارهم لحمايته وحراسته عام ١٤٨٠م. وفي الحادي والعشرين من يناير كانون الثاني عام ١٥٠٦م، رحب البابا يوليوس الثاني بالكولونيل السويسري بييردي هيرتينستاين الذي قدمه إلى أفراد كتيبته المؤلفة من مئة وخمسين جنديًا.

وكان هؤلاء الرجال الجبليون الصارمون ذوو اللحى الشقراء، يحملون على أكتافهم قطعًا من الثلج. وبعد اكثر من عشرين عامًا، وبالتحديد في شهر مايو آيار عام



الحرس السويسري بملابسه التقليدية

١٥٢٧م. هاجم تشارلز الخامس أراضي الفاتيكان، وتحصن اثنان وأربعون جنديًا من الحرس السويسري في قلعة «أنجل» مع البابا «كليمنت السابع»، وظلوا يقاومون الأعداء حتى النهاية، ولقي في هذه المعركة مئة وسبعة وأربعون جنديًا من الجانبين مصرعهم، بينما تم إنقاذ حياة البابا.

وفي السادس من مايو آيار من كل عام يتم إحياء ذكرى هذه المعركة التاريخية، فيؤدي مجندون جدد يمين الولاء للبابا خلال مراسم مهيبة.

روائع معمارية تحطم الأرقام القياسية.

يعتقد كثيرون أن الفاتيكان تستمد قوتها الروحية بواسطة قبتها العملاقة التي تعد أشهر موقع يمكن أن ترصده عين الزائر من بعيد فور قدومه العاصمة الإيطالية؛ لأنها تعد أعلى قمة في روما وأضخم قباب العالم. ويقال إن مايكل أنجلو استلهم تصميمها من قبة معبد البانثيون الذي أقيم عام ٢٧ ق. م. تكريمًا لآلهة الكواكب السبعة. وقبة الفاتيكان التي ترتفع إلى مئة وثلاثة وثلاثين مترًا فوق كنيسة القديس بطرس مكونة في الواقع من قبتين الأولى الخارجية وهي تحمي الثانية التي شيدها أنجلو من الفسيفساء البراق في عام ١٥٤٧م.

ويذكر أن كنيسة القديس بطرس قد شادها أول مرة الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول عام٣٢٤م، من الآجر والسقف الخشبي، فوق القبر الذي يعتقد أنه يضم رفات القديس بطرس. وقد دلت الحفريات الأخيرة على أنه مدفون حقًا تحتها فقد عثر في القبر على هيكل عظمي بلا رأس لرجل كهل، وأجريت الاختبارات الكثيرة لمعرفة ما إذا كان هذا الهيكل يطابق رأس القديس بطرس الموجود - كما يظن - في كنيسة أخرى، لكن نتائج هذه الاختبارات لم تجزم برأي قاطع حتى الآن.

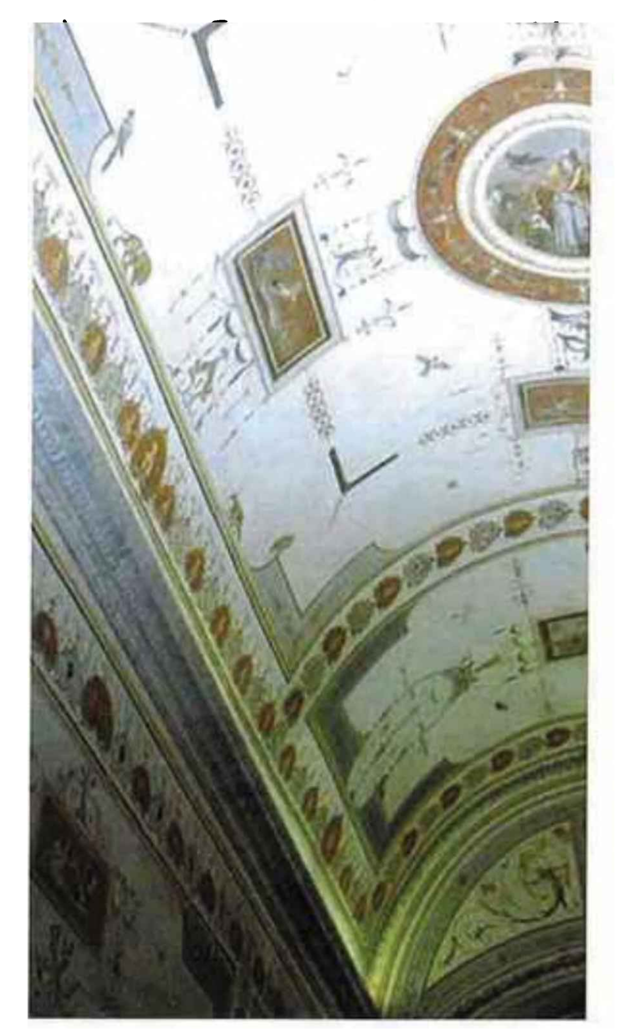
وبعد أكثر من ألف سنة أوشكت الكنيسة أن تنهار، ومن ثم تم هدمها، وأعيد بناؤها على هذا النمط العجيب، وذلك في خلال القرن ونصف قرن من الزمان (١٤٥٣ - ١٦٠٩م)، وقد كشفت حفائر البناء آنذاك أن تحت أرضيتها يقع تيه من الأطلال الأثرية والخرائب الرومانية القديمة، ويرشد رنين أجراسها المدوية - الذي يعلو على كل الأجراس في روما - إلى مدخلها في شارع الكونسيليشن، ويحمل هذا المدخل الكثير من المناظر الجديرة بالمشاهدة، فقد زين وزخرف برسومات ونقوش زاهية خلفها مشاهير فناني عصر النهضة.

وتعد هذه الكنيسة من كبريات الكنائس في العالم المسيحي، فهي تبلغ من السعة حدًا يذيب وقع أقدام أولئك الذين لا ينقطعون عن الحضور والانصراف: سائحين وعابدين ورهبان وغيرهم. والحقيقة إن في مقدور هذه الكنيسة أن تضم بين جوانبها نحو مئة ألف شخص، وهذا ما يحدث في أيام الأعياد الكبيرة، وفي هذه المناسبات تزين أعمدتها الثمانمئة بالعقود والأكاليل، أو تزخرف بألوان الزينة وتضاء محاريبها الأربعة والأربعون بأسطع الأنوار، وتذخر نفوس الجماهير بألوان من الانفعال والعبادة معًا خاصة عندما يطل عليهم البابا بتاجه المثلث وغطاء رأسه المموه بالذهب، وهو محمول إلى أعلى فوق عرشه الكبير، ليصل إلى المحراب الرئيسي حيث يرفع يده ليبارك الجميع بين الهتاف الذي يشق فضاء القبة الضخمة «يعيش البابا».

وتفتح الكنيسة على ميدان القديس بطرس الذي قام بتصميمه المهندس الشهير جيوفاني لورينزو برنيني بأمر من البابا ألكسندر السابع، وهو يبدو في سمت بيضاوي غير متكامل، إذ ينقسم إلى نصفي دائرة، بينهما واجهة الكنيسة، ويضم الميدان ٢٨٤ عمودًا على الطراز الدوري المأخوذ من العمارة اليونانية، ويبلغ ارتفاع كل عمود ١٩ مترًا، وفوق السطح القائم على هذه الأعمدة، وكذلك الكنيسة يشمخ ١٤٠ تمثالاً ارتفاع كل منها ٣،٢٠ أمتار، وقد نحت هذه التماثيل عشرون من تلاميذ برنيني وتحت إشرافه.

ويتوسط الميدان نافورتان متوثبتان تشمخ بينهما مسلة فرعونية عملاقة، كان الإمبراطور الروماني كاليجولا قد أحضرها من مصر لزخرفة ملعب نيرون الرياضي المعروف باسم شيركونيروني ولكنها أقيمت في المكان الذي أنذر فيه يوليوس قيصر مرتين بأنه سيقتل في ١٥ مارس آذار عام ٤٤م، ويرجح أن القديس بطرس صلب بجوارها. وفي عام ١٥٨٦م، أمر البابا «سيكستوس الخامس» بنقل المسلة إلى موقعها الحالي بوسط الميدان

النقوش تتألق على جدران مدخل كنيسة القديس بطرس





مدخل قبة الفاتيكان الشهيرة

ووضع الصليب فوق قمتها، لكن المسلة لم تنس أصلها الفرعوني، فهي إحدى الروائع التي أنجزت في عهد رمسيس الثاني، وشمخت في معابد الشمس بأون، ويبلغ وزنها ٢٥٩ طنًا وترتفع إلى ٢٥,٣٧ مترًا.

وفي أيام المناسبات والأعياد يكتظ الميدان بما يزيد على مئة ألف زائر يلتهبون حماسة كلما ظهر البابا ليباركهم في شرفة نافذته بجناحه الخاص بالقصر البابوي، وأنه لغريب حقًا أن يظل البابا موجودًا - في نظر الجميع - حتى عندما يخلو الميدان من الناس وينتشر عليه الظلام؛ وذلك لأن النور يظل منسابًا إلى ساعة متأخرة من الليل، من نافذة غرفته العليا التي تبدو في نظر رعاياه «عالمًا صغيرًا جدًا وعزيزًا جدًا».

والقصر البابوي بجدرانه المزخرفة وأسقفه التي تعلوها النقوش والرسوم، أشبه بمتحف عريق وهائل في آن واحد، إذ يعود تاريخ وضع لبناته الأولى إلى أربعة قرون خلت، كما أن أجنحته تحتوي على ألف غرفة، وما يقرب من مئة سلم ابتداء من الأبواب البرونزية إلى فناء محراب القديس دامسيوس. والحركة بين جنبات هذا القصر لا تتقطع؛ لأنه يضم كثيرًا من المكاتب الحيوية، ففي الطابق الأول يعمل رئيس الاحتفالات الدينية، الذي يقوم بالاطمئنان على سير المراسم والطقوس بصورة ملائمة وخاصة خلال الاحتفالات بأعياد الميلاد وآحاد السعف وأعياد الفصح. وفي الطابق الثالث يوجد مكتب رئيس البروتوكول، ومنظم أسفار البابا، وهي وظيفة مهمة خصوصًا إذا علمنا أن البابا قام حتى الآن بأكثر من مئة رحلة في مختلف أرجاء العالم، زار خلالها نحو مئة واثنتين وثلاثين دولة، هذا بخلاف رحلاته داخل إيطاليا والتي نيفت على مئة وأربعين رحلة.

عصر النهضة يتوقف هنا

إن زيارة متاحف الفاتيكان تمثل حلم كل زائر لروما، ليشاهد هذا الكم الهائل من الآثار والأعمال الفنية والتماثيل التي لا يضارعها مجموعة أخرى في أي متحف في العالم، وهذه المتاحف تفتح أبوابها لاستقبال أكثر من ثلاثة ملايين زائر سنويًا، ولنا أن نتخيل منظر تلك الصفوف الطويلة من الزوار التي تمتد يوميًا بطول شارع الفاتيكانو الشهير لتنتظر دورها للدخول والتجوال عبر صالات هذا المتحف التي يتصل بعضها ببعض إلى أعلى من خلال سلم حلزوني.

والزائر لهذه المتاحف يبدأ جولته بمعارض صور الفاتيكان التي تضم خمسة عشر قسمًا تضم أعمالاً لأهم الرسامين بداية من أولى مراحل الفن، ومرورًا بفناني عصر النهضة الإيطالية حتى القرن الثامن عشر، وهنا تطل علينا أعمال المشاهير برامانت، ورفائيل، ومايكل أنجلو، وليورناردو دافنشي، وغيرهم. وبالعروج إلى متحف الفن الحديث الذي يضم أعمالاً لـ «رودان، وكادنيسكي، وسيلفادور دالي» يكون الزائر قد كوّن فكرة موسوعية عن



كثير من الإبداعات الفنية وأصحابها، ولعل أبرز قطعة تستوقفنا هنا هي تلك المنحوتة التي صممها المثال الإيطالي الشهير أرنالدو بومبادور، على هيئة كرة ضخمة لتزين إحدى ساحات الفاتيكان.

وبالوصول إلى متحف جريجوريان للآثار المصرية تلوح أمامنا الحضارة الفرعونية بتاريخها الضارب في أعماق الزمن ممثلة في تلك المجموعة النادرة من التوابيت والمومياوات والتماثيل والقطع الرخامية المنقوشة وأوراق البردي التي تعود إلى عهد أسرات مختلفة.

وباتجاهنا صوب متحف بلفيدير الذي بني في عهد البابا إينوقنتيوس الثامن نجد مجموعة من أروع التماثيل الإغريقية والرومانية القديمة يبرز من بينها تماثيل: أبولون، والعَدّاء الأوليمبي، وديونون، وأفلاطون. وإذا يممنا وجوهنا شطر متحف كليملنتين، نشاهد مجموعة فريدة من أسلحة القتال التي خلفها الجيش الروماني القديم، منها بعض الخوذات المعدنية والرماح المشوقة والسيوف المعقوفة. وإذا وصلنا إلى متحف «تشارا مونتي» تروقنا روائع فنون النحت الإغريقي ممثلة في بقايا تيجان أعمدة أثينا وأسبرطة ونقوش جدران معابدها القديمة وعلى بعد بضعة أمتار يشدنا متحف جريجوريان للفن الأوتروسكي بأقسامه الثمانية التي تضم آثارًا مختلفة مما عثر عليها في منطقة مقابر العصر الأوتروسكي، وهو العصر قبل الروماني.

غير أن أشهر وأكثر الأماكن التي يبحث عنها زوار متاحف الفاتيكان هي السيكستينا، وهي تلك المقصورة التي بناها المعماري جيوفاني نيودل في الفترة من ١٤٧٥ إلى ١٤٨٣م لتكون مصلى مقدسًا لإقامة الطقوس الدينية، وبناء على طلب البابا يوليوس الثاني قام مايكل أنجلو بتزيين سقفها بأروع وأجل اللوحات الفنية التي استوحى عناصرها الأساسية من قصص التوراة. وخلال خمس سنوات (١٥٠٨ . ١٥١٢م) قسم أنجلو السقف الذي يبلغ مساحته ٥٤٠ مترًا مربعًا تسعة أقسام تضم ثلاث مجموعات من الرسومات النادرة، تناولت المجموعة الأولى رسومات تصور موضوعات متصلة بخلق الكون. وتناولت المجموعة الثانية رسومات تصور خلق آدم وحواء، والطرد من الجنة، في حين تناولت المجموعة الثالثة قصة نوح عليه السلام والطوفان.

وليست السيكستينا هي العمل الوحيد الذي خلد سيرة مايكل أنجلو في الفاتيكان، بل إن له عملا فنيًا آخر في قمة الروعة والإبداع وهو تمثال الرحمة الذي قام بنحته وهو في مقتبل عمره، إذ لم يكن يتعدى الخامسة والعشرين من عمره حين أبدعه، وهذا التمثال الموجود في مدخل كنيسة القديس بطرس يظهر ببراعة شديدة على وجه السيد العذراء الحزن الهادئ وآلام الأم التي فقدت ابنها، ومسحة الموت التي تعلو وجه السيد المسيح، وهو أول تمثال ينحت بالحجم الطبيعي لشخصين في عمل واحد.



كيف أنجو

حيدر الغدير
الرياض ـ السعودية

منتهانا وإن كرهنا حِمام
قصرت أم تمادت الأيام
والليالي بنا رواحل درب
طرفاه ولادة ورِجام
نحن في هذه الحياة ضيوف
تستبينا في لجها الأوهام
عابثات بنا وفينا اشتياق
لأذاها ولذة وغرام
قد رضعنا لبانها وانتشينا
وازدهانا حلالها والحرام
نحن ندري أن الحياة وصال
فيه صاب وسكرة ومدام
ثم ننسى ومرة نتناسى
أن عقبى الوصال منها فطام
ثديه الموت فالولادة موت
جاء في فرحة عليه لثام
ثم ينضو لثامه لا يداري
فإذا باللثام كأس زؤام

❖❖❖

ولنا بالحياة عشق وشوق
رغم آلامها وفينا هيام
فالأماني خوادع وشذاها
فتنة حلوة عليها وسام
نحن نعدو وراءها وهي تعدو
وكأنا ونحن نعدو سوام
والمآل الذي نصير إليه
فاغر شدقه ونحن نيام
وطويل الحياة مهما لبثنا
لحظات كأنها الأحلام
قد نراها طالت وذلك وهم
خادع أصغراه زور وذام
فإذا نحن للتراب أوينا
وصحونا قلنا الحياة لمام
وندمنا وفي الملام غرقنا
حيث لا ينفع الملوم الملام

❖❖❖

نحن أسرى الرغاب وهي ركاب
دائرات فيهن ما يشتام
نشتهي حلوها ومر أذاها
ما توالى الإصباح والإظلام
ولنا من مراشف الشر جام
ولنا من مراشف الخير جام
ولقد تشرق الفضائل فينا
ثم يسطو من بعدهن قتام
كيف أنجو سألت طيفًا أتاني
زائرًا فيه رقة وابتسام
لا ترعْ قال واستقمْ وامضِ ثبتًا
وهمامًا فيه اليقين حسام
أبعدِ اليأس واشحذِ العزم واصنعْ
توبة تمحي بها الآثام
واثقًا أنها ستلقى قبولاً
يوم تنجو هام وتردى هام

❖❖❖

رب أطلق فيّ اليقين شهابًا
واصبُبْني منه صولة لا تضام
ومتابًا يجلو غواشي الخطايا
فإذا ما قبلت طاب الختام



إلى آخر أمراء الأندلس ...

سعود بن سليمان اليوسف
الرياض ـ السعودية

لا تلتفت
لا تَتْلُ يا ... صمتَ الذهولْ
لا تبكِها مثلَ النسا مُلكًا مُضاعًا
لم تُحا ...
هل يُغولُ السيفُ الصقيلُ على القتيلْ ؟!
لا تحكِ عن لغةِ الهطولْ!
قد ترجمَتْها الأرضُ
فارتدّتْ ...
مواسمَ من مُحُولْ
والفجرُ!
قد برزتْ شموس ضُحاكمُ متوهّجات
بالأفولْ!
لا تدّعوا الإيناع حين تُجاهرون
بغرس أغصان الذبولْ
العابرون
وهذه أصواتُ آثار الخُطى الخرساءُ
قدخطَت على جسدِ البطولات. التي مضغَ الرواةُ. وسومَ عازِ
القوم متكئون في الهيجا على صوت التراث
وما تبقّى من صدى تلك البطولات التي اجتُرّتْ
سوى أشلاءِ قاماتِ الصليلْ !
يتنفّسون صدى التراث الأبترِ الموؤود !

فالأمجادُ أصواتٌ محنّطةٌ
تَهاوتْ في توابيت الشفاه
تظلُّ ينخرُ طهرَها عُهْرُ المَقُولْ:
ها نحن صورة طارق (.....................) !!
ويظلُّ يذبح طارقًا في قبرِه
عظْمُ اختلافِ فحولةِ الأفعال منه
وأنثويّةِ ما نقولْ
أمجادهم محضُ الرؤى واستعطفوا التأويل ...
حتى أوّلوا الرؤيا بأندلس: فهبُّوا للخمولْ
لا تدّعوا (ماتدّعونْ)
أخجلتمُ الصهَواتِ
أحرجتم إباءً للتراث
حَنيتُم هاماتِ أصداءِ الصهيلْ
لا تلتفتْ
فوراءك التاريخ موتورًا
وما بردَتْ له إلا عظام المستحيلْ
وأمامك المستقبلُ / النسْلُ اليتيم
تضج في دمه ابتهالات القتيلْ
لا تلتفتْ يا ...
إن أثقل خطوة
مرّتْ على تاريخ هذا المجد
خطوتُك التي مرتْ خفيفًا مثل لمح البرق
لم تتركْ أثرْ
أرهقتَ أرحامَ القبور
فكم تُلقّحُهنّ من أشلاء شعبكَ. ظالمًا. نُطفَ السيوفْ
فالأرض حُبلى بالجثثْ!
ولقد رأى التاريخ
أن حقيقة الميلاد ما حملَتْ به رحِمُ
الكفَنْ
وتعرّتِ الأصواتُ
فافتُضحَت حناجرُ من حروفهمُ وسَنْ
فاصرُخ بصَمتِك
للتراث
وللحضارة
للذي يأتي
فقد يعفو الزمنْ:
(أوسعتُهم سبًا وساروا بالوطنْ)!



لا مد لي

طلال الطويرقي
الرياض ـ السعودية

الحياةُ مضرجةٌ
الغرور يغلف عتمتها
ويدك حصون تطامنها
في سماء تنفسه سمك الذاكرهْ.
كنتُ اسفنجة لزلال صهيل تباريحها
كنتُ فجوتها المخرجة.
الحياةُ مضرجةٌ والمساءُ يَعضُّ رمادَ الخطى
لتصابَ بداءِ الكَلَب
فتدل علينا
وترجع في آخر الأمنيات إلينا
إذا غسل الغيم آخر أحداقِهِ
كنتُ أهجس:
إن المكان له ذاكرهْ
والمرايا لسانْ
الحياةُ مضرجةٌ
تستوي هذه الأرض فوق فمي
ثم أحملها
فجاة أتذكر أني وحيد
وتر وشهيدْ
وتر
وشهيدْ

◆◆◆

الحياةُ مضرجةٌ
كيف لي
ان أرى
والقميص الذي كان انشودتي
يقرأ الجب شهقَتَهُ
نهر تلويحة لهدى العابرينْ ؟؟
الحياةُ مضرجةٌ بالمتاعب
عمياء كالحب
رادعة كالعدالةِ
فتاكة كقلوب النساءِ
ومالحة كالنشيج
فقلبي أنا خطئي
كلما هذبت دمه حكمةُ الكهل
اغوته تجربةُ الطفلِ
تجربة الشعر ثم بكى

◆◆◆

الحياةُ مضرجةٌ بالمتاعب
اعرف أن الطفولة حين تغادرنا
هي أجمل أوهامنا
في زمان تزيف بالأصدقاءِ
فاقنع نفسي بأن الصداقاتِ
كذب أنيقٌ
وأن النساء الجميلات تكرار آه.

◆◆◆

فاصلة
سمسم الذكرياتِ
محاميسُ روحي تنضجه
وبنثر أجمل أحزانهِ
حول وجه الحياة سعالُ تباريح أمي





زخة شجن

حسن عبدالله الشرفي

صنعاء ـ اليمن



الْحبُّ أوَّلُهُ ترانيمٌ وآخِرُهُ ابْتِهالْ!

وعَلَيْكَ انْ تُقْصِي ضُلُوعَكَ عنْ ثِقابِ الاشتعالْ

بِيَدَيْك انْ تختارَ نَبْضَكَ بيْنَ رَبّاتِ الجَمالْ

يَا صَاحِبَ القَلْبِ المُدَلَّهِ كَيفَ تَجْتَرِحُ السُّؤَالْ؟

مَنْ أنْتَ في صَبَواتِهِنَّ؟ مَعَ المسَافاتِ الطُّوَالْ

فاتتْكَ أُبَّهةُ الشَّبابِ وجِئْتَ تَطْمَعُ في المحَالْ

اللهُ من حُلُمِي الذي مَا كانَ يَخْطُرُ لي ببالْ

كانَتْ قَصَائديَ الجيادُ لَهُ حَدائقَ بُرْتُقَالْ

والْيَوْمَ لا بَعضُ الحقيقَةِ في يَدَيْهِ ولا الخَيالْ



الرحلة

فارس عمر الزعبي

عجمان ـ الإمارات

رفقاً بي يا عمّاه.. فأعوامي الثلاثة عشر لا تقوى على هذه الرحلة..

يا عمّ طالت الرحلة.. كم هي شاقة تلك المسافة العملاقة...

من الشام إلى الحجاز.. كم هي طويلة!!

صمت عمي طويلا، واردف يائسًا:

ـ تراك تقدّر المسافة؟ رغم ان كل هذه الفيافي التي جزناها قد جزتها مظلّلاً تحنوعليك بركات ابيك وجدك!

وكنت أردّد: أيّ ظلّ يا عمّاه؟؟

كانت كثيراً ما تبلع سماء هذا الكون ليلاً.. تلك الدروب الصحراوية كثيرًا ما تشتعل.. حتى مساكن ثمود كانت تتوهّج بصخورها الأزلية، وكم كانت واطئة تحتنا!

عاد اللهيب يجترّ الرحلة بشاياه اللاهبة، وسرابه الممتدّ حتى ثمالة البيداء.

ـ «أنا فارس الكلمة».

هذا ما قاله أحدهم يوماً.. لكنه فيما بعد احجم عن صحبتي.

يا عمّاه طالت الرحلة / صغير أنا / وكم تحبني / ما أعذب الرفقة / أين نقصد؟ / التجارة تذهلني ياعماه. أما من شيء خلاّه لي عبدالله قبل أن يغادر هذا العالم؟ كانت السماء حينها تتلعثم، وزفير السنين يتوالى، وراح صمت العم يشتمل الليل بعباءته السوداء.

جميع القرشيّين كانوا يصمّون آذانهم، متباهين بأطراف سدانة متماهية من حولهم بدقة التاريخ، وظرف المستقبل اللائذ خلف عتبات روما وفارس.

اين نقصد يا عماه؟ هناك تحت الشجرة؟عماه ماذا تصنعون؟ أبشر يا بن أخي. دعني تحت هذا الظل يقيني الهاجرة ويصمت السؤال البهي بين كتفي..

أالليل مثل هذا بتّ تعدّ كل هذي الأوراق؟ اتراك تدرك قلقي؟ أتراك تدرك ما أزاول من مهن؟ وأين أنا الآن؟ وكيف انقلبت أموري الصغيرة إلى ذي الشأن وذات الشأن؟ وكيف استحالت أشيائي البسيطة وردةً كالدهان؟

ماذا تراك تقدّر لي يا عماه؟.. ليلة بؤس. أم ليلة نعماء استقللتُ بها دون سواي عن كل هذه الأرض التي تعبق حولي ببخور ليس لي منه سوى اسم حزين..

في صعودي هذا حول ما اوعرّ من درب هوفعلاً ما يستحقّ الأمان.. فلتستجبْ لي يا عمّاه..

كم السماء محرقة في هجيرتها الحجازية! وكم ثنايا الليل الشآمي تطويه أنّات راغب في ابتهالات الحيارى.

لا حيرة بعد الآن.. فانا اريد حقي يا عماه.. أريد قسطاً مما خلّفه أبي عندما قُرّر له أن يرحل في رماد ذاك الخريف القابع خلف قاسيون.. في ذرّات أيلول: حيث كان الليل يرتدي شكله الأسطواني كي يخفي وجهه الآخر عن يتمي الممض.

فهل لي بميراثي؟

لم أكن، وما كان لي أن احسب أنك غادرتَ ابنك، حتى في حلم له لم يره بعد، وتركته لبقايا أسطورة تعبث بشتات طفولته.

عمّاه هبْ لي عباءةً من الأمل.. عمّاه اسكبْ في هذه الكأس شيئًا من حنايا الروح عند الأصيل.. وأظنك تستطيع، فقد كنت في تلافيف الدجى أعود مضمّخاً بأكاليل تحدوني.. ولم يكن لي وطن.. وكنتَ أنت.

وكنت أطلب إجابتي إلى ميراث ليس بالكثير.. فانا أريد مثل الآخرين ان أحيا.. ولم لا أحيا.. فنحن أصحاب إيلاف أليس كذلك؟ الجميع يشترون منا، والجميع يبيعوننا، فعلام هذا الحَيْف؟

بصبر عهدته فيك طوال هذه الليالي التي كانت تطويني وأمي قلت لي:

- إن جدك أنفق الكثير من المال على أبيك!! أولم تكفهِ النوق المئة..

- أتراني لوحزت ألف ألف ناقة هل كانت لتعدل رؤيتي وجه أبي كما أراك الآن؟

عمّاه هل كان لأبي وجه يشبه وجهك؟ أليس من صورة له؟

حسناً فالميراث مدفوع منذ أيام جدي.. تراه استقسم بالأزلام جدي حتى ضاع ميراثي؟

ها قد بلغت الخامسة والعشرين وليس لي عمل، وأنا ما زلت أمياً لم أتعلم بعد الغبائية الحياة هذه التي ينعتونها بالسهولة. ولست أدري أهي كذلك فعلاً؟ أم أنها صعبة كذات الحياة؟ فما العمل؟ وما من مال؟ ولم يطلّني من الميراث شيء؟

عمّاه.. هذه الخامسة والعشرين تقلق رجولتي.. وتمضّني بكثبانها، بعدما أترعتُ حنظلها، ونسيت أن أخبرك عن سيدة من العشيرة عرضت علي يدها ومالها. وكم كنت أتمنى أن أتزوج بكراً الاعبها وتلاعبني! إنها قاربت الأربعين.. فما العمل؟

عدت ذات ليلة أطوي بقاياي مستعداً لرحلة أخرى، في تجارة أخرى، تجارة أنا صاحبها، وليكن يا عماه ما يكون. وأذكر جيداً أنكم تركتموني أخوض. وحدي. غمار تلك الرحلة.

وحدي.. فأنا أدري الوجهة.. وقد سافرتها صغيراً.. وأذكر أنكم أهل تجارة. لكنكم بخلتم علي بتجارتكم، وتركتموني فرداً.. ترى ماذا يفعل شابٌ في الخامسة والعشرين فرداً.

سافرت إلى الشام، وهنالك نافست كبار تجّارها.. وعدت

.. تزوجتها.. وليكن ما يكون.. كانت تستقيم تجارتي حيناً، وتعثر أحياناً.

هلّتِ الأربعون يا عماه وأنا على هذه الحال.. ولمّا كنت أعدّ لصفقتي الكبرى أنباتني تلك التي تزوجتها. دون أن الاعبها ودون أن تلاعبني. أنها أوقفتْ تجارتها إلى الشام، ولم تعدْ بحاجة إليّ، وقد وجّهتْ جمالها نحوالخليج، فهنالك الكثيرون ممن يتولّون تجارتها. وبقيتُ أنا يا عماه تائهاً بين بادية الشام ورمال الحجاز. فهل لي بشيء من ميراثي أعاود به تجارتي علّي أصادف بكراً الاعبها وتلاعبني، بعد أن أضحيت في الأربعين ياعماه..

عماه زُفَّ لي فرح الإكليل حين يطوّق اليمامة.. تاهت بي الدروب، وأنّى لي من درب.. دربي درب خلود.. فأين أنت من كلّ ما قيل عن ألهتك التي تبعت، وتركتني إلج عالماً يمتدّ حتى لا عودة.. إلا العودة الكبرى.

عائدٌ أنا بقربك يا عماه.. عائد باشتمالك.. بنسيانك.. عائد بمكابرتك الذين يقفون سواراً قدّ معصم العاطفة المتشرنقة من أطيافك.. عائد أنا بسخونة دمعك الذي يتلاشى عند رجحان قبّان التجارة في ذلك الدكان.

أذكر جيّداً كيف كانت تلك الدمعات المتساقطة تعرّيك من دفاتر الدكان، لتعود إلى خبائك ترتدي صلف الشّعاب، وقسوة البازلت، وكنت تعوذ بجبينك الذي يرشح عندما تحاول لملمة تراث والدي، لتعيده بشعث الأطفال.

عمّاه.. هل صادفت شاعراً مضى بما قاله فحفظت قوله؟! عمّاه أظنك كنت تحبّ من الشاعر قوله وتنكر حقيقته وحقّه.

عمّاه.. كنت أراك حين تخفي في ثناياك ما علينا أن نمنح الشاعر، وتبدي بوضوح إعجابك بما أنشده دون مواربة.. أتراك كنت تعي الفرق بين الشاعر والمكافأة؟ فماذا كنت لتقول لوأنني قلت لك ما لم يقله شاعر؟! وماذا لوأنني صدحت ببلاغة لم تعرف الرحلة لها مثيلا، ولم تسمع بها بيداؤنا قبلا؟! وماذا لوأنني قلت لك إنني متجه إلى هنالك رغم الدروب الجبلية.. رغم المسلك الوعر..

لقد طالت الرحلة يا عمّاه.. هنالك أجلس وحدي.. وحدي حيث لا أحد. هنالك أقربُ الحقيقة.. الحقيقة التي تعرفها وما زلت بصلف. السادات والعباءات. تداريها.. الحقيقة التي تدريها وترفض أن تحكيها. إلا أن هذا المسلك الوعر سيقودك نحودوحة لم تشاهدها في أبراج بصرى، ولا في غوطة الشام، ولا في رياض الطائف.

عمّاه.. ما دامت هذه الغيمة تظلّلنا.. فما قولك بأن نستفيء بها معاً؟ تقرّبني.. وتُعيد إليّ ميلادي.. وأعيدُ إليك موتك؟؟



القماط

يوكيو ميشيما

ترجمة: كامل يوسف حسين

دبي ـ الإمارات

كان زوج توشيكو مشغولاً على الدوام، وحتى الليلة تعيّن عليه الانطلاق مسرعًا إلى موعد ارتبط به، وتركها تمضي إلى الدار في سيارة أجرة. ولكن ما الذي يمكن للمراة أن تتوقعه غير ذلك عندما تتزوج ممثلاً يتميز بالجاذبية والوسامة؟ لا شك في أنها كانت حمقاء عندما علقت الآمال على أنه سيقضي الأمسية معها. ومع ذلك فلا بد أنه قد عرف كيف أنها ترهب العودة إلى دارهما، الموحية بالتكلف بأثاثها الغربي، ولا تزال لطخ الدم ظاهرة على أرضها.

تميزت توشيكو، منذ يفاعتها، بالحساسية البالغة، وكانت تلك طبيعتها. ولم يقدر لها، نتيجة للقلق المستمر، أن تعرف طريقها إلى امتلاء القوام.

والآن وقد غدت امرأة في صدر العمر، بدت أقرب إلى صورة شفافة منها إلى مخلوق من لحم ودم، وبدت رهافة روحها جلية حتى لأبعد معارفها عن الارتباط معها بصلة وثيقة.

في وقت سابق من هذا المساء، عندما لحقت بزوجها في الملهى الليلي، صدمت عندما وجدته يسلي أصدقاءه برسم صورة لهم عن «الحادث». جلس في مقعده ذي التصميم الأمريكي، وراح يدخن سيجارة، وبدا كما لو كان رجلاً غريبًا عنها تقريبًا.

مضى يقول، وهو يومئ على نحو مبالغ فيه، كأنما في محاولة لإحداث توازن مع الفرقة الراقصة.

ـ إنها قصة غريبة، على نحو لا يصدق. هاهي ذي المربية الجديدة التي سترعى طفلنا الوليد، تصل من مكتب الخدمات. وأول مالفت نظري فيها بطنها، فهي متكرشة كأنما دست وسادة تحت الكيمونو الذي ترتديه، وحدثت نفسي بأنه لا غرابة في الأمر، فسرعان ما رأيت أن بمقدورها أن تلتهم من الطعام ما يتجاوز ما نأكله كلنا معًا، فقد أودت بمحتويات مستودع ارزنا هكذا ...

فرقع بأصابعه، وأضاف:

ـ تمدد في المعدة، ذلك هو ما فسرت به محيط خصرها الضخم وشهيتها العارمة. تناهت إلينا أول أمس تأوهات وأنات منبعثة من غرفة الوليد. فاندفعنا إلى داخلها، وألفينا المراة مقعية على الأرض. وقد امسكت بطنها بيديها كلتيهما، وراحت تخور كالبقرة، وإلى جوارها وليدنا في مهده، وقد استبد به الفزع وراح يبكي كأشد ما يكون البكاء. بمقدوري أن أقول لكم: إنه مشهد جميل!

أشار أحد أصدقائهما وهو ممثل سينمائي مثل زوجها، قائلاً:

ـ هكذا خرجت القطة من مكمنها؟

ـ حقًا خرجت! وقد أصابتني بصدمة عمري، إذ كنت قد ابتلعت تلك القصة عن تمدد المعدة. طيب. لم أضع وقتًا، فانقذت سجادتنا الرائعة من فوق الأرضية، وفرشت بطانية لترقد عليها. وطوال الوقت كانت المرأة تصرخ، مثل خنزير يذبح بطعنة في حنجرته. ولدى وصول الطبيب من مستشفى الولادة كان الجنين قد ولد بالفعل، ولكن غرفة جلوسنا غدت كالمسلخ.

ـ آه، إنني على يقين من ذلك !

قالها صديق آخر من أصدقائهما، واندفعت المجموعة بأسرها ضاحكة. ذهلت توشيكو لسماعها زوجها وهو يناقش الحديث المخيف كأنه لا يعدو أن يكون حادثة مسلية صادف أن شاهدها. أغمضت عينيها لحظة، وفجأة تراءى لها الوليد راقدًا أمامها. على الأرضية الخشبية المصقولة تمدد الوليد، وجسمه الناحل ملفوف في جرائد ملطخة بالدم.

كانت توشيكو على يقين من أن الطبيب قد أتى الأمر بأسره قاصدًا، كأنما ليؤكد سخريته من هذه الأم التي ولدت ابن سفاح في مثل هذه الظروف الكئيبة، طلب من مساعدته أن تلف الوليد في بعض ورق الجرائد المتفكك، وليس في قماط مناسب. وأثارت هذه المعاملة الصادرة عن فؤاد قاس حنق توشيكو. تغلبت على شعورها بالاشمئزاز من المشهد بأسره، وجلبت قطعة جديدة تمامًا من القماش من خزانة ملابسها، وبعد أن لفت الوليد فيها وضعته بعناية في مقعد ذي مسندين.

حدث كل هذا في المساء، بعد أن غادر زوجها الدار، ولم تحدثه بشيء عنه، خوفًا من أن يظن بها ميوعة ومبالغة في العاطفة ومع ذلك فقد حفر المشهد في ذهنها عميقًا. وها هي ذي الليلة قد جلست صامتة، وعاودت التفكير فيه، بينما راحت فرقة الجاز تنشر صخبها المدوي، وزوجها يثرثر في مرح مع أصدقائه. عرفت أنها لن تنسى مشهد الوليد قط، وقد تم لفه في أوراق صحف ملطخة بالدماء، ورقد على الأرضية. كان مشهدًا ينتمي إلى حانوت قصاب. وساور توشيكو، التي أمضت حياتها لا يهزها شيء، شعور بتعاسة الوليد غير الشرعي، يمازجه ألم مبرح.

طرأت الفكرة على ذهنها: إنني الشخص الوحيد الذي رأى عاره رأي العين، فالأم لم تر الطفل قط، وقد رقد هناك في قماطه المتخذ من ورق الصحف، والطفل نفسه لم يعلم بالأمر، بالطبع. أنا وحدي سيتعيّن عليّ الاحتفاظ بذلك المشهد الرهيب في ذاكرتي، وعندما يكبر الوليد ويرغب في معرفة ما يتعلق بميلاده، لن يكون هناك من يحدثه بجلية الأمر مادمت ملتزمة الصمت. كم هو غريب أن يساورني هذا الشعور بالذنب! في نهاية المطاف كنت من التقطه من الأرضية وقام بلفه في قماط من القماش على نحو لائق، ووضعه في المقعد ذي المسندين ليغفو.

غادرا الملهى الليلي، واستقلت توشيكو سيارة الأجرة التي استدعاها لها زوجها. وقال للسائق: «امض بهذه السيدة إلى يوشيجومي!».

أغلق الباب من الخارج. وحدقت توشيكو عبر النافذة في محيا زوجها الباسم، ولاحظت أسنانه القوية البيضاء، ثم تراجعت مسترخية في المقعد. وقد غلبتها على نحو قاهر معرفة أن حياتهما معًا كانت على نحو من الأنحاء أيسر مما ينبغي وأكثر مما يجب خلوًا من الألم. وكان من المتعذر عليها أن تصوغ خواطرها في كلمات. ألقت عبر النافذة الخلفية لسيارة الأجرة نظرة أخيرة على زوجها. وكان يمضي بخطوات واسعة نحو سيارته من طراز «ناش»، وسرعان ما اختلط ظهر سترته الصارخة الألوان، إلى حد الإزعاج، مع شخوص المارة.

انطلقت سيارة الأجرة، ومضت في شارع يغص بالحانات والمسارح التي راحت حشود من الناس تتزاحم أمامها على الرصيف، وعلى الرغم من أن العروض انتهت لتوها، فإن الأنوار احتجبت بالفعل، وبدا جليًا على نحو يدعو للاكتئاب أن براعم الكرز التي تزين الواجهات، لا تعدو أن تكون مجرد قطع من الورق الأبيض.

حتى لو قدّر لهذا الوليد أن يكبر جاهلاً بسر ميلاده، فإنه لن يكون بمقدوره أن يصبح جديرًا بالاحترام قط. هذا هو ما راحت تتأمله توشيكو، موغلة في النوعية ذاتها من الخواطر. هذا القماط من ورق الصحف الملطخ سيغدو رمزًا لحياته بأسرها. ولكن لم يتعين عليّ مواصلة القلق بشأنه على هذا النحو البالغ الشدة؟ لنقل إنه بعد عشرين عامًا من الآن، وعندما يكبر ولدنا، ويغدو شابًا رائعًا، تم تعليمه بمزيد من العناية. وذات يوم وعبر تحول عجيب من تحولات القدر يقابل ذلك الولد الآخر الذي سيكون حينذاك قد بلغ العشرين بدوره. ولنقل إن الولد الآخر الذي اقترفت الخطيئة بحقه، قام بطعنه على نحو وحشي باستخدام سكين ... كانت هذه الليلة من ليالي إبريل الدافئة والملبدة بالغيوم، ولكن الخواطر المعلقة بالمستقبل جعلت توشيكو تشعر بالبرد والبؤس، فارتجفت في مقعدها الخلفي بالسيارة.

حدّثت نفسها فجأة: لا، عندما يحين الأوان، سأحل محل ابني. بعد عشرين عامًا من الآن، سأكون في الثالثة والاربعين من العمر، سأمضي إلى ذلك الشاب، وأبلغه مباشرة بجلية الأمر، سأحدثه عن القماط المتخذ من الصحف، وكيف أنني مضيت ولففته في قماش ناعم.



انطلقت سيارة الأجرة، على امتداد الطريق الرحب المظلم الذي يحف بالحديقة وخندق القصر الإمبراطوري، ولمحت توشيكو في البعد الأنوار المحدودة التي تشبه الثقوب والتي انبعثت من المباني الشاهقة المخصصة للمكاتب.

بعد عشرين عامًا من الآن، سيكون ذلك الطفل التعس في قبضته بؤس بالغ. سيحيا في ظل وجود تعس، عاجز، يطبق عليه الفقر، مثل جرذ وحيد. ماذا غير ذلك يمكن أن يحدث لوليد أطل على الدنيا على هذا النحو؟ لسوف يضرب في الشوارع وحيدًا، وهو يكيل اللعنات لأبيه، ويستشعر المقت نحو أمه.

لا شك في أن توشيكو قد استمدت شعورًا معينًا بالرضا من خواطرها الكئيبة، فقد راحت تعذب نفسها بهذه الخواطر دون توقف.

اقتربت سيارة الأجرة من «هانزومون»، وانطلقت متجاوزة مجمع مباني السفارة البريطانية. عند ذلك الموضع امتدت أمام توشيكو صفوف أشجار الكرز الشهيرة بكل نقائها. وبوحي اللحظة قررت المضي ومشاهدة البراعم بنفسها في الليل المظلم. كان قرارًا غريبًا بالنسبة إلى شابة خجلة وبعيدة عن روح المغامرة، ولكنها كانت في حالة ذهنية غريبة. وخشيت العودة إلى الدار. وفي ذلك المساء انتقلت في ذهنها كل الخيالات التي لم تحسم أمرها.

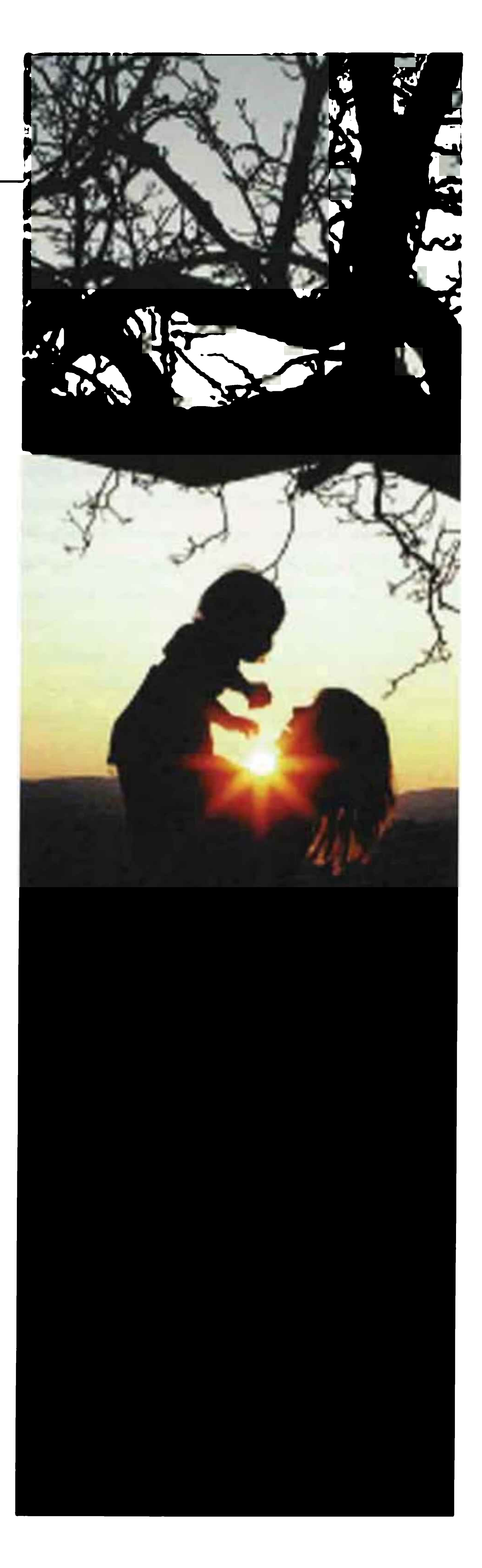
عبرت الشارع كيانًا ناحلاً، منفردًا، في رحاب الظلام، وكانت كقاعدة عامة قد اعتادت عندما تسير وسط حركة المرور أن تتشبث بمن ترافقه في السير، ولكنها الليلة انطلقت مسرعة بمفردها بين السيارات، وبعد لحظة وصلت إلى الحديقة الضيقة والممتدة طويلاً والتي تحف بخندق القصر، وهي تدعى «تشيدو ريجافوتشي»، أي «هواة الطيور الألف».

الليلة غدت الحديقة بأسرها أجمة من أشجار الكرز المزهرة. وتحت السماء الساكنة، التي تموج فيها السحب، تحولت البراعم إلى كتلة من البياض الشاهق. كانت المصابيح الورقية التي علقت من الأسلاك المتدلية بين الأشجار مطفأة الأنوار. وفي موضعها تألقت مصابيح كهربائية حمراء وصفراء وخضراء على نحو فاتر تحت البراعم. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وانصرف معظم مشاهدي الأزهار إلى بيوتهم، بينما كان المارة قليلي العدد ينطلقون عبر الحديقة، راحوا يركلون بصورة آلية بأقدامهم الزجاجات الفارغة أو يدوسون الأوراق الملقاة على الأرض.

حدّثت توشيكو نفسها، وقد عاد ذهنها مجددًا إلى تلك الأحداث: الصحف، الصحف الملطخة بالدم. لو قدِّر لإنسان أن يسمع ذات يوم بأمر ذلك الميلاد الذي يدعو إلى الرثاء، ويعرف أنه هو الذي رقد هنالك، يقضي ذلك على حياته بأسرها. والظن انني أنا، الغريبة تمامًا عنه، احتفظ من الآن فصاعدًا بمثل هذا السر. سر وجود إنسان بأسره ...

مضت غارقة في تلك الخواطر. تغذ السير على امتداد الحديقة. كان معظم من بقوا هناك يمضون كل اثنين معًا في هدوء، ولم يبد أحد أي اهتمام بها. لاحظت شخصين يجلسان على أريكة حجرية قرب الخندق، من دون أن ينظرا إلى البراعم، وقد عكفا على التحديق في مياه الخندق صامتين. كانت الحديقة مظلمة تمامًا، وتلفها كالقماط ظلال كثيفة. فيما وراء الخندق، حجبت الغابة الجميلة، المحيطة بالقصر الإمبراطوري، الأفق عن نظرها. تطاولت الأشجار لتشكل كتلة دامسة الظلام في مواجهة السماء المتشحة بالليل. سارت توشيكو على مهل على امتداد الطريق الواقع تحت البراعم المتدلية في تثاقل فوق راسها.

لاحظت على أريكة حجرية على مبعدة قصيرة من الأرائك الأخرى، شيئًا شاحبًا. لم يكن كما تخيلت في بداية الأمر كومة من براعم الكرز، ولا ثوبًا نسيه أحد رواد الحديقة، ولم تدرك إلا حينما اقتربت أن الذي وقع نظرها عليه جسم متمدد على الأريكة الحجرية. راحت تسأل عما إذا كان واحدًا من أولئك السكارى البؤساء الذين تقع العين غالبًا عليهم وهم يغطون في الأماكن العامة. من الجلي أن الأمر كان كذلك؛ لأن الجسم كان مغطى بصورة منظمة بالصحف، وكان بياض تلك الأوراق هو الذي اجتذب اهتمام توشيكو. وقفت إلى جوار الأريكة، وراحت تحدق



في الجسم الذي غمره النعاس.

كان الراقد على الأريكة رجلا يرتدي ثوبًا من قماش محكم الحبك، وقد التف حول نفسه فوق طبقات من الصحف، فيما غطته صحف أخرى. ولا شك في أن هذا قد أصبح مأواه الليلي المألوف مع مقدم الربيع. راحت توشيكو تحدق في شعر الرجل المتسخ والمهوش، الذي غدا في مواضع منه ملتفًا وملتصقًا على نحو لا أمل معه في أن تتحسن حاله. وبينما هي ترقب الجسم الخافي الملتف بالجرائد، إذ تذكرت على نحو حتمي الوليد الذي رقد على الأرضية في قماطه البائس. راح كتف ثوب القماش المحبوك الذي يرتديه الرجل يعلو ويهبط في الظلام، متوافقًا مع تنفسه الثقيل.

بدا لها أن كل مخاوفها وهواجسها قد اتخذت، على حين غرة، شكلاً متجسدًا. وفي الظلام برز جبين الرجل، وكان جبينًا شابًا، وإن غارت فيه تجعدات فقر ومشقة طال عهدهما. كان سرواله ذو اللون الكاكي مرفوعًا إلى أعلى قليلاً، وقد انتعل حذاء رياضيًا باليًا، ولم يبد أثر لجوربيه. ولم يكن بمقدورها رؤية وجهه. وفجأة استبدت بها رغبة قاهرة في أن تلمح محياه لمحة خاطفة.

مضت إلى رأس الأريكة، وتطلعت إلى أسفل، كان وجه الرجل شبه مدفون بين ذراعيه، ولكن توشيكو استطاعت إدراك أنه في يفاعة العمر على نحو مدهش، ولاحظت الحاجبين الكثيفين، وقصبة أنفه البديعة التكوين، وكان فمه المفتوح متوهجًا بالحياة والصبا.

لكن توشيكو كانت قد اقتربت أكثر مما ينبغي ففي الليل المتوشح بالصمت صدر حفيف عن الصحف المتخذة فراشًا. وعلى حين غرة فتح الرجل عينيه، فرأى شابة تقف إلى جواره مباشرة، رفع نفسه بحركة مفاجئة، وقد توهجت عيناه، وبعد ثانية امتدت يد قوية، وأطبقت على رسغ توشيكو الناحل.

لم يساورها أدنى شعور بالخوف، ولم تبذل جهدًا لتحرر نفسها من إساره، ففي غمضة عين كانت الفكرة قد اجتاحت ذهنها: «آه، هكذا فقد انقضت العشرون عامًا!». عمّ ظلام دامس غابة القصر الإمبراطوري وسادها صمت مطبق.

تعقيب على: بعض ملامح الأسرة بين التاريخ والشعر

طالعت في العدد ٣٢١ بمجلة الفيصل مقال «بعض ملامح الأسرة العربية بين التاريخ والشعر» وتوقفت عند عناوينها: بنين وبنات، وأد البنات، مما أثار لدي فكرة هذا التعقيب لتوضيح مكانة البنات وصورتهن في التراث الإسلامي.

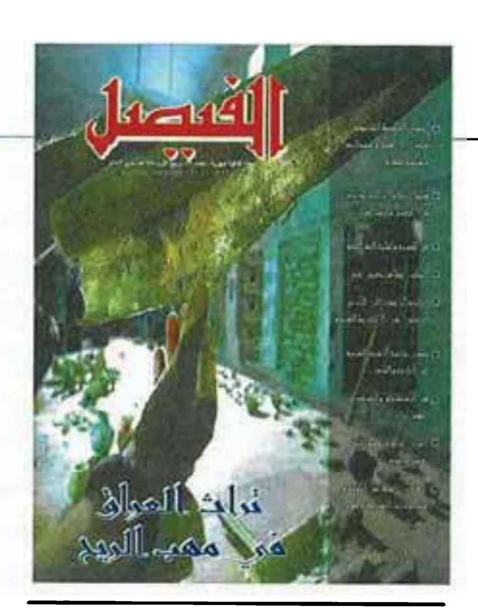
حقيقة كبرى من حقائق الخلق وإبداع الخالق سبحانه ومما استأثر به.. تلك الحقيقة هي الإنجاب للبنين والبنات والعقم، وتوزيع ذلك بين الناس لحكم قد لا يظهر لنا بعضها ولكن الحكمة في ذلك هي الابتلاء الذي يعقبه الثواب العظيم والأجر الجزيل أو العقاب والوزر، يقول تعالى: ﴿لله ملكُ السماواتِ والأرضِ يخلُقُ ما يشاءُ يَهَبُ لمن يشاءُ إناثًا ويَهَبُ لمن يشاءُ الذكور أو يزوجهم ذكرانًا وإناثًا ويجعل من يشاء عقيمًا إنه عليم قدير﴾ الشورى: ٤٩، ٥٠.

صور البنات في التراث العربي الجاهلي

كان المجتمع العربي في الجاهلية يخضع لنظام القبيلة، وللأبوة في هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر: ذلك لأن القبيلة في أصلها لا تعدو أن تكون فروعًا تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذي تنتمي إليه ثم بمضي الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة. وطبيعة هذا النظام تجعل شيخ القبيلة الذي هو في الواقع أبوها الكبير - ملكًا غير متوج - كما كان تكريم الآباء تقليدًا متبعًا. فالعرب يبدؤون تاريخهم الديني بقصة جدهم الذبيح الذي كاد يجود بالحياة طاعة لأبيه وتجنيبًا له من ذنب عصيان الخالق ثم يختمون تاريخهم الديني في الجاهلية بقصة بني عبدالمطلب الذين ما ترددوا في طاعته يوم أخبرهم بنذره ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة لو بلغوا عشرة بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قدرهم إلى الكعبة حيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ينتظرون أيهم يكون الذبيح (١). ونظام القبيلة الذي جعل للأبوة تلك المكانة في الجاهلية هو نفسه الذي جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الإنجاب ويباهون بكثرة الولد إذ كانت القوة والكثرة هما مناط العزة والمنعة وقوام الحياة في مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش. ومع تعلقهم بالبنين كرهوا أن تولد لهم أنثى وهي كراهة تتمثل في صور شتى أهونها الغيظ المكبوت أوالمعلن. وأقساها الواد (٢). وليس هناك دليل على كراهية عدد كبير من العرب الجاهليين للبنات أكثر من قوله تعالى: ﴿وَإذا بُشِّرَ أحَدُهُم بالأنثى ظلّ وجهُهُ مُسْوَدًا وهو كظيمٌ يَتَوَارى من القَوم من سُوءِ ما بُشِّرَ به أيُمْسِكُهُ على هون أم يَدُسُّهُ في التُّراب ألا ساءَ ما يَحْكُمُون﴾ النحل: ٥٨، ٥٩.

وقد بالغ بعض العرب في بغضهم للبنات عند ولادتهم إلى حد الواد، وهو أن يحفر للمولودة حفرة ثم يضع ابنته فيها ويهيل عليها التراب فيدفنها حية، وقد اختلف الباحثون في توضيح أسباب الواد فارجع بعضهم سبب الواد إلى شعور العرب في الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذي تجلبه بناته إذا كبرن وتعرضن للسبي (٣)، كما ورد في القرآن الكريم أن بعضهم كان يئد بناته خشية الفقر والإملاق، قال تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا أولادكم خَشْيَةَ إملاق نَحْنُ نرزُقُهُم وإيَّاكُم إن قَتْلَهم كان خطئًا كبيرًا﴾ الإسراء: ٣١، ﴿ولا تَقْتُلُوا أولادكم من إملاق نَحْنُ نرزُقُكُم وإيَّاهم﴾ الأنعام: ١٥١، ويرى المفسرون أن تقديم رزق الآباء على الأبناء في الآية الثانية يتضمن توقع الفقر والخوف منه، والآية يقصد بها الآباء الأغنياء، أما تقديم رزق الأبناء على الآباء في الآية الأولى فيشير إلى حدوث فقر، والمقصود بأولئك الآباء الفقراء منهم بالفعل(٤)، وقد أدى بغض البنات في العصر الجاهلي إلى تغلغل هذا السلوك الشائن في نفوس العرب حتى من لم يئد فكان الحزن يملأ قلبه.

ومن مأثور قولهم لمن رزق بأنثى (أمنكم الله عارها وكفاكم مؤونتها وصاهرتم القبر)، كما شاعت فيهم القول المأثور (دفن



البنات من المكرمات). ومع ذلك نرى أن وأد البنات في الجاهلية على كثرة ما جاء من أخباره عمل فردي رفضه أولو الألباب وحقروا مقترفيه (٤). فقد كان كثير من العرب يعطفون على بناتهم ويدللونهن ولعل ذلك يرجع إلى ضعفهن وحنوهن على آبائهن. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن معن بن أوس الشاعر كان مئناثا (تولد له البنات فقط) وكانت له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن وكان يرى البنات أكثر وفاء على الآباء من الصبيان فيقول:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن . لا تكذب . نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح (٦)

وفي تاريخ العرب الجاهلي وجد أناس كانوا يسعون إلى منع الوأد وذلك بشراء الموؤودة مثل صعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق الشاعر. أنقذ ثمانين ومئتي موؤودة اشترى كل منها بناقتين عشراوين وجمل (٧). وكذلك حدثوا أن زيد بن عمر بن نفيل كان إذا سمع بفقيرهم يوند ابنته مضى إليه فقال: «لا تقتلها أنا أكفيك مؤونتها، فإذا كبرت عاد بها إلى أبيها فراجعه في أمرها وخيره بين استردادها أو بقائها حيث هي في كنف الذي استحياها. قال ابن إسحاق في السيرة «حدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو وعمر بن الخطاب وهو ابن عمه قالا لرسول الله أنستغفر لزيد؟ قال نعم فانه يبعث أمه وحدة» (٨). ومن مظاهر إعزاز الآباء لبناتهم في الجاهلية على الرغم من أخبار الوأد المنتشرة وكراهة البنت أن كان بعضهم يكنى بأسماء بناته فكان ربيعة بن رباح والد زهير الشاعر يكنى بأبي سلمى (٩). والنابغة الذبياني كان يكنى بأبي أمامة (١٠). وحاتم الطائي أبي سفانة. ومن ذلك أن رجلا يدعى أبا حمزة الضبي وضعت له زوجته أنثى فهجرها وأخذ يبيت عند جيرانه فمر بخبائها يومًا فسمعها تقول لابنتها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما قد زرعوه فينا

فأسف الرجل عند سماع ذلك وأقبل إلى زوجته وصالحها بأن قبّل رأسها ورأس ابنتها وقال «ظلمتكما ورب الكعبة» (١١). وكثير من عرب الجاهلية لم يكن يرجو لابنته إلا أن تنمو فتصير جارية حسناء طيبة الريح عذبة الفم كريمة النفس والخلق ترضي زوجها. قال أحدهم وهو يرقّص ابنته:

كريمة يحبها أبوها مليحة العينين عذبًا فوها

لا تحسن السب وإن سبوها

وقال الزبير بن عبدالمطلب وهو يرقّص ابنته أم الحكم فشبهها بالظبي:

ياحبذا أم الحكم كأنها ريم أحم

يابعلها ماذا يشم ساهم فيها فسهم (١٢)

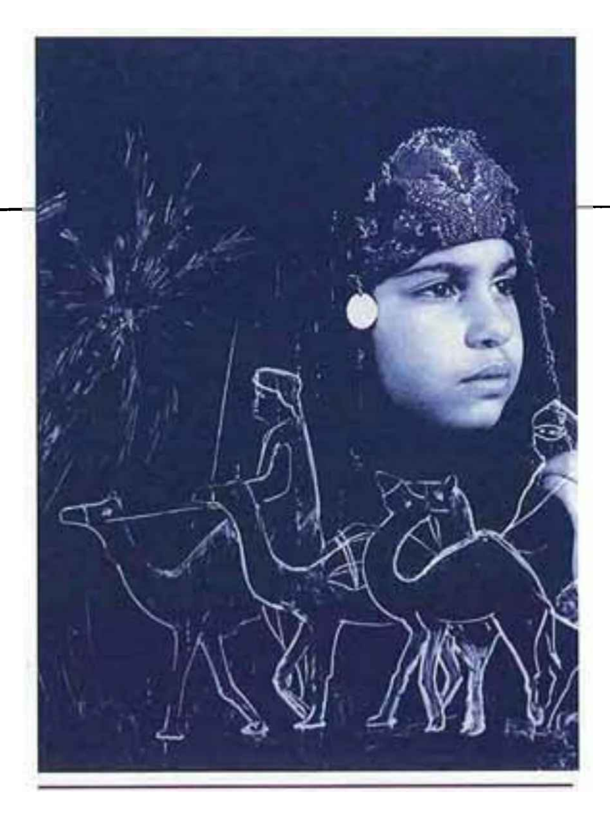
وقال عربي آخر في ابنته:

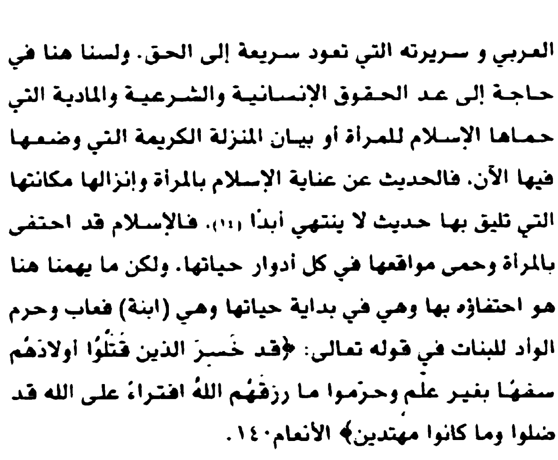
بنتي ريحانة أشمها فديت ابنتي وفدتني أمها (١٣)

وبعد أن رأينا في الجاهلية موقفًا سلبيًا من الأنثى ورأينا أنه على الرغم من هذه الجاهلية العربية إلا أنه كان هناك الكثير من أولي الألباب رفضوا ذلك وحقروا مقترفيه. يجب أن نرى كيف غيّر الإسلام هذه المفاهيم وعدّها ضيق أفق وادعاء وتطاولاً على الخالق الأعظم واهب النعم.

صور البنات في التراث الإسلامي

لتغيير المفاهيم والعادات لدى شعب من الشعوب نرى الإعلاميين في العصر الحديث يقومون بترتيب خطة حاشدة على مدار عدة أعوام (تمتد في أغلبها إلى عقود) يتبارى فيها المعدون والمنفذون والآلة الحديثة على تغيير المفاهيم. وأغلب نسب النجاح المتوقع لهذا التغيير على الرغم من هذا لا تتعدى نسبة الثلاثين بالمئة. أما أن نرى تغيرًا جذريًا حقيقيًا في المفاهيم والمعتقدات عند عرب الجاهلية في زمن لا يتعدى بضع سنوات مع أن هذه المفاهيم والمعتقدات إرث وبنجاح مئة بالمئة. فإن ذلك إنما يدل على أن الدين الإسلامي جاء بما يصلح حياة الناس ومناهجهم. ويدل ذلك على نقاء فطرة





العربي و سريرته التي تعود سريعة إلى الحق. ولسنا هنا في حاجة إلى عد الحقوق الإنسانية والشرعية والمادية التي حماها الإسلام للمرأة أو بيان المنزلة الكريمة التي وضعها فيها الأن. فالحديث عن عناية الإسلام بالمرأة وإنزالها مكانتها التي تليق بها حديث لا ينتهي أبدًا (١٤). فالإسلام قد احتفى بالمرأة وحمى مواقعها في كل أدوار حياتها. ولكن ما يهمنا هنا هو احتفاؤه بها وهي في بداية حياتها وهي (ابنة) فعاب وحرم الوأد للبنات في قوله تعالى: ﴿قد خسرَ الذين قتلُوا أولادَهُم سفهًا بغير علم وحرّموا ما رزقهُم اللهُ افتراءً على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ الأنعام:١٤٠.

والقرآن الكريم دستور الإسلام في خبرته الفذة بطبيعة البشر وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات لم يرج من القوم أول الأمر أن يقهروا في مشاعرهم نوازع الوراثة العاطفية لكنه كذلك في تساميه بالإنسانية لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضا بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية فتتابعت أياته الكريمة حاثة على اتقاء الله فيهن حاضة على إنصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطباع والأوضاع (١٥).

﴿وإذا الموؤدة سُئلت بأي ذنب قُتلت﴾ التكوير:٨ ، ٩. ﴿ولا تقتُلوا أولادكُم خشيةَ إملاق نحن نرزقُهم وإياكم إن قتلهُم كان خطئًا كبيرًا﴾ الإسراء: ٣١. ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرّم ربُكم عليكم ألا تُشركُوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتُلوا أولادكُم من إملاق نحنُ نرزقُكُم وإياهُم ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهَرَ منها وما بطنَ ولا تقتُلوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلا بالحق ذلكم وصاكُم به لعلكم تعقلون﴾ الأنعام: ١٥١.

صور البنات في السنة المطهرة

ثم كانت السنة النبوية الكريمة توضح مكانة البنت وعظم فضلها وفضل تربيتها. فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسخ ذلك في أذهان المسلمين قولاً وعملاً. ومن ذلك أن قيس بن عاصم المنقري كان يتحدث بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وعن ضحاياه من الموؤودات وانه ذهب باثنتي عشرة منهن. فقال عليه الصلاة والسلام «من لا يرحم لا يرحم». وأمره أن يعتق بكل واحدة جارية مؤمنة (١٦). وقالت عائشة رضي الله عنها جاءتني امرأة معها ابنتاها تسالني فلم أجد غير تمرة واحدة فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت فدخل النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال: «من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له سترًا من النار» رواه البخاري حديث ١٠١. وقال صلى الله عليه وسلم عن ابنته فاطمة رضي الله عنها (فاطمة بضعة مني يسوؤني ما يسوؤها ويسرني ما يسرها). وحدث البخاري عن أبي قتادة قال خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها. البخاري الجزء الثالث ص ١٣٧. بل أكثر من ذلك بأن جعل البنات سببًا في إدخال الوالد الجنة بإذن الله تعالى وذلك لحديث سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يكون لأحدكم ثلاث بنات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة». وحديث عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم «من ابتلي بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجابًا من النار» رواه الترمذي.

الرسول القدوة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم الإعلان عن حبه لبناته وبنات المسلمين فهو أب لأربع بنات واب للمسلمين جميعًا فكانت معاملة النبي للإناث خاصة على قرب العهد بالجاهلية فوق الذي طمعن فيه من عزة وكرامة ومروءة. وما من ريب في أن البيئة كانت محتاجة إلى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة في شخص الرسول الكريم لتقاوم ما ألفته في معاملة البنات. قال النبي صلى الله عليه وسلم لما بشر بفاطمة (ريحانة أشمها ورزقها على الله). وعلى هديه صلى الله عليه وسلم سار الصحابة والتابعون والمسلمون. فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة. ولا

جهادًا لحاجتهن إليه وشغله بهن والعناية بتربيتهن. ثم أصبح العرب في ظل الإسلام يقولون (من يمن المرأة أن تلد الأنثى قبل الذكر لأن الله تعالى بدأ بالإناث) فقال تعالى: ﴿يهبُ لمن يشاءُ إناثًا ويهبُ لمن يشاءُ الذكور﴾ الشورى: ٤٩. ورأوا البنات نسمات عليلة يخففن وهج الحياة في صغرهن وهن الحانيات في الكبر، والمستجيبات لكل همسة، المطيعات لكل إشارة، وهن بلطفهن وطيب نفوسهن تفاحة القلب، كما قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن ابنته عائشة (١٧).

صور البنات في الشعر العربي والإسلامي

جسد شعر الأدباء المسلمين في بناتهم صفات الحب ونقاء السريرة وتعانق الود والتآلف، وحمل الشعر لنا بهجة الآباء ببناتهم زمن الولادة، وفاض بالسعادة الغامرة واصفًا المداعبة والملاعبة والتآلف بالأنس في المحادثة والمجالسة ومجاذبة الحوار، كما روعنا الشعراء بمآسي البنات في أمراضهن وغربتهن، كما احتل رثاء البنات جانبًا مهمًا من جوانب الشعر حتى إننا لم نر شعرًا يحمل حزنًا أصدق إحساسًا من لوعة الشعراء على بناتهم (١٨) ورأى الشعراء ولادة البنت في مستهل الحياة الزوجية أمرًا موحيًا بالخير والبركة، فخير النساء من بكرت بأنثى، فهي تخدم أسرتها وتنشر المرح والمداعبات وتجمع شمل العائلة ويتعلق بها قلب الأب ويكنى بها فتحتل مكانة كبيرة في قلوبهم. وفي الحقل الدلالي انبرى الشعراء يهتفون ابتهاجًا بولادة بناتهم:

أشرقي كالبدر نورًا وسناء ... املئي الدنيا جمالاً ورواء

جل من سواك حسنا وبهاء ... ثم زان الحسن طهرًا وحياء

ومن جميل ما نحب ذكره في ختام هذا الموضوع دراسة لفريق من الأطباء الفنلنديين المتخصصين في علوم البيولوجيا بجامعة توركو فحواها أن أم البنات عمرها أطول لأن الهرمون الأنثوي الذي يفرزه الجنين الأنثى داخل رحم الأم يضيف إليها قوة ومناعة أكثر مما يضيف إليها هرمون. التستسيرون. الذكري الذي يفرزه الجنين الذكر وهو يقلل من فاعلية جهاز المناعة لدى الأم ويجعلها بالضرورة أكثر عرضة للأمراض، فهنيئًا لأم البنات.

صلاح عبدالستار محمد الشهاوي
طنطا . مصر

المراجع والهوامش

١. د. بنت الشاطئ، بنات النبي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص ١٦.
٢- المصدر السابق، ٢٨.
٣- د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، الهيئة المصرية لقصور الثقافة، ص ٢١٢.
٤- ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن الكريم، الجزء الثاني، ص ١٨٨.
٥- الشيخ محمد الغزالي، قضايا المرأة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩م، ص ٦٢.
٦- ابو الفرج الأصفهاني، الأغاني، الجزء العاشر، ص ٣٤٧.
٧- النويري، نهاية الأرب، ج٣، ص ١٣٧.
٨- د. بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص٣٣.
٩- الأغاني، ج٩، ص٢٩٤.
١٠- الأغاني، ج٩، ص ٣٢٩.
١١- الجاحظ، البيان والتبين، ج١، ص١٦٣.
١٢- د. حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص ٦٤، ٦٥.
١٣- صالح بن إبراهيم الحسن، إليك يا إبراهيم في مهدك، المجلة العربية، رجب ١٤٢١هـ ص ٥٩.
١٤- الشيخ حسن بن عبدالله آل شيخ، المرأة كيف عاملها الإسلام، كتيب المجلة العربية ٤٠، ص ١٧.
١٥- د. بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص٤٣.
١٦- الشيخ حسن آل الشيخ، مصدر سابق، ص ١٨.
١٧- صالح بن إبراهيم الحسن، مصدر سابق ص ٥٩.
١٨- شيخة عبدالله الروسي، إيقاعات صورة البنات في شعر الآباء، المجلة العربية ٢١٤ص٨٠.



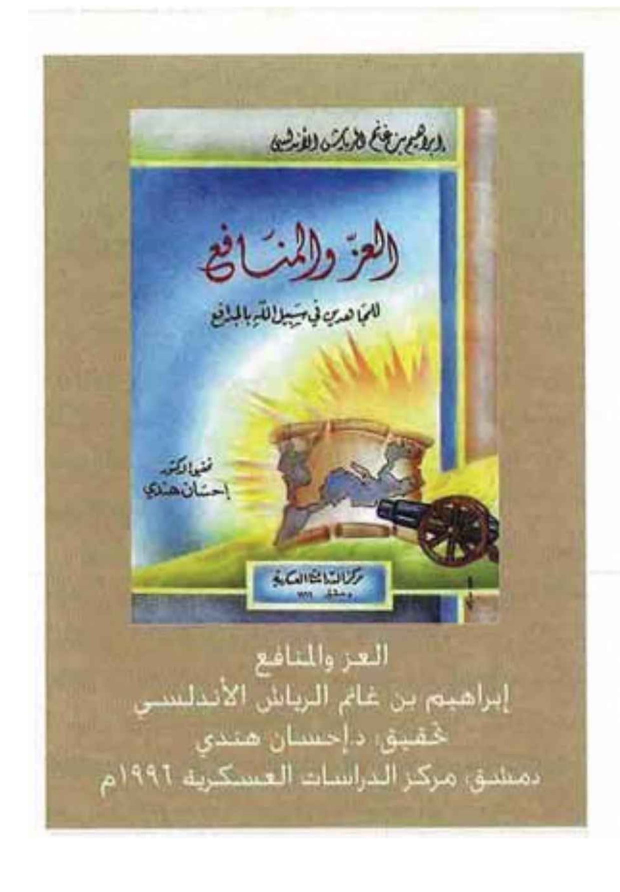


العز والمنافع

للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع

لطف الله قاري

ينبع الصناعية - السعودية



العز والمنافع
إبراهيم بن غانم الرباش الأندلسي
تحقيق د.إحسان هندي
دمشق، مركز الدراسات العسكرية ١٩٩٦م

التراث العسكري عند العرب والمسلمين يضم مئات الكتب، طبع بعضها، والبعض ما زال مخطوطاً. وهي تحمل في طياتها الكثير من الفوائد التي يستفاد منها في أكثر من مجال. ففي ميدان تاريخ التقانة (التكنولوجيا) تقدّم لنا هذه الكتب الكثير من المباحث حول الآلات الميكانيكية والتقانة الكيميائية وطرائق سبك المعادن، وتوضّح لنا سبق العرب والمسلمين في كثير من المبتكرات. وفي مجال الدراسات العسكرية نجد الكثير منها يتحدث عن الخطط والتكتيكات العسكرية. وفي موضوع التطبيقات العملية لحياتنا المعاصرة نجد أن دراسة بعض الآلات تؤدي إلى فهم آلات أخرى، فالمدفع مثلا مقدمة لآلات الدفع الحديثة مثل الصاروخ. وفي مجال اللغة تحتوي هذه الكتب على ثروة نفيسة من المصطلحات العلمية التي لا غنى عنها لاستنباط مصطلحات اليوم.

ومن هنا تأتي أهمية الكتاب الذي نحن بصدده. وهو من تأليف الريس إبراهيم بن غانم الأندلسي الذي ولد نحو سنة ٩٧٨هـ/١٥٧٠م وعاش تحت حكم الكاثوليك الإسبان الذين كانوا قد استولوا على آخر معاقل العرب في غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. وقام بعدة سفرات بين إشبيلية وأمريكا الجنوبية. وكان خلال عمله بالسفن المسلحة يدرس آلات البارود والمدافع فأتقنها. ووقع في السجن لاكتشاف أمر إسلامه أو كونه مورسكيا (وهو الاسم الذي يطلق على من بقي في إسبانيا من المسلمين بعد سقوط غرناطة)، ولكنه خرج من السجن بواسطة أصدقاء له. ثم غادر بلاده باستعمال الرشوة، وذهب إلى تونس، فصار قائد أسطول يغزو بلاد الإسبان. فجرح خلال ذلك وأسر، وسجن سبع سنوات. وبعد فك أسره تولى قيادة قلعة حلق الواد التونسية، لخبرته في المدفعية.وفي سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م ألّف كتابا متقنا في المدفعية، وذلك بالإسبانية التي لم يكن يجيد القراءة والكتابة بغيرها. ثم تم تعريب هذا الكتاب سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م من قبل أحمد بن قاسم الحجري.

اشتملت الطبعة على مقدمة حول المخطوط ومؤلفه، والعلوم العسكرية والبارود عند العرب. وأورد المحقق ضمن فصول المقدمة فصلا عن أنواع المدافع حسب تصنيف المؤلف لها. وبعد النص المحقق نجد فهارس للأشكال والمصطلحات والأعلام والكلمات الأعجمية، وثبتاً بأهم المخطوطات العسكرية التراثية، وآخر لمراجع التحقيق.

يشتمل النص المحقق على باب تمهيدي، ثم ذكر الآلات البارودية، ومكونات المعادن التي تصنع منها، وأنواع المدافع وكيفية صنعها وإتقانها وما يتعارض مع جودة العمل. ويشمل ذلك كيفية تصميم الأجزاء المختلفة على الورق وقص الورق المفصل ليكون نموذجًا للصانع. ومن التفاصيل الفنية كيفية إجراء الحسابات الدقيقة لإصابة الهدف، وذكر الأشياء التي تمنع من إصابته، وكيفية تصميم عربات المدافع الخشبية وعجلاتها، وغير ذلك من التفاصيل الفنية الدقيقة لكل نوع من أنواع المدافع الكثيرة.

وهناك فصول للحيل الحربية المتصلة بالمدفع، مثل عمل السلال التي يستتر بها رجال المدفع و«كيف يعرف من كانوا محصورين عمّن أحصرهم هل هو يحفر غارا تحت الأرض ليطيّرهم في الهواء»، وكيفية عمل الجسور في الأودية لعبور الآلات الثقيلة بالعربات، وفصول عن البارود وكيفية إتقان صنعه. وخصصت فصول لما يحتاج إليه رجال المدفع من آلات صغيرة نسبيًا للتشغيل والصيانة، مثل إبر كبيرة لتسليك فتحات المدفع ومساطر للتصميم بالورق ومسامير احتياطية لإصلاح العربات. ويوصي المؤلف بأن يكون لدى كبير رجال المدفع زمام (أي قائمة) بكل ما يحتاج إليه من الأشياء الكثيرة التي ورد ذكرها في الكتاب.

فنستنتج من هذا الاستعراض السريع أن المؤلف كان متبحرًا في مجاله. والأهم من ذلك هو حرصه على تقديم عمل متقن شامل دقيق يحتوي على كل التفاصيل الدقيقة. فلم يفته مثلا أن ينبه على إعداد قائمة بالأدوات وأن يبحث في الحيل الحربية المتصلة بحروب المدافع. فهو في كتابه يعطي درسًا لمؤلفي هذا العصر حول جودة العمل وإتقانه وعدم التسرع في التأليف والسطحية في المحتوى.

ملاحظات على التحقيق

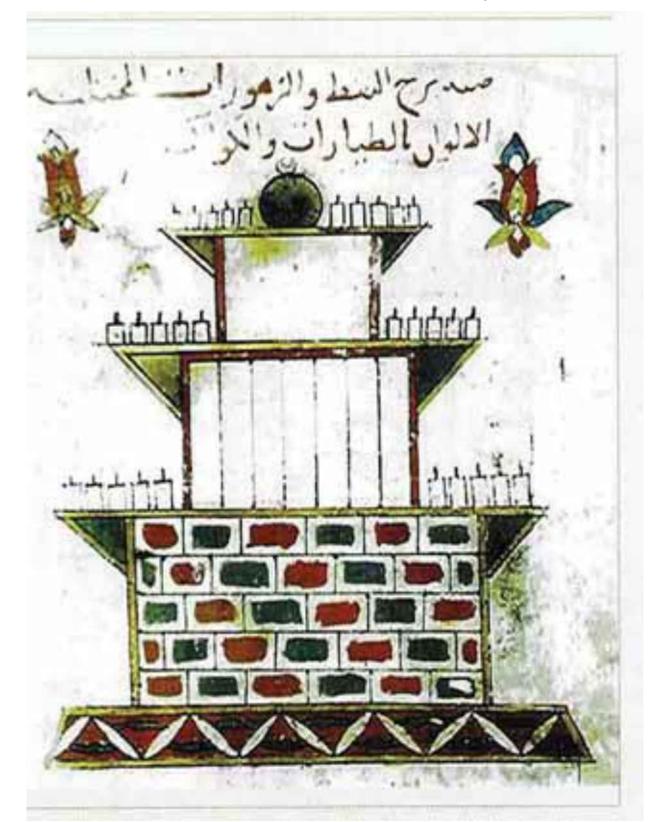
كثير من أعمال التحقيق في بلداننا العربية لا تخضع للتقويم والمراجعة، ومن ثم لا تخلو من الأخطاء. والتغاضي عن العيوب من أجل مجاملة المحققين الكبار أو بحجة تشجيع الباحثين الشباب يؤدي إلى المزيد من الأخطاء. بينما النقد يؤدي دورًا مهمًا في تصحيح المسيرة وتحسين الإنتاج. وحتى عندما يكون العمل جيدًا فالجهد البشري لا يخلو من نقص كبير أو صغير. ومن ثم فإن أي كتاب أو مقال جدير بالقراءة هو أيضًا جدير بالمراجعة والنقد. والملاحظات التي يبديها المراجعون لا تنفي بأي حال الجهد القيم المشكور الذي قام به المؤلف الباحث. وإنما الهدف من المراجعة هو الهدف نفسه الذي توخاه المؤلف: أي خدمة العلم في المجال الذي كتب فيه، وإبداء اقتراحات تزيد من نفاسته عند اعتمادها فيما بعد عند إعادة نشر الكتاب. فإبداؤنا الملاحظات حول كتاب لا يقلل من قيمة العمل. لأن العمل البشري لا يخلو كما قلنا من نقص صغير أو كبير.

أول ملاحظة على الطبعة هي عدم وضوح الأشكال المرسومة. فعلى الرغم من أن الأشكال في المخطوطات الأصلية رسمت بشكل بديع بالألوان، بحيث تعدّ كل واحدة منها عملاً فنيًا رائعًا، إلا أننا نجد بدلا منها في الكتاب المطبوع صوراً باهتة مشوهة صغيرة الحجم بالأبيض والأسود، بحيث فقدت تفاصيلها والاستفادة منها. والصورة كما يقال تغني عن ألف كلمة، وخاصة في الكتاب العلمي.

وقد يقال إن الصور الملونة يلزمها أن يسافر مصوّر محترف إلى أكثر من مكتبة وطنية، وبعد جمع الصور المتقنة تبقى تكاليف الطباعة عائقًا دون نشر الكتاب. وهنا نتساءل: ما العائق من إعادة رسم الأشكال من قبل رسام محترف لتطبع بالأبيض والأسود ولكن بشكل واضح؟ في مراجعتنا هذه نعرض نموذجين لرسومات حديثة هي عبارة عن إعادة رسم للوحات المخطوطات التراثية. ولا يتقيّد المحقق بمناهج التحقيق المعتمدة من قبل المجامع العربية. فلا يوضّح أرقام أوراق المخطوطة على الصفحات المطبوعة، ولا نجد موازنة نصوص النسخ المختلفة في أغلب الصفحات.

ويعتمد المحقق على بعض المراجع الحديثة. ولكن بعض المراجع الأساسية التي لا يمكن إغفالها في موضوع الكتاب لا نجد لها ذكرًا، منها موسوعة «مصادر التراث العسكري عند العرب» لكوركيس عواد (١)، مع أنها أهم مرجع في هذا المجال، حيث تحتوي على نحو ثمانية آلاف مادة. وهناك دراسات مهمة نشرت حول الكتاب عندما كان مخطوطًا، ولا نجد لها ذكرًا في هذه الطبعة. ومنها بحث للمنوني (٢)، وآخر لعنان(٣)، وثالث للتركي (٤).

وفي صفحة ٣٠ يقول الناشر: «وقد وضعها بالإسبانية كي لا ينكشف أمره، لأنه وجد في مرحلة تفكك الأندلس».



لوحة ملونة من مخطوطة باريس لكتاب «الفروسية والمناصب الحربية» لنجم الدين الرماح، نشرت كما هي في طبعة حلب عام ١٩٨٠م.

والصواب أن المؤلف عاش بعد قرن كامل من سقوط آخر معاقل الأندلس كما أسلفنا، وكان المورسكيون الأندلسيون أجبروا - ضمن القمع الذي طبّق عليهم - على عدم التحدث بالعربية. فنسيت الأجيال لغة المغلوب، وغلبت عليهم لغة الغالب. فالمؤلف لم يكن يجيد غير الإسبانية تحدثًا وكتابة.

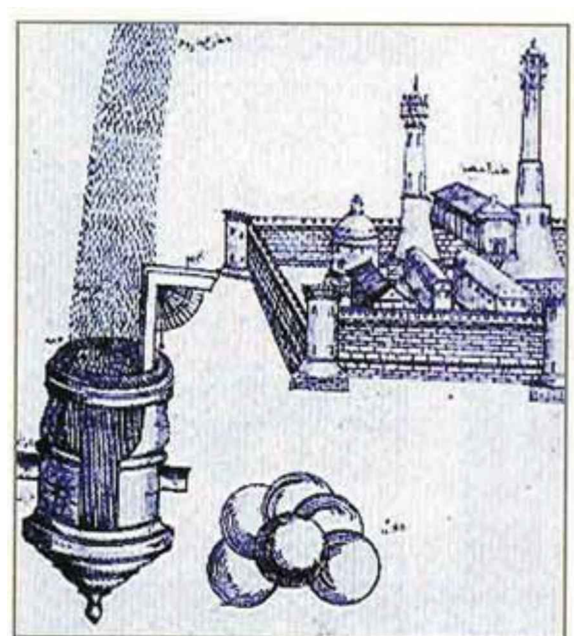
وفي صفحة «١٣» يقول المحقق: «لقد تمكنا بعد جهد دام أكثر من عشر سنوات من حصر سبع نسخ لمخطوطة العز والمنافع...». وفي حاشية صفحة «١٥» يذكر نسختين أخريين نقلا عن مصادر لم يحددها. والواقع أن هذه نتيجة جهد فردي دام أكثر من عشر سنوات. ولو اطلع المحقق على ما كتبه كوركيس عواد حول الكتاب لعرف أن منه خمس عشرة نسخة مخطوطة باقية (٥).

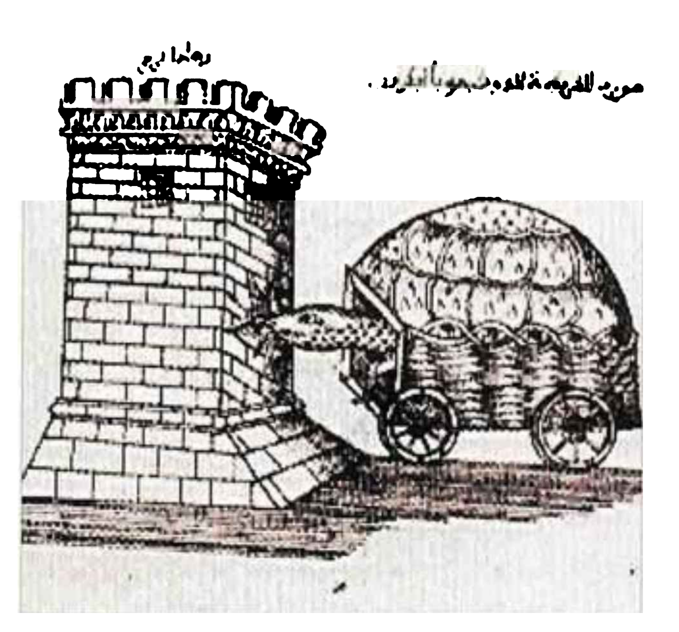
وفي صفحة «٢٠» يقول المحقق عن الحجري معرّب الكتاب: «ولا نعرف تاريخ ولادته بالضبط». والواقع أننا نستطيع استنتاج تاريخ ولادته مما ذكره هو في كتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين». فالنسخة المخطوطة التي وصلت إلينا من ذلك الكتاب كتبت بخط المؤلف في تونس سنة ١٠٥١هـ. وفيها يقول: إنه بلغ من العمر ٧٤ سنة قمرية. ومن ثم تكون ولادته سنة ٩٧٧هـ.

وفي صفحة «٢٠» أيضًا يقول المحقق حول كتاب «ناصر الدين» المذكور: «ولكن لم يُعرف مصير هذا المخطوط ومآله». والواقع أن منه نسخة مخطوطة في دار الكتب الوطنية بمصر. وقد اكتشفته مستشرقة إيطالية عام ١٩٦٦م، ونشرت بعض أبوابه بالتصوير مع ترجمة إيطالية. ثم نشر محققًا في المغرب عام ١٩٨٧م (٦). كما نشر محققًا مترجمًا إلى الإنجليزية في مدريد عام ١٩٩٧م، وقد اعتمد محققو طبعة مدريد على نسخة أخرى ناقصة محفوظة في باريس.

وفي صفحة «٢١» نقرأ: «وخلال عودته (يقصد الحجري معرّب الكتاب) من رحلة الحج مرّ في مصر، حيث تعرّف هناك إلى الفقيه أبي الحسن الأبجوري». وفي هامش الصفحة يقول المحقق: «أصل اسمه (الأباجوري) ثم تحوّل هذا الاسم إلى (الباجوري)». ولا يذكر لنا أي مصدر لهذه الأسماء الثلاثة المختلفة. والصواب هو: الفقيه علي بن محمد الأجهوري، ترجم له الزركلي في «الأعلام» مع ذكر مصادر ترجمته.

وفي صفحة «٢٢» نقرأ: «وهذا ما يدل على أن الشهاب الحجري بقي في تونس طيلة المدة التي استغرقتها عملية الترجمة، وهي أربع سنوات». والواقع أنه ظل في تونس بقية حياته على الأرجح. فهو يذكر في مؤلفاته الكثير من الحوادث التي وقعت له في تونس منذ عودته من الحج سنة ١٠٤٧هـ. ومنها أن ابنه المقيم في تستور (بتونس) قام مع زوجته بزيارة والده -أي مؤلفنا- سنة ١٠٥٠هـ. فيبدو من هذه التواريخ أن المؤلف استقر مع عائلته في تونس منذ عودته من الحج، وتوفي بها بعد سنة ١٠٥١هـ/١٦٤١م. ففي الفترة التي غادر فيها المغرب كانت الفوضى السياسية تزداد يومًا بعد يوم، وتزداد الهوة بين الأندلسيين المهاجرين والحكام السعديين الذين دب الانشقاق في صفوفهم وصار الإخوة يتقاتلون مع بعضهم. بينما تونس كانت أحسن ملاذ آمن لجالية مورسكية كبيرة استوطنتها (٧).





لوحتان من نسخة الخزانة العامة بالرباط من كتاب المدافع، نقلا عن بحث عنان المذكور في المراجع

وفي صفحة ٢٩، يذكر المحقق اسم «عطارد بن الحسيب» نقلا عن مصدر غربي. والصواب هو «عطارد بن محمد» الملقب بالحاسب.

وفي صفحة ٣١٠، يذكر المحقق مخطوطة «الأدلة الرسمية في التعابي الحربية» لمحمد بن منكلي، وأن منها نسخة مصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي بحلب. والواقع أن هذا الكتاب مطبوع (٨).

وفي صفحة ٥١٣، يذكر المحقق أنه نشر بحثا عنوانه «محاولة حصر ببليوغرافية للتأليف الحربية عند العرب» في مجلة معهد التراث العلمي العربي بحلب عام ١٩٧٨م. ولكننا لا نجد هذا البحث في مجلة «تاريخ العلوم العربية» الصادرة من المعهد المذكور. وبعد تفتيش وتنقيب وجدنا البحث ضمن كتاب «أبحاث المؤتمر الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم» الصادر من قبل المعهد المذكور عام ١٩٧٩م.

المراجع والهوامش

١- عواد، كوركيس: مصادر التراث العسكري عند العرب، ٣ج، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٩٨١، ١٩٨٢م.

٢- المنوني، محمد: «ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلدان ١١ و١٢ (١٩٦٣ - ١٩٦٤م)، ص ٣٢٩ - ٣٥٨، ونشر مع بعض الإضافات في مجلة «دعوة الحق»، السنة ١٠، العدد ٣ (يناير ١٩٦٧م)، ص ٧٤ - ٩١.

٣- عنان، محمد عبد الله: «من تراث الأدب الأندلسي الموريسكي»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ١٦ (١٩٧١م)، ص ١١ - ٢٠.

٤- التركي، عبد المجيد: «وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس»، حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع (١٩٦٧)، ص ٢٣ - ٨٢، وأعيد نشره في كتابه «قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي»، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ص ٨١ - ١٦٧.

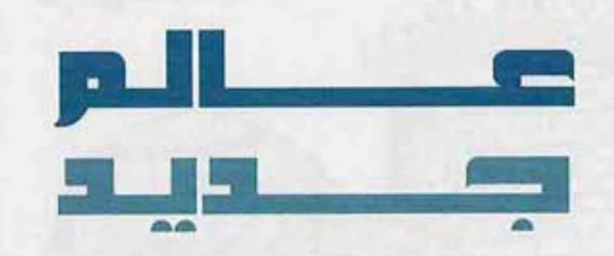
٥- عواد، المرجع السابق، رقم ٢٥١٤.

٦- قاري، لطف الله: «ثقافة الموريسكيين العلمية من خلال كتاب الحجري»، مجلة «الفيصل»، العدد ٢٩٦، صفر ١٤٢٢هـ أبريل - مايو ٢٠٠١م، ص ١٠٠ - ١١٢.

٧- قاري، المرجع السابق.

٨- ابن منكلي، محمد: «الأدلة الرسمية في التعابي الحربية»، تحقيق محمود شيت خطاب، بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م

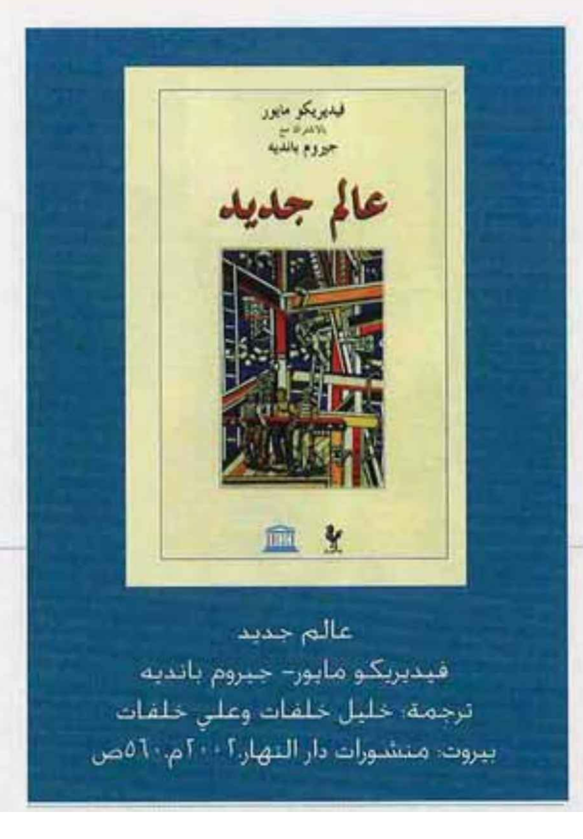




عالم جديد

محمد حيان الحافظ

الرياض - السعودية



عالم جديد
فيديريكو مايور- جيروم بانديه
ترجمة: خليل خلفات وعلي خلفات
بيروت: منشورات دار النهار ٢٠٠٢م. ٥٦٠ص

مما لا شك فيه أن العلم والثقافة والتقنية والحضارة هي أبعاد ملازمة للإنسان دون سواه من المخلوقات. ولقد نشأت هذه الأبعاد وتقدمت كلها بالتطور خلال العصور المتلاحقة حتى وصلت إليها في العصر الحاضر، فاستطاع الإنسان أن يتقدم ويحسن أوضاع حياته ويعدلها ويبدلها حتى نجح في صنع مناخ من الحرية والترف والرفاهية لنفسه وحقق نوعًا من التكيف الإيجابي وحوّل معطيات العالم الخارجية إلى وسائل ليستعملها ويستفيد منها في حياته وثقافته وهواياته وسائر أعماله وأنشطته الفردية والاجتماعية. كما أن الثقافة المتطورة باستمرار قد رفعته عالياً في سلم الحضارة. من هنا بدأت تظهر بوادر عالم جديد أو ما سمي بالنظام الدولي الجديد. وهنا نقول: هل يكون العلم أساساً للتشاؤم والقلق واليأس وفقدان الشعور بالأمن والأمان، ومن ثم يكون سبباً في غياب الولاء والانتماء وزيادة البغض والكراهية والعدوان؟ أو أن عملية التربية يمكن أن تطرح آمالا جديدة وتفتح آفاقًا للمستقبل.

يتألف هذا الكتاب الذي أعده فيديريكو مايور وجيروم بانديه وبمساعدة جان إيف لوسو ورانيار غيدماندسون، وفريق مكتب التحليل والتوقع في اليونسكو، والذي يقع في ٥٥١ صفحة، من أربعة فصول هي عقود تسير فيها الإنسانية نحو مستقبل واعد. وفي الخاتمة ذكر المؤلفون أخلاق المستقبل التي يجب أن نكون عليها. يهدف الكتاب على وجه الدقة إلى إعدادنا بصورة أفضل للعقود المقبلة، وللاستجابة في الوقت المناسب لتحديات المستقبل. ذلك أن الغد سيأتي دائمًا بعد فوات الأوان.

فقد أدى انقلابان طويلا الأمد إلى التغيير العميق لنظرتنا إلى العالم ولبنية مجتمعاتنا وهما:

- الثورة العلمية لعصرنا، التي نقلتنا من عصر يقين وعقائدية إلى محيط من الحيرة والشك، منذ عهد لا يزال قريباً، كان لدينا إيمان، بثقة ساذجة، وبقابلية التوقع لظواهر تحكمها قوانين علم يقيني سائد. ومن الآن فصاعداً لا يمكن تشبيه القرن الحادي والعشرين بمتنزه مصمم على الطريقة الفرنسية بقدر ما يمكن تشبيهه بحديقة الممرات المتشعبة. غير أنه في الوقت نفسه، وأمام النماذج الجديدة التي تتمثل في التعقيد، والاتجاه الواحد، والعولمة، وعدم اليقين، فإن الحرية والإبداعية البشرية هما اللتان يبدو أنهما تعودان إلى واجهة المشهد.

- الثورة الصناعية الثالثة: التي تحول مجتمعاتنا تحولاً جذرياً. وهذا الانقلاب تم رده بتسرع شديد إلى العولمة، أو بالأحرى إلى احدث اطوارها. ولا شك في أن هذا كان يعني الخلط بين السبب والنتيجة. ذلك أن الثورة الصناعية الثالثة، المرتكزة على عصر المعلومات والإدخال المتسارع لتقنيات جديدة في مجالات الحياة كافة، هي التي تغير العالم الآن، وتضع منه عالمًا عالميًا. والحقيقة أن الثورة الصناعية الثالثة المستندة إلى الثورة السيبرنطيقية، ونظام الرموز، وهي ثورة الحاسبات الآلية إلى اليوم وثورة علم الوراثة غداً، تقوم بإخضاع مجتمع الإنتاج المادي لإمبراطورية جديدة، هي إمبراطورية علامات المجتمع المبرمج.

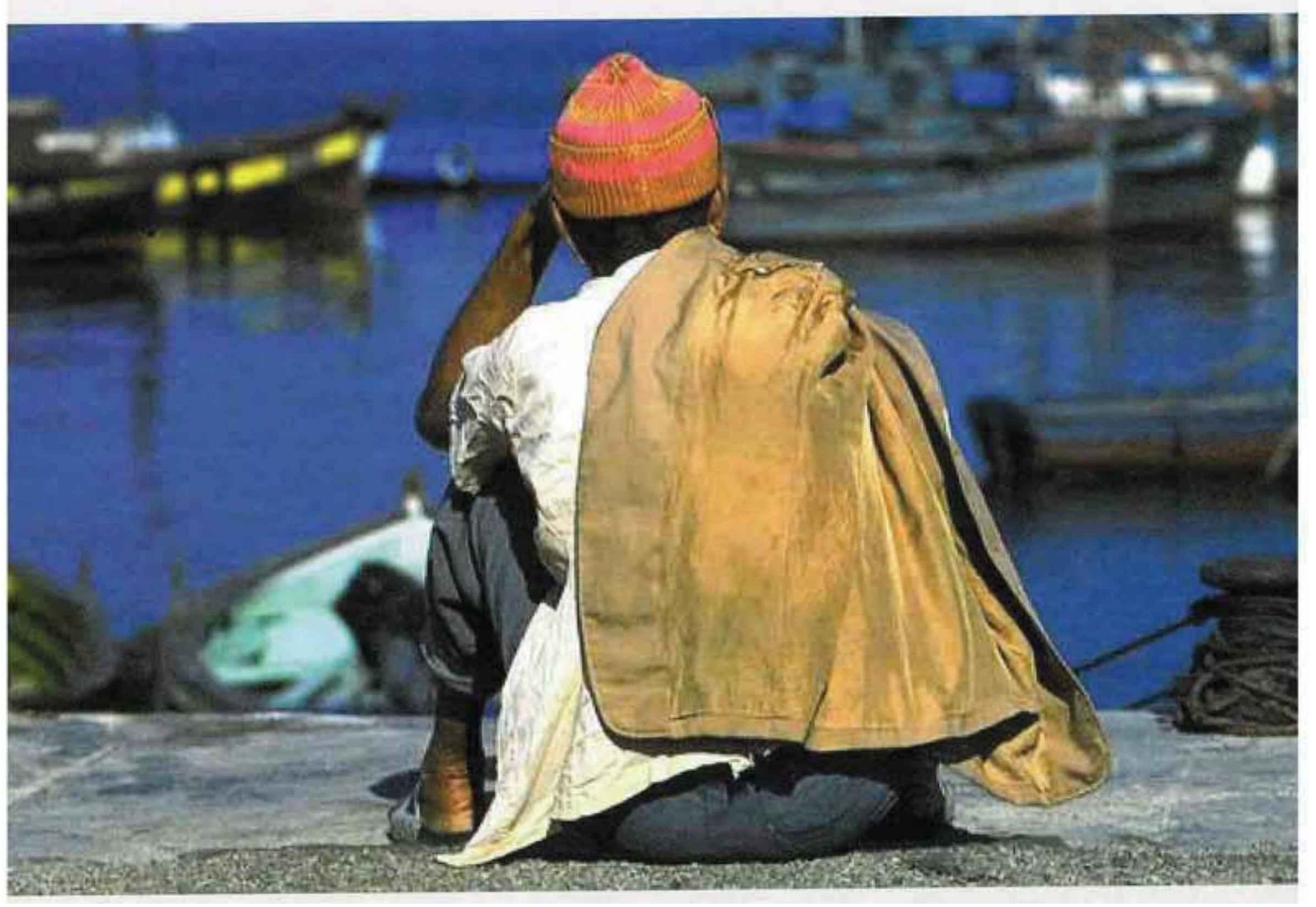
غير أن هذا ليس كل شيء. وكما يلاحظ أحد المؤلفين المشاركين في هذا العمل، هل نبقى سلبيين، في فجر القرن الحادي والعشرين، إزاء نشأة مجتمع لا معقول تقوم فيه الصلة الاجتماعية بصورة غريبة على تمزيق نفسها ؟ فهناك شبح يسكن العالم. ومن الآن فصاعداً يقوم عصر جديد من العزل والفصل بتفتيت المجتمع، والعمل، والأسرة، والمدرسة، والوطن. والواقع أن هذا المنطق، منطق التقسيمات التمييزية الانتقائية، والتجمعات المنغلقة، والانفصال والتفتت، يحرك الهوية القومية، وهيكل الأسرة، والمدرسة. كما أن المؤسسات تنهار وتعيد تأسيس نفسها وفقاً لحركة متسارعة. وتتشظى البلدان أو تغدو عرضة لقلاقل طاردة عن المركز تجردها من تركيبتها الإثنية المتنوعة. وفي اللحظة التي تتزعزع فيها ديناميات الثورة الصناعية الثالثة أغلب المؤسسات بعمق، تقوم موجة حضرنة لم يسبق لها نظير بإيقاع الإضراب في نظام المجتمعات، وبصورة خاصة في الجنوب حيث إنه، في غضون فترة جيل واحد، سوف تضطرب المجتمعات في عالم المدن العملاقة. غير أن المدينة ذاتها يعاد تشكيلها بصورة كاملة على أساس منطق العنصرية الحضرية، الذي شأنه في ذلك شأن العمليات الأخرى للتقسيم التمييزي الانتقائي، يقوم بالإقصاء في اللحظة ذاتها التي يقوم فيها بالانتقاء.

وهنا نلاحظ زيادة أمراض الروح في قلب المجتمعات الأكثر رخاء والفئات الاجتماعية التي يبدو أنها الأكثر حماية من الشقاء. ويبدو أن القلب ذاته صار فريسة خواء غريب، ويتفاقم عدم المبالاة والسلبية، وتمتد الصحراء الأخلاقية ذاتها، وتضعف قوة العاطفة والوجد، وتخبو النظرات، وتتحلل التضامنات، وتمتد المناطق الرمادية، وتتسلل المافيات إلى قلب الدول والأسواق المالية، وتسود شريعة الغاب، ويتفشى فقدان الذاكرة، ويبدو المستقبل غير مفهوم. ونشهد الطلاق بين الإسقاط والمشروع، وتغدو النظرة الطويلة الأجل فاقدة الاعتبار، ويفرض هاجس الأجل القصير، والوقتية، وطغيان العاجل الملح. ويبدو أن القرن الحادي والعشرين قد انتهى إلى الوقوع تحت ضغط حاضر من التقليب المتواصل، الذي يبدأ دائماً من جديد. وفي بعض الأحيان يسيطر علينا النفور. هل سيكون القرن الحادي والعشرون قرن الفراديس الوهمية، والجحيم الفعلي، والعنف، والأوبئة العامة الكبرى. وهل ستظل الطفولة معرضة للعنف ولوحشية الإفساد الافتراضي. وهل نستطيع تجنب الجريمة الكاملة. هذا الإحلال لعالم المحاكاة بالصور محل العالم الواقعي، وهو ما يخشى أن يكون قد حصل بالفعل ؟ وهل ينبغي أن يتم بسرعة إيداع القرن الحادي والعشرين مخزن فوائض التاريخ ؟ وهل ينبغي بيعه بثمن بخس في سوق البراغيث التي صارت في زوايا النسيان.

وفي مواجهة قوة الأقوياء، ترتدي الأهمية قوة واحدة، قوة الشعب. وإذا نجحنا في إعادة حق القول إلى الملايين من الصامتين، وأعطيناهم إمكاناً حقيقياً لممارسة حريتهم في الاعتقاد والتعبير، وإذا استعاد أولئك الذين صاروا اليوم بلا أصوات أصواتهم، سنشهد تحول اتجاه القرارات. وعندئذ فإن أولئك المحسوبين أو غير المحسوبين في التعددات، أو استطلاعات الرأي، أو الانتخابات، سوف يكتسبون حقاً أهميتهم في اللحظة التي يرسمون فيها مستقبلهم، ويتمثل أملنا في صوت الشعب، الديمقراطية. ليس الديمقراطية من أجل قلة، بل الديمقراطية للجميع.

هذا الكتاب

سوف تشكل أربعة عقود وهي ما يشكله هذا الكتاب أعمدة هذه الديمقراطية الدولية الجديدة، التي يطرح عالم جديد على نفسه استكشاف بعض منطلقاتها الملموسة، دون تظاهر بالاستنفاد. وسوف تعود اليونسكو، أو يعود غيرنا، إلى بعض المشكلات الرئيسة التي لم نستطع تناولها، أو التي لم نعالجها إلا بسطحية، مستقبل العمل في ضوء الثورة



أي مستقبل للغالبية الصامتة؟!

الصناعية الثالثة، أو مستقبل المحيطات، أو التهديد المتعدد الشكل للتلوث وبصورة خاصة التلوث غير المنظور والكيميائي، أو المشكلات البيولوجية الأخلاقية في مواجهة فتوحات العلم والصناعة، أو النهوج المستقبلية الخاصة بالتنمية. وكل هذه الموضوعات هي الآن أو ستكون في قلب التفكير لليونسكو. وإذا عبرنا عن معنى عند شكسبير بكلمات أخرى فإنه توجد في هذا العالم أشياء أكثر من أن يحتويها كتاب عالم جديد.

والحقيقة أن القرن الحادي والعشرين، إذا أراد أن يوطد تحالفًا جديدًا بين الأمم، وبين الشعوب، وبين المواطنين، من أجل منع العنف والحرب، فإنه يجب، في نظرنا، أن يستند إلى أربعة عقود وهي عقد اجتماعي، وعقد طبيعي، وعقد ثقافي، وعقد أخلاقي وكأساس للعقود الأربعة التي نطرحها لدخول القرن الحادي والعشرين، دون أن نعود القهقري بل بأعين مفتوحة.

نحو عقد اجتماعي

حاولنا أن نطرح الأسس الأولى لعقد اجتماعي جديد من أجل القرن الحادي والعشرين. وعندما نأخذ في

حسباننا التوقعات الديموغرافية والزيادة المستمرة في عدم المساواة، فإن الأولوية الأولى تتمثل في إعادة بناء التضامن عن طريق القضاء على الفقر والحد من الفوارق المخزية التي تؤدي إلى اليأس والحرمان. فما هي سياسات الأجل الطويل التي يجب تحديد معالمها الأولى دون إبطاء، إذا أردنا القضاء على الفقر، بما يتفق مع التعهد في قمة كوبنهاغن في شأن التنمية الاجتماعية؟ وكيف يمكن النضال ضد العنصرية، وكيف يمكن تغيير المدينة ومن ثم تغيير الحياة. وكيف يمكن السيطرة على الثورة الصناعية الثالثة وإضفاء الطابع الإنساني عليها قبل ان يفوت الأوان؟ وكيف يمكن إعادة توزيع عائدات العولمة، وكيف يمكن النضال ضد لا أخلاقية المخدرات والجريمة المنظمة اللتين تهددان مستقبل البشرية: لأن الشباب هو الذي يدفع الضريبة الأشد فداحة لهاتين الأفتين؟ وكيف يمكن إرساء أسس عقد اجتماعي جديد يقوم، ليس على إقصاء جزء متزايد من البشرية، بل على احترام أكبر لكرامة كل فرد ولطموحاته المشروعة؟ وكيف يمكن إعطاء النساء كل المكانة التي يملكن الحق في الحصول عليها، وإرساء التساوي والتكافؤ الفعليين في كل مجالات النشاط البشري؟ وبهذا الخصوص، يوجز عالم جديد بعض منطلقات التفكير والعمل، حتى تتم ترجمة هذا العقد الاجتماعي الجديد إلى التزامات فعلية، فيما وراء التعابير الطنانة القومية والدولية واختلافات وجهات النظر حول السياسة والاقتصاد.

نحو عقد طبيعي

والعقد الثاني الذي نقترح مجملا له في عالم جديد هو العقد الطبيعي، الذي يجب أن يقوم على تحالف العلم والتنمية والحفاظ على البيئة. فكيف يمكن أن توضع موضع التنفيذ بصورة ملموسة الالتزامات التي تم تبنيها في ريو في قمة الأرض وفي كيوتو، لمناسبة القمة الخاصة بالحد من انبعاثات غازات الدفيئة ؟ وكيف يمكن التوفيق بين الحفاظ على المحيط الحيوي وتنمية المحيط الاجتماعي ؟ وكيف يمكن المضي في ما وراء العقد الاجتماعي، المتفاوض عليه بين المعاصرين، من أجل التوصل إلى عقد طبيعي للتنمية المستديمة والتنمية المشتركة مع الأرض، التي تقوم على مفهوم أخلاق المستقبل وتوريثها للأجيال التي سوف تولد في المستقبل؟ وكيف يمكن السيطرة على السيطرة، وتحرير العلم من عقدته البروميثية المتمثلة في السيادة الطبيعية، وكيف يمكن تعبئة متخذي القرار والرأي العام من أجل إيجاد الحلول عن طريق التعاون والتفاوض للمشكلات التي تستدعي استجابات منسقة على المستوى الكوكبي والإقليمي. وكيف يمكن حل مشكلات التصحر وتحات التربة ؟ وكيف يمكن تفادي أن يصير القرن الحادي والعشرون قرن حروب المياه، كما كان القرن العشرون في أغلب الأحيان قرن حروب البترول؟ وما العمل من أجل إيجاد ما يكفي لإطعام الجميع ومن أجل أن يكون هذا الغذاء صحيًا وذا نوعية جيدة، وكيف يمكن تحقيق الأمن الغذائي من زاوية كمية مثلما هي صحية. وكيف يمكن السيطرة على ثورة البيوتكنولوجيات الزراعة ؟ وكيف يمكن السيطرة على الطاقة وتنوعها، والسير قدما نحو تلك الثورة الخاصة بالفعالية الإيكولوجية والتنموية التي نظر لها نادي روما في تقرير العامل الرابع. وكيف يمكن وضع التعليم والبحث في خدمة التنمية المستديمة. وما هي البنية الأساسية التي سيكون علينا أن نشيدها حتى تكون المدن ليس فقط قابلة للسكن والعيش، بل لكي تكون مستديمة. وما العمل لكي تكون الأرض من جديد زرقاء مثل برتقالة وفقًا للكلمة النبوئية للشاعر بول إيلوار. إننا نملك بيتًا ووطنًا مشتركين، ومن الآن فصاعدا يمثل تعلم الحفاظ عليهما وصداقتهما مع إدارة مواردهما بطريقة صحيحة وذكية ضرورة مطلقة. وكذلك أيضًا، يقدم عالم جديد بعض المنطلقات الملموسة للتفكير والعمل لكي يؤدي العقد الطبيعي إلى التزامات فعلية، تفاوضية، ومحددة بالأرقام، ومدرجة في جدول زمني، في ما وراء المجادلات والاختلافات الدولية في شأن هذه المسائل.

نحو عقد ثقافي

والعقد الثالث هو العقد الثقافي. ويرتبط هذا العقد بصورة لا تنفصم بالعقدين السابقين، وسيكون التعليم للجميع مدى الحياة أحد محاوره الأساسية. وهذا عمل ضخم، سيكون من الواجب أن يمثل المشروع الكبير للقرن الحادي والعشرين، ولن يكون من الممكن على الأرجح بلوغ افقه النهائي إلا مع اقتراب عام ٢١٠٠م. وسوف يتعين أن



لا يزال ٧٠٪ من سكان الكوكب يعيشون تحت نير الاضطهاد والحرمان

يمثل هذا الهدف أولوية الأولويات بالنسبة إلى الحكومات، ولكن أيضًا بالنسبة إلى المجتمع ككل، وإلى القطاع الخاص، وإلى فاعلي الاقتصاد الرابع الذي هو سبيله إلى التنظيم، ولكل مواطن لن ينتهي أبداً، مثل سقراط من تعلمه وتعلم تعلمه. غير أن هذا الأفق يظل بالضرورة بعيداً، حتى إذا كان تصوره المسبق ماثلاً الآن في قلب المجتمعات الصناعية، كما أن تعميمه سيكون مملوءًا بالعقبات والفخاخ. وعلاوة على هذا فإن الأمر لا يتعلق قط بحل سحري. والواقع أنه لن يكفي لتحقيقه تحرير الموارد التقنية والبشرية والمالية التي لا غنى عنها. كما سوف ينبغي جعل التعليم للجميع مدى الحياة رهانًا ديموقراطيًا حقيقيًا، ومن ثم تدمير العنصرية في التعليم المدرسي والجامعي الواسع الانتشار وإعادة هيكلة التعليم كمشروع للمواطنة للتدريب المدني والمساواة الفعلية للفرص للجميع. وفي غياب إرادة سياسية حازمة ومشروع تعليمي حقيقي طويل الأجل، فإننا يمكن أن نشهد حقًا تجزئة التعليم للجميع مدى الحياة وفقاً لمنطق تجزيئي تصل به أقلية من المختارين إلى فراديس المعرفة، ويحكم على ملعوني المعرفة الجدد، وعلى كتلة كبيرة من المتوسطين بالمطهر العقيم.

وفي قلب العقد الثقافي، تشكل ثورة التقنيات الجديدة تحديًا أساسيًا ولكن أيضًا وسيلة نجاح حاسمة. فكيف يمكن الانتقال من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة؟ وكيف يمكن التغلب على الأمية وشبه الأمية؟ وكيف يمكن تعميم تعليم ثانوي مرتفع النوعية، يستفيد منه النساء والرجال على أساس من التكافؤ.

وأمام التطور السريع للمعارف والتقنيات، ماذا ستكون المناهج الجديدة للتعليم التي سوف تشجع تحديث المعارف. فماذا سيكون شكل مدرسة المستقبل، وما سيتم تعليمه في القرن الحادي والعشرين ؟ وكيف يمكن إضفاء قيمة جديدة على التعليم الفني والمهني ؟ وكيف يمكن إجراء إصلاح التعليم العالي في صورة كلية، حتى يكون الحصول عليه متاحاً فعلياً للجميع على أساس الجدارة، وحتى يتحول إلى أداة تعليم للجميع مدى الحياة.

وكيف يمكن تحويل وعد الطرق السريعة للمعلومات والمعرفة إلى حقيقة فعلية متاحة للجميع، وكيف يمكن تشجيع تنمية البنية الأساسية لهذا المجتمع للمعرفة في الجنوب، الذي لا يزال فيه الهاتف ترفاً، وكيف يمكن تشجيع انطلاق نمو العلم وتطبيقات التقنيات الجديدة على مصير المجتمعات والثقافات. وكيف يمكن أن تسهم هذه التقنيات ذاتها في تعزيز التعليم، والبحث العلمي، وتطبيقات المعرفة، والحوار بين الثقافات، والتداول الحر للمعلومات والمعارف، وماذا سيكون مستقبل الكتاب والقراءة ؟ وما هو مستقبل تنوع اللغات، هذا التراث الذي يعيش في قلب كل فرد. وعلى مشارف ٢٠٢٠ هل سيحول التعليم عن بعد المؤسسات التعليمية إلى عوالم افتراضية ؟ وهل سيكون في الإمكان تأسيس التعليم من دون بعد، الذي سوف يدمج أولئك الذين تم إقصاؤهم والذي سيكون في مقدوره أن يصل إلى منبوذي المعرفة. وهل ستكون لدينا الحكمة الكافية للتوصل إلى العقد الثقافي الذي

يشجع التعددية والتآلف الثقافي، بدلا من تعزيز الامتثال الثقافي ؟ وهل سنتجه نحو تهجين الثقافات أم نحو صدام الثقافات ؟ وهل سيكون في وسعنا أن نعبر الفجوة الثقافية التي تفصل، في قلب المجتمعات ذاتها، بين المرفهين والمحرومين، واضعين، كما أوصى تقرير دولي، برنامج عمل يقوم خصوصاً على استعانة مكثفة بالتقنيات الجديدة وعلى استخدام مراكز الاتصال والتبادل التي يجب أن تتمثل في المدارس والمسارح والمتاحف والمراكز الثقافية وشبكات عمل المواطنين والمشروعات. وهل سيكون في وسعنا تأسيس الثلاثية اللغوية المعممة منذ التعليم الابتدائي، في العمر الذي يكون من السهل فيه للغاية تعلم لغات الآخر وثقافته، من خلال تبادلات ضخمة لمدرسين يتم التفاوض عليها على المستوى الإقليمي أو الدولي؟ وهل سيكون في وسعنا أخيراً، إدخال البعد الثقافي في التنمية؟ وتعزيز السياسات الثقافية التي ستكون قادرة من خلال مضاعفة عرض البرامج الثقافية، على حفز الطلب على الثقافة عن طريق التعليم والتدريب الفني والجمالي؟ وهل سنكون قادرين على أن نربط في صورة أفضل بين المجالات الثلاثة للثقافة، الثقافة الكوكبية، الثقافة القومية أو المحلية، الثقافات المتعددة المجال والتقنية، التي هي الآن في أقصى حالات التوسع في عصر الشبكات، وكيف يمكن التوفيق بين الابتكارات، والتقاليد، والتنمية ؟ وهل سنكون قادرين على أن نمنح روحاً للتنمية، وأن نعيد إلى قلبها الكائن البشري الذي كثيراً جداً ما يكون اليوم عبداً لها.

نحو عقد أخلاقي

العقد الرابع هو العقد الأخلاقي الذي سوف يجب في القرن الحادي والعشرين أن يعيد منح المعنى والأفق للمغامرة البشرية. ويجب أن يستند هذا العقد إلى ثلاثة جوانب. كيف يمكن في المقام الأول تعزيز انطلاق نمو او نمو ثقافة سلام وتنمية ذكية يمكن بدلاً من سحق الكائن البشري أن يكون مرادفاً لازدهار يقوم على المعرفة ووضع المعارف أو الكفاءات في الشبكات، هذه المعارف أو الكفاءات اللامادية بحكم التعريف وكيف يمكن الانتقال من منطق لإعادة بناء يقوم على جراحة تتم بعد النزاع إلى منطق وقائي يقوم على أساس توقع النزاعات وعلى أساس التقدير المسبق للأزمات ؟ وكيف يمكن تشجيع ظهور ثقافة سلام تقوم على الحط من قيمة العنف، وعلى التطبيق الفعلي لكل حقوق الإنسان، وعلى الدعم النشيط للتعددية والحوار بين كل مكونات المجتمع، وعلى التعليم الأخلاقي للسلام والديموقراطية واحترام الآخر. وفي جانب ثان، كيف يمكن تعزيز تعميق الديمقراطية بإعادة إدخال الأمد الطويل في التنمية وفي الحيز العام للمدينة ؟ وسوف ينبغي بالفعل تعميق الديموقراطية في الزمان، بأن نرسخ في قلب المؤسسات والمجتمع جذور هذا التصور الاستباقي والمستقبلي للمواطنة كمشروع شددنا على ضرورته. ويجب أن توفق هذه الديموقراطية المستقبلية الطابع المعاصر في صورة جوهرية للعقد مع ضرورة التقسيم في الأجل الطويل والمسؤولية تجاه الأجيال القادمة. وينبغي أيضاً تعميق الديموقراطية في المكان عن طريق إدخال أشكال ملائمة من الديموقراطية الدولية. وكما تم التشديد على هذا في أحاديث القرن الحادي والعشرين فإن المسائل الأساسية للتنظيم والإدارة سوف تكون في قلب النقاش العالمي خلال العقود المقبلة. وإننا مقتنعون كما كان حال الدول القومية في فترة التكوين بأن مشكلات الإدارة والتحكيم والتنظيم والقدرة على تطبيق القانون على المستوى العالمي ستكون في صدارة جدول أعمال القرن الحادي والعشرين، وسوف تعزز هذه المسائل الاهتمام المتزايد للدول، بل أيضا المجتمع المدني الدولي. وشبكات المواطنة الكوكبية التي هي اليوم في حالة توسع كامل، وهي ستجعل من غير الممكن مطلقا الاستغناء عن تفكير المنظمات الدولية وعملها بعد تحويلها بعمق. وهذا هو السبب في أننا بعد فصل مخصص لمشكلات الأمن الكوكبي وعائدات السلام، نوجز في عالم جديد بعض منطلقات التفكير والعمل في شأن الإصلاح الذي لا غنى عنه لمنظومة الأمم المتحدة. كما ستتم ممارسة تعميق الديموقراطية على المستوى العالمي في مجال الثقافة عن طريق انتشار ثقافة جديدة للديموقراطية ستقوم بتسوية النزاعات بتجاوز المعضلات المنطقية التي ينطوي عليها الاندماج وتفسخ الهوية، وفي سبيل ثقافة مشاركة جديدة تتيح تجاوز التناقضات التي تضع الدولة والسوق في



التقدم العلمي إلى أين ؟!

مقابلة من خلال إعادة اكتشاف أساس الديموقراطية ذاته: المشاركة، هذا المفهوم التأسيسي عند روسو كما عند دوتوكفيل، على أن هذا العقد الجديد للأخلاق لا يمكن إبرامه من دون التضامن والتقاسم، ومن ثم من دون إعادة التوزيع لمكاسب العولمة، التي يجب أن يستفيد منها الجميع، وليس خمس السكان فحسب. ومن جهة أخرى كان إنجاح العولمة لمصلحة الجميع، الهدف الذي حددته لنفسها مجموعة الثماني في إحدى قممها الأخيرة. ويجب إنجاز هذا الوعد في الواقع الفعلي للتاريخ.

وخلال العقود الأخيرة لا مناص من الإقرار أن البشرية قد تقدمت، ومنذ خمسة عشر عامًا لا يزال ٧٠٪ من سكان الكوكب يعيشون تحت نير الاضطهاد والعناء والحرمان من الحقوق المدنية، ومع ذلك كسبت الديموقراطية المزيد من الأرض، وصار صوت الشعب يسمع حيث لم يكن يوجد سوى الصمت. والسلام عندما كان يسود كان سلام الأمن، واليوم يبدأ أمن السلام في الانتصار، وبالتدريج تتفوق قوة العقل على عقل القوة، ومع ذلك فإن الواقع الذي يحجبه هذا الانتشار الواسع للديموقراطية يستحق تقويماً دقيقاً، وليس المدائح المغتبطة للعولمة التي يتلوها علينا في المنتديات الرواة المبتسمون عن نهاية للتاريخ. والذي تشكل تقاريرهم التي تحض على الفضيلة طبعة جديدة من المكتبة الوردية كما حقق النضال ضد التخلف بعض الإنجازات، سجل بياناتها التقرير العالمي عن التنمية البشرية جاء فيه :

. خلال الـ ٣٦ عامًا الأخيرة، ارتفع العمر المتوقع عند الولادة في البلدان النامية ١٦ سنة، مرتفعاً من ٤٦ إلى ٦٢ سنة.

- تقلص معدل وفيات الأطفال في البلدان النامية بما يزيد على النصف منذ عام ١٩٦٠م.

- بين ١٩٧٠ و ١٩٩٥، ارتفع معدل تعليم الكبار في البلدان النامية نحو النصف، مرتفعاً من ٤٨٪ إلى ٧٠٪. وازداد تعليم النساء بأكثر من الثلثين خلال العشرين سنة الأخيرة.

- خلال العقود الثلاثة الأخيرة، ارتفع عدد الأفراد الذين يعيشون في بلدان ذات مستوى مرتفع من التنمية البشرية من ٤٢٩ مليوناً إلى ١.٢ مليار وتراجع عدد الأفراد الذين يعيشون في بلدان ذات تنمية بشرية ضعيفة من ١.٩ مليار إلى ١.٧ مليار. ومع ذلك يتواصل الحديث دائمًا عن إخفاقات الأمم المتحدة. غير أننا ننسى أن نحتفي بالنجاحات التي حققتها رغم الافتقار المتكرر والمنتشر جداً في صورة مؤسفة إلى الإدارة السياسية. وهل ينبغي التذكير هنا بالقضاء على الجدري أو القضاء على شلل الأطفال الذي أعلنته منظمة الصحة العالمية تحقيقه في المستقبل القريب؟ وهل يمكن أن نتجاهل الإنجازات المتحققة في مجالات التطعيم وارتفاع العمر المتوقع عند الولادة، الذي صار يحيط به الشك في صورة مأساوية منذ عدة أعوام نتيجة لظهور الإيدز في عدد من البلدان الإفريقية ونتيجة للبؤس أو الشروط السيئة للحياة في بلدان كثيرة في العالم، مثل الاتحاد الروسي. وهل يمكن تقليل شأن النجاحات السياسية التي تمثلها نهاية الفصل العنصري كمؤسسة في جنوب إفريقية وناميبيا؟ ونهاية الحرب في السلفادور أو موزمبيق أو في كمبوديا ؟ وهل يمكن أن نتخلى عن الأمل الذي يمكن أن يمثله استتباب السلام في أولستر، أو عودة وعده الهش إلى الشرق الأدنى ؟ وهل يجب أن ننسى وكأنها بديهيات غنية عن القول الإنجازات التعليمية التي فعلت اليونسكو من أجلها الكثير،

كالإنجازات التي تمت ترجمتها إلى انخفاض ملموس جداً في معدل الأمية تحقق رغم الزيادة الكبيرة في عدد السكان ؟ وكيف يمكن الاستهانة بالإنجازات في مجال الحرية الشخصية، مع أنها كانت الأروع في مجتمعات كان فيها مجرد مفهوم الاختيار الفردي لا يزال غير قابل للتصور تقريبًا منذ اربعة عقود.

ونحن نعتقد أن القوة المستمدة من هذا الأمل لن تكون زائدة عن الحاجة إذا نحن أردنا أن نواجه التحديات الأربعة الرئيسة الماثلة في قلب إشكالية هذا العمل والتي ينبغي علينا أن نواجهها إذا كانت البشرية تريد البقاء بعد القرن الجديد:

. التحدي الأول: أول هذه التحديات السلام الذي يشكل الشرط المسبق لحل كل التحديات الأخرى، كما ذكرها بطرس غالي في أحاديث القرن الحادي والعشرين التي نظمت في اليونسكو. لقد طويت صفحة الحرب الباردة، غير أن ما نعيشه اليوم، وهذا تخفيف من وطأة الحقيقة (سلام ساخن)، ومنذ انهيار سور برلين تتواصل عشرات الحروب أو اندلعت أخرى ويستمر زهاء ثلاثين نزاعاً تدور غالبيتها الساحقة داخل دول في الفتك بأجزاء شاسعة من العالم. وتبخر وهم ان نهاية الحرب الباردة ستؤدي في الحال إلى انطلاق آلية السلام الدائم، وإلى نهاية التاريخ، وعهد من التنمية المنفصلة، التي تكفلها ميزات السوق الحرة. وعلى المشهد الدولي ظهرت فئة رابعة للدول أضيفت إلى البلدان الصناعية والبلدان النامية، والبلدان التي تمر بمرحلة انتقال، البلدان التي اندلعت فيها حروب أو التي نجت من نزاع وتعاود الظهور ظاهرة منسية، الانهيار أو التحلل العنيف لعدد من الدول التي تغوص بالإبادة الجماعية، والمذابح بين المجتمعات المحلية أو في حروب بعيدة عن أن تكون أهلية، حيث نسميها حروبًا غير أهلية.

. التحدي الثاني: هل سيشهد القرن الجديد تفاقم فقر لا مثيل له يطل ضحاياه كظلال شبحية ليلية على الجانب الآخر من ستائر نوافذ الفصل العنصري الاجتماعي والفصل العنصري الحضري، على ثروة لم يسبق لها مثيل. وهل سيكون القرن الحادي والعشرون مرادفاً لعدم المساواة المتزايد؟ وهل سيؤدي انتشار الإقصاءات إلى تدمير مفهوم الحيز الاجتماعي مقوضاً أسس الديموقراطية داخل البلدان وعلى المستوى الدولي.

. التحدي الثالث: هو التنمية المستديمة والإدارة السليمة لبيئة الكوكب، ووفقًا لدراسة كندية يحتاج الأمر إلى ثلاثة كواكب مثل الأرض إذا وصل كل سكان العالم إلى نمط التنمية والأساليب الاستهلاكية السائدة في الوقت الحالي في أمريكا الشمالية. والنماذج للتنمية التي تقوم على الاستخدام المسرف وبلا قيود للموارد غير المتجددة، الا تعرض للخطر سلفاً، وربما حتى في صورة نهائية، تنمية أجيال المستقبل التي ننكر عليها ذلك، بأنانيتنا وقصر نظرنا الزمني، حقوقها. في حين أن الرومان القدماء كانوا قادرين على إقرار حقوق الأطفال الذين لم يولدوا بعد في تشريع المواريث، الم يأت الأوان لنقول بصوت عال وواضح، كم يكفي لإشباع شراهتنا. ففي كل مكان يستنفد الإنسان اليوم النسغ الذي يمكن أن يغذي الإنسان غداً. ولأن البشرية تملك القدرة التقنية على الانتحار الجماعي كنوع، فإنها تدرك من الآن فصاعداً أنها محكومة بالفناء. فمن سيوقف هذه الدوامة؟ من سيعلمنا الحكمة، ومن يدلنا على طريق تنمية أخرى، أكثر اقتصادًا، وأكثر ذكاء، وأكثر تضامنًا. من سيعلمنا وفقًا لعبارة الفيلسوف ميشيل سير السيطرة على السيطرة؟ وأي قوة ديموقراطية هي التي ستوقف أيدي من يطلقون الجن من القمقم.

. التحدي الرابع: متلازمة القارب السكران، وكما كتب سنيكا، وكما يقول البحارة المهرة، لا توجد مطلقاً ريح مؤاتية لمن لا يعرف إلى اين هو ذاهب. غير أنه لا توجد ريح طيبة لقبطان لا يستطيع فك شفرة خريطة، أو لربابنة حطموا دفة المركب. فهل أقلعنا موجهين مقدم سفينتنا نحو المستقبل ؟ هل لدينا اتجاه أو مشروع طويل الأجل ؟ هل ما زال لدينا دفة ومعدات الملاحة للاحتفاظ بهذا الاتجاه. نعتقد أنه مسموح الشك في هذا. ونتيجة للعولمة، يبدو أن عددا كبيراً من الدول قد أضاعت الخرائط والبوصلات وأدوات إرشاد الملاحة وحتى إرادة الاتجاه نحو الأفق. وإذا كانت لا تزال عائمة الآن، ولم تغرق بعد فما ذلك إلا لأن الأمواج تتقاذفها، وكأن التاريخ قد سقط في أيدي سادة مجهولين. تجريدات لم يعد أحد يسيطر عليها، تسمى الأسواق المالية، وأسعار الصرف، وأسعار الفائدة، وأسعار المواد الخام المنجمية أو الزراعية، والأرقام القياسية والوقائع الإحصائية من كل نوع. مع أن المساعدات الرسمية للتنمية لم تكف عن الانخفاض، إلى حد الهبوط، في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية. ومع أن الحرب الباردة قد انتهت من الناحية الأساسية قبل نحو عشرة أعوام، فإننا نواصل الاستثمار بصورة مكثفة في عدم الأمن، بدلا من التمويل، كأولوية وبطريقة وقائية، لبناء السلام. وعلى المستوى العالمي، فإن النفقات العسكرية، على الرغم من الانخفاض غير المتكافئ خلال التسعينيات، تمثل دائما ٧٠٠ إلى ٨٠٠ مليار دولار، وتعاود الميزانيات العسكرية لبعض القوى العظمى الارتفاع. والحقيقة أنه لا يمكن في آن واحد دفع ثمن الحرب وثمن السلام.

وسوف تكون مواجهة التحديات الأربعة التي طرحناها المهمة الكبرى للنصف الأول من القرن الحادي والعشرين، ولا سيما السنوات العشرين الأولى منه. وها هي تأتي ذي ساعة الحقيقة، خلال عقد او عقدين من الزمان، ربما كان مصير الجنس البشري هو الذي سيتعرض للمخاطرة. وسوف يلقى اجتماع أخطار كثيرة عبئا ثقيلا على المستقبل والرهان واضح. وقد صاغه البروفيسور إيثان كابشتين عضو مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، بهذه العبارة: «يتجه العالم في صورة محتومة نحو إحدى تلك اللحظات المأسوية التي سوف يتساءل مؤرخو الفترات اللاحقة في ما يتعلق بها عن السبب في أنه لم تتم محاولة عمل شيء ما قبل فوات الأوان. ألم تفهم النخب الاقتصادية إذن نحو أي هاوية يسرع التحول الاقتصادي والتقني؟ وما الذي منعها من القيام بالمساعي التي لا غنى عنها من أجل تفادي أزمة اجتماعية عالمية». والمستقبل بالغ التعقيد وعدم اليقين، وينبغي أن نكتفي بالحاضر لنتوقف عن التوقع، ولنترك أنفسنا للرياح والتيارات تأخذنا إلى حيث تشاء. وفي فجر القرن الحادي والعشرين، اقترح المؤلفون سبعة مبادئ للحكمة على تلامذة المستقبل وطلابه:

. ثق بالناس، مالم يكن لديك الدليل على أن ثقتك قوبلت بالخيانة، وليس هناك مستقبل قابل للاستمرار يمكن بناؤه على عدم الثقة.

. حافظ على الكوكب، ليس لأنه ملكك، بل لأنه عهد إليك به على سبيل حق الانتفاع، ولأن عليك، كما استلمته، أن تنقله إلى أطفالك، وأطفال أطفالك.

. الذكي جميل؛ لأن مستقبل الجنس البشري هو العالم اللامادي للروح، سوف تقوم التنمية في القرن الحادي والعشرين على المادة الرمادية، وعلى انطلاق نمو الذكاء، وعلى ازدهار الروح والحكمة.

. قم بالإعداد للسلام إذا كنت تريده، لأنك إذا أعددت للحرب ستحصل على الحرب.

. أعط الغير إذا أردت أن تتلقى؛ لأنه وفقا للمثل الإفريقي، الحب هو الشيء الوحيد "الذي يزداد باقتسامه.

. في عالم عالمي، وسوق عالمية، لابد من ديموقراطية عالمية، لن تكون هناك قرية عالمية، مادامت لا توجد مواطنة للوطن الأرض، تتضامن مع المواطنات القومية والثقافات المحلية وتحترمها.

. مستقبلنا ليس مكتوباً في أي مكان، إنه بين أيدينا جميعاً.

وسوف يسأل، هل قمتم بتقدير نفقات هذه العقود التي تقترحونها للقرن الحادي والعشرين ؟ ونحن نقدم في سياق هذا العمل مؤشرات ملموسة في شان عدد من التدابير ذات الأولوية. فهل ستكون الفاتورة مرتفعة جداً ؟ فلنتذكر أن النفقات العسكرية العالمية تمثل ٧٠٠ إلى

٨٠٠ مليار دولار سنوياً كما ذكرنا، وأن في وسعنا تحقيق مدخرات كبيرة عبر خفض النفقات غير المنتجة، وتحسين إنتاجية الخدمات العامة، وترشيد الإدارة، وإلغاء عدد من الإعانات الباهظة وغير الفعالة، والنضال بصورة فعلية ضد الفساد. ولنتذكر أن برنامج الأمم المتحدة للتنمية يقدر بـ ٤٠مليار دولار فقط في السنة تكلفة تحقيق واستمرار تعميم للتعليم الأساسي، وغذاء كاف، ومياه صالحة للشرب، وبنية أساسية صحية أولية، بالإضافة إلى تقديم خدمات الرعاية الصحية والتوليد والنساء. ويمثل هذا المبلغ أقل من ٤ ٪ من المجموع الكلي لأضخم ٢٢٥ ثروة في العالم. فهل هذا أغلى من أن ندفعه ثمنا للسلام؟ وهل هذا أغلى من أن ندفعه ثمناً للتنمية؟ هل هذا أغلى من ان ندفعه ثمنًا للديموقراطية ؟. وكما يقول غابرييل ماركيث: «لا تتوقعوا شيئاً من القرن الحادي والعشرين. إن القرن الحادي والعشرين هو الذي يتوقع منكم كل شيء».

نقد الكتاب

يركز المؤلفون على العولمة وتطلعاتهم نحو مستقبل العولمة المشرق للشعوب، ونقول هنا إن العولمة تكرس الانقسام بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وإن السيادة للنظام العولمي، واضعاف قوة الدولة على العمل الجماعي، والعولمة تحوي الدول الغنية والفقيرة معاً؛ الغنية بما تملكه من ثروات، والفقيرة بما تملكه من قوى بشرية يمكن استثمارها عبر مشروعات كبيرة ينفذها نظام العولمة لزيادة نفوذه وأرباحه معًا. ونلاحظ هنا ان هناك اتساعًا كبيرًا بين الدول المتقدمة الغنية والدول النامية الفقيرة، وزيادة البطالة والأمراض والحروب والتكتلات الاقتصادية والمنافسة في الأسواق والتفجر السكاني وعدم كفاية الغذاء والتحكم الدولي في الأمن الدولي، وتحدي البيئة الطبيعية والبشرية، واستمرار النمو الصناعي، وسيطرة الاتجاه المادي والنفعي الدولي، والتقدم السريع في الحياة العملية والتقنيات، وتلوث البيئة، وتجزئة الدول. وكذلك اتساع الفجوة بين التقدم التقني والعلمي، ونقص الاتصالات والمعلومات، ومصادر المياه، وضعف استغلال الأرض، وعدم كفاية الغذاء، وانتشار الأمية والتخلف والفقر والمرض والهيمنة الإمبريالية الغربية، ووجود الكيان الصهيوني، وحقوق العرب ومشكلات الأقليات وتعزيز القطرية، والتأثر بالاتجاهات الغربية. ومع أن هذه التحديات متداخلة مع الآثار التقنية والسياسية والثقافية والاقتصادية، ومع أن المؤلفين كذلك لم يوثقوا حقيقة النتائج التي توصلوا إليها، فإنها تبدو كوجهات نظر أكثر منها نتائج منطقية موضوعية.

وبعد استعراض هذه السيناريوهات، لا يمكن التنبؤ بما سوف يكون عليه الوضع في ظل الصراعات والتصالحات وربما يكون الوقت مبكراً جداً لاستشراف العقد القادم، والسؤال هنا. هل يمكن عمل موازنة بين الاستمرار في العولمة والتي يمكن أن تستمر من دون حرية التجارة والاستثمارات والاتصالات وشفافية المعلومات والحدود والأسواق المفتوحة، وبين الإجراءات الأمنية المشددة المقترحة



الثورة العلمية لعصرنا نقلتنا من عصر يقين إلى محيط من الحيرة والشك !؟

من تأمين سلامة المواطنين والبلاد. ومهما تكن النتيجة سواء في مصلحة العولمة والحرية والتربية أو في التراجع عنها، فإن العلاج مهما كان مكلفاً فهو أفضل بكثير من مرض الإرهاب والخوف من التقدم والانطلاق.





المعماري ســـنان: العبــ

...كري الفنان!

محمود زين العابدين
الرياض – السعودية

تعدّ عمارة المساجد العثمانية أحد أهم أنواع العمارة الإسلامية التي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي. فقد حملت بين طياتها وعلى مدار ستة قرون طرازاً معمارياً خاصاً بها. على الرغم من مرورها بعدد من مراحل التطور والازدهار، إلى جانب مراحل من الهبوط والانحطاط. بيد أن هذا الفن العثماني ظل صامداً محافظاً على هويته. وقد كان للمعماري العثماني سنان دور بارز ورئيس في تطوير عمارة المساجد العثمانية، لتتحول إلى مدرسة ذات خصائص معينة ظل كثير من المعماريين العثمانيين محافظين عليها، بل امتدت إلى يومنا هذا ليقتبس منها بعض المعماريين العالميين.

نبذة تاريخية

يعود أصل سنان - كما ذكر في المراجع العثمانية - إلى بلدة كابادوكيا، وقد تم تجنيده في قرية أجيرناس التابعة لمدينة كايسري الواقعة في أناضول تركيا - حالياً - وتطوع سنان، وانضم إلى التدريبات الانكشارية في عام ١٥١٢م. ولكن النقوش الموجودة على قبره- بجوار جامع السليمية في مدينة إستانبول- تذكر أنه توفي عام ١٥٨٨م وهذا يدل على أنه بلغ المئة عام من العمر عند وفاته (١).

اما عن أصول الانكشارية، فهم صبيان مجندون، يتم اختيارهم لضمهم إلى فيالق عسكرية، وتكون بداية عملهم في المزارع التابعة للأتراك، ويتم تعليمهم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، بعاداته السامية، بالإضافة إلى اللغة التركية، وبعد مدة معينة يخضعون لامتحان، ومن ثم ينتقلون إلى التدريب العسكري.

وقد مرّ سنان بهذه المرحلة التي دامت تسع سنوات في المدرسة العسكرية، ثم دخل صفوف الانكشاريين عام ١٥١٢م، وحصل على كثير من الترقيات العسكرية خلال فترة قصيرة، وكانت تجارب سنان الأولى في إنشاء المباني العسكرية، وأول عمل قام به كان بناء جسر فوق نهر بروت، مما دفع السلطان إلى تعيينه كبير المعماريين. ودامت خدمته في البلاط العثماني من عام ١٥٣٨ إلى ١٥٨٨م، أي نصف قرن من الزمان.

رافق سنان السلطان سليم الأول في الحروب العثمانية التي خاضها، وهو يتنقل بين الشرق والغرب، مما أثرى حسه المعماري، وتعرف إلى العمارة الصفوية والفن الإيراني، ودخل سورية متعرفاً إلى العمارة الأموية والعمارة المملوكية في مصر.

وقد تخرّج سنان في مدرسة عجمي أوغلانار، وصار انكشارياً فنياً في فترة وفاة السلطان سليم عام ١٥٢٠م، ليرتقي ابنه سليمان القانوني الحكم في البلاد، وتابع سنان تنقلاته ومشاركاته للجيش العثماني في فتحه لأوربا وانتصاراته؛ لأنه أحب السفر والتجوال في بقاع العالم، وفي كل زيارة لأي بلد عربي او دولة أجنبية يزداد عمقاً ونضجاً في دراسة الأشكال المعمارية بنماذجها المختلفة التي تحمل الهوية المعمارية للعهد الذي أنشئت فيه، إلى أن عيّن عام ١٥٣٤م بمنصب كبير المعماريين، وكان عمره آنذاك خمسين سنة.

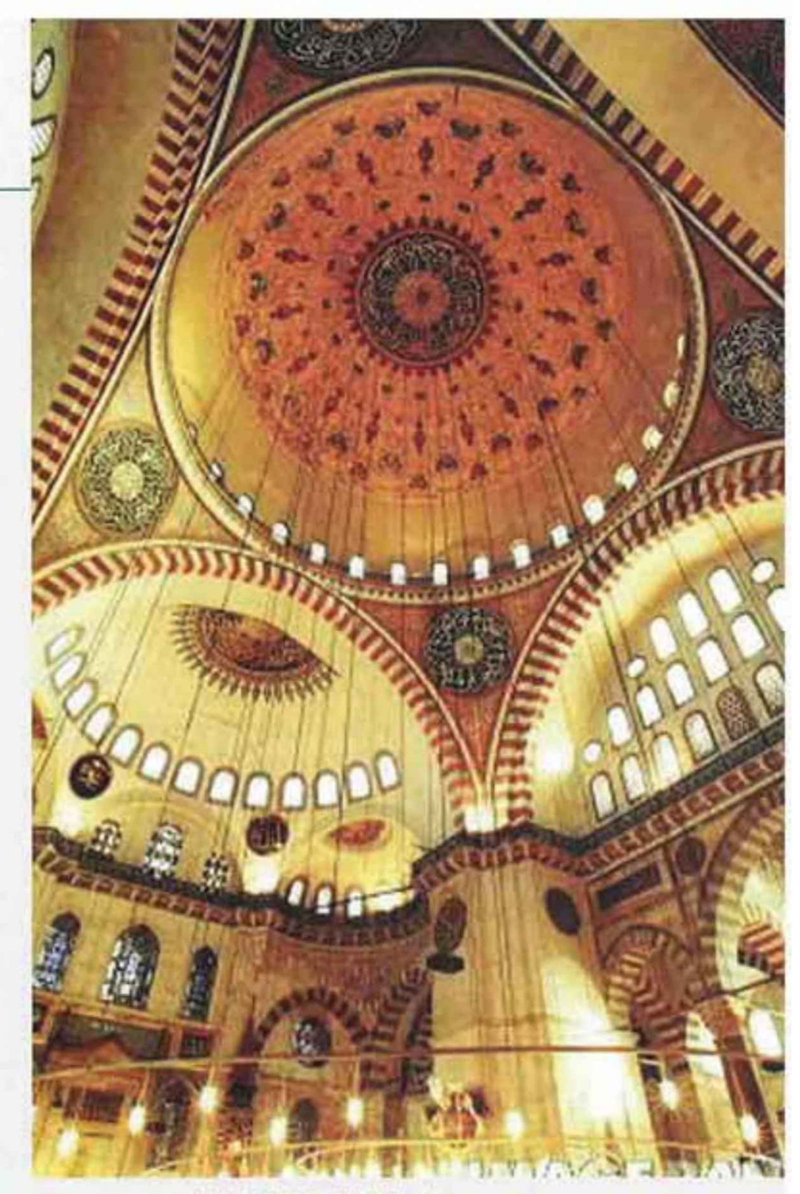
توزعت أعمال سنان في أرجاء الدولة العثمانية، ففي

توفي عام ١٥٩٥م قبيل وفاة سنان، أنّ آخر مبنى دوّن في هذه المخطوطة مسجد السلطانة وليدة في إسكودار الذي اكتمل بناؤه عام ١٥٨٣م. أما بالنسبة إلى تذكرة الأبنية فنجدها موسعة لتذكرة البنيان التي تلتها خلال عام أو عامين؛ لأنه لا يوجد مبنى مدون فيها بعد عام ١٥٨٦م.

وعن تحفة المعماريين، فمن الواضح أنها قد كتبت بعد وفاة سنان عام ١٥٨٨م؛ لأن المخطوطات قد تضمنت ذكر عدد من المساجد والأبنية التي أشرف عليها سنان، أو صممها (٢).

القبة في عمارة سنان

إن طريقة سنان الإنشائية للتصميم لها غرض واضح هو توحيد فراغ المصلى تحت سيادة التطويق الكامل للقبة الكبيرة. فالقبة عند سنان لها معنى رمزي، وبشكلها الكروي البسيط لا يمكن أن تكون في ذاتها الحافز إلى التصميم الفراغي. وقد استقطب سنان قواه كلها لمحاولة الدخول مباشرة تحت القبة الرئيسة في جميع مبانيه عدا المباني الثلاثة المكونة من مسجد شيخ زاده الذي حقق من خلاله مبدأ المركزية المطلقة في المخطط الإنشائي، ومسجدي السليمانية وكيلج علي باشا اللذين ربما طلب السلاطين من المعماري سنان أن يتبنى المخطط العام لأياصوفيا في بنائهما.



جامع السليمانية من الداخل، إستانبول

عالمنا العربي بنى أول أثر له، وهو مجمع الخسروية في مدينة حلب عام ١٥٣٦ - ١٥٣٧م، وفي مدينة دمشق بنى التكية السليمانية عام ١٥٧٧م، وقام بترميم قباب الحرم المكي الشريف في مكة المكرمة، وله عدة آثار في المدينة المنورة والقدس والبصرة.

مصادر أعماله

هناك ثلاث مخطوطات لأعمال سنان، التي تعود إلى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وهي: تذكرة البنيان، وتذكرة الأبنية، وتحفة المعماريين.

دونت تذكرة البنيان بمعرفة ساعي مصطفى شلبي

إن الرؤية المتكررة في الأشكال القببية في طابع سنان هي الفاصل، فالقباب البسيطة اكتسبت جودة فنية فقط عندما تداخلت المجموعات الشكلية مع نظام الدعم ونظام الإضاءة القوي للجدران الحائطية. ويبدو أن طابعه قد وصل إلى أشكاله (جامع الشيخ زاده). كما أن جامع السليمانية يبدو مسيطراً على أفق إستانبول، وهو رمز واضح للقوة الإمبراطورية، ولكن مبنى السليمية في أدرنة يُعدُّ تتويجاً حقيقياً لسيرته الفنية. وليس هناك تقليد استحق الاستمرار كآثار سنان الفنية الرائعة. فالمظلات المثمنة الأضلاع التي تحمل قبة من



واجهة جامع السليمانية، إستانبول

٥٠ ,٣١متراً بنسب رائعة ومدخل منفتح تمثل رؤية بارزة ليس لها مثيل في تاريخ العمارة القببية. إنه فراغ ذو معنى ديني يجعل الفرد يحس القدرة الكاملة لله سبحانه وتعالى كإحساسه بتضامن المجتمع. لقد سيطرت القبة الواحدة بجلاء على الوحدة الفراغية، وقللت كل الفراغات المساعدة لتأكيد اتساع المركز وأهميته، كما أن كل العناصر المعمارية قد قيست لكي يكون الفراغ المركزي هو الحاكم (٢).

المنارة في عمارة سنان

تميزت المآذن أو المنارات العثمانية بشكلها الأسطواني المدبب، وبطولها السامق مع تعددها. وصار لها شكل يميزها من سائر المنارات التي تعود إلى عهود أخرى. ومع بداية عمارة سنان كان شكل المنارة العثمانية أقرب إلى الشكل الأسطواني اضلاع متعددة وقمة مخروطية. وقد تطور شكل المآذن في العهود الوسطى لتتحول إلى جزء مهم منتم إلى الكتلة الأصلية للمسجد، نقصد به القبة. ولتصبح المنارة ذات مضمون ورمز للقوة. فقد ازداد عدد المآذن. وكانت هذه مرحلة جديدة في العمارة العثمانية.

كان القرن الخامس عشر أشبه بمرحلة يمكن تسميتها بفترة البحث عن الهوية وكانت البداية الحقيقية في إعطاء الشكل النهائي للمنارة، وازداد عددها وعدد شرفاتها كما كان في جامع أوج شرفلي. واستمرت المآذن في القرن السادس عشر تحمل الشكل نفسه وأصبح جامع بيازيد الثاني النموذج الذي يحتذى به لسائر المآذن العثمانية، وكانت هذه المآذن أشبه بالمرحلة البدائية للمعماري سنان. فمع المنتصف الثاني للقرن السادس عشر الميلادي، استكملت الصورة النهائية لأقسام المنارة،



جامع الخسروية بمدينة حلب أول جامع للمعماري سنان

بالإضافة إلى وضوح العلاقة التي تربط المنارة بكتلة الجامع ووصلت المنارة إلى شكلها الكلاسيكي النهائي. وفي عهد سنان كانت هناك ثلاثة أقسام ثابتة ومرتبطة بالمنارة ويمكن تعدادها على النحو الآتي:

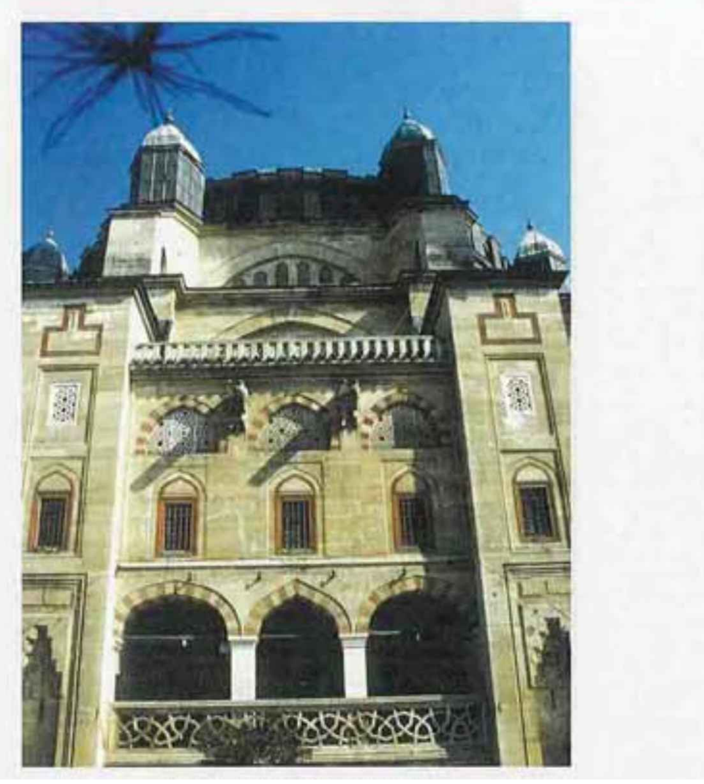
- القاعدة (الأساس والمقعد والقدم).

- الجذع (البدن) ويضم الشرفة ذات المظلة والدرابزين، بالإضافة إلى المقرنصات وكوة الإضاءة.

- رأس المئذنة، ويتألف من الجوسق والقلنسوة المخروطية المغطاة بطبقة رصاصية وفوقها التفاحات وأخيراً الهلال النحاسي. علماً أن العمارة السلجوقية والعمارة العثمانية البدائية لم تحملا جميع هذه العناصر. كما تميزت المنارات أو المآذن العثمانية في عهد سنان برشاقتها وارتفاعها. ففي جامع السليمية بأدرنة وصل طول المنارة إلى ٨٥ متراً، وكان ذلك أعلى ارتفاع تصله المنارة العثمانية. لتتجاوز ارتفاع منارات جامع أوج شرفلي٨١ متراً. وقد أصبحت سماكة البدن أيضاً أقل فوصلت في جامع السليمية إلى ٣.٩٥ امتار. بينما كانت ٤.٥٨ أمتار في جامع أوج شرفلي. بالإضافة إلى ان أقسام البدن قد ازدادت نحافة بعد الشرفة الأولى.

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أصبح أسلوب تزيين المنارات عنصراً أساسيا ومهماً خصوصاً عند الشرفات. مع استخدام المقرنصات تحت الشرفات وبشكل متدل. أما جدران الشرفات فزينت بأشكال هندسية مملوءة أو مفرغة.

ففي العهد البدائي للعمارة العثمانية كانت هناك مبالغة في شكل المنارة باستخدام أعمدة غليظة عند زواياها، مع الاعتماد على المقرنصات والحفر على الحجارة واستعمال الأشكال المثلثية المدببة. أما بدن



الواجهة الخارجية لجامع السليمية بادرنة

المنارة فزين بالحفر عليه، وبعمق مع استعمال أشكال مجدولة على الحجارة الحمراء. في عهد سنان بدأ التخفيف من تزيينات المنارة مع ترك الفراغات المناسبة بين الأشكال المجدولة المزدحمة والمبالغ فيها أيضاً. وأبقي شكل المقعد كما هو عليه. وخفف من تزيينات القدم ودخلت البساطة على بدن المنارة. وهذه النقاط باتت سارية بالنسبة إلى جميع المنارات. جميع هذه العناصر قد حققت مفهوم البعد الثالث وعملية الظل والضوء، أهم نموذج لتلك المنارات، منارة جامع شاه زادة. وقد حقق سنان في منارة السليمية بأدرنة أرقى أشكال المنارة العثمانية بطولها السامق وشكلها المخروطي المدبب الفني بالدقة والموضوعية.

مواد البناء في عمارة سنان

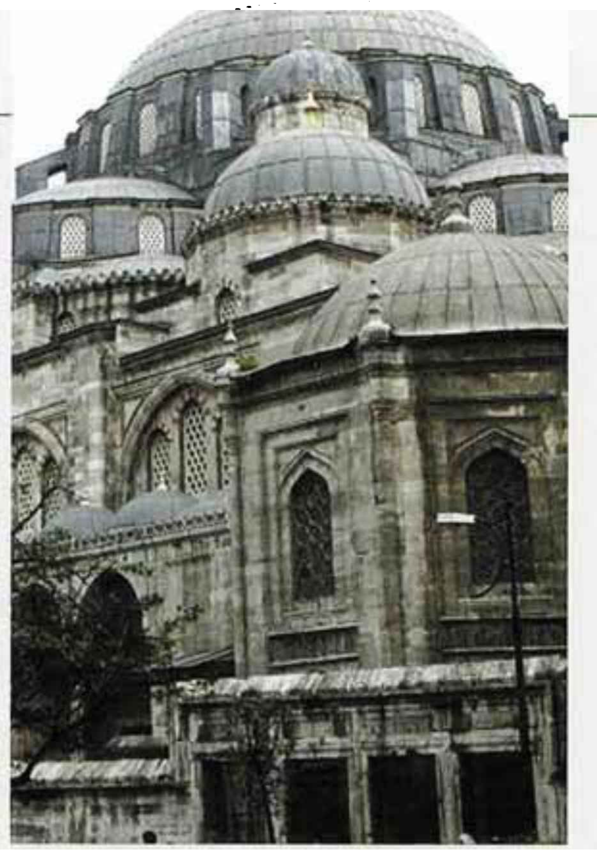
أما عن مفهوم سنان لاستخدام المواد فكان دائماً يسعى إلى وحدة الفراغ الداخلي مع المظهر الخارجي للمبنى، وكان يؤمن بأن جودة العمارة الحقيقية والنظام الإنشائي سوف يفهمان أكثر إذا كان المبنى خالياً من الزخارف غير الضرورية. ولهذا نجد أن زخارفه تركزت في الأنماط الزخرفية بحواف الأبواب والمقرنصات، وتعطى مبانيه مظهراً خارجياً جاداً للغاية، وربما كان ذلك بسبب خلفية سنان العسكرية. كما كانت المواد المستخدمة من قبله تتصف بالتكرار والرتابة والبساطة في التعبير، ولم يستعمل أبداً البلاط الخزفي المزخرف خارج المبنى، مع استخدامه بكثرة إبان العهد السلجوقي وفي العمارة الإيرانية والعربية فيما بعد الإسلام.

وقد أعطى سنان عناية خاصة لتوفير فراغ داخلي أكثر اتساعاً وإضاءة، وبفضل الأساليب التي قام بتطويرها أصبح بالإمكان تشكيل مجموعة من فتحات النوافذ مما أدى إلى تغيير تام في المفهوم القديم للحوائط الضخمة السميكة التي كانت تبنى من فوقها قباب. وقد استخدم الزجاج الملون على هذه النوافذ ويتمثل مفهوم سنان لاستخدام المواد في تكرار فكرة معينة وتحقيق التجانس بين العناصر.

وهناك قاعدة أخرى اتبعها بصورة موسعة وهي استخدام الظلال الخفيفة لإثراء بعض المواد بدلاً من استخدام مواد كثيرة مختلفة التركيب وبالألوان. وبهذه الطريقة تظهر عناصر المبنى متكاملة بعضها مع بعض بشكل عام وتبدو القبة التي تعلو المبنى من البعد كأنها تسبح في الهواء (٤).

الجداريات الخزفية

تعددت الأساليب التي اعتمد عليها الفنانون على الرغم من التشابه العام في الأشكال المستخدمة للجداريات الخزفية، بالاعتماد على القوالب الثابتة لها. ومع مرور الزمن ظهرت أشكال جديدة للرسومات الخزفية. ففي عمارة سنان، وخصوصاً في النصف


الواجهة الخارجية لجامع الشيخ زاده

الأول من عهده، استعمل شكل سمّي بالرومي وتحديداً فوق المحراب والنوافذ، وهو ذو شكل مستطيل. كما استخدم داخل أجزاء الأقواس المدببة. ثم طرأت على القالب الرومي بعض التعديلات، فقد تم الاعتماد على الناحية التناظرية في الأشكال النباتية المستعملة ذات الأغصان الملتوية والمحمّلة بالأوراق المزركشة وبشكل فردي أو مزدوج، أو حلزوني، مع التركيز في أشكال الأزهار، والتدرج في الألوان المستخدمة لهذه الأشكال التي ترمز إلى مفهوم الجنة وأزهار الربيع، من النظرة الأولى يتضح لنا شكلان عموديان مختلفان، وبالنسبة إلى الزاوايا الحادة استخدمت أشكال مثلثية، والرسومات الموجودة داخل المحراب تختلف بشكلها العام عن الأشكال المستعملة عند الأقواس.

وكنماذج موضحة لما تحدثنا عنه نلاحظ في جامع السليمانية وفي (المقبرة) التي دفنت فيها حرّام سلطان وعلى الجدران الداخلية نجد لوحات جدارية خزفية ذات أشكال توضح مفهوم الجنة مع الأشجار، بالاعتماد على الشكل الرومي، وعلى أشكال أغصان مزدوجة وملتفة ضمن لوحات واضحة وثابتة. وقد اعتمد الفنان المصمم على ذاكرته الفنية بالنماذج المختلفة، بالإضافة إلى استخدامه أشكال الأشجار والأزهار والقرنفل مطوراً هذه العناصر الجمالية في لوحاته الخزفية.

ففي عهد المعماري سنان وضمن نظريته للقبة التي ترمز إلى السماء. فقد آثر عدم استعمال الخزفيات على السطح الداخلي للقبة، بل اعتمد على التزيينات المعتمدة على الكتابات القرآنية. ووضع على جانب المحراب كلمتي الله ومحمد. أما بالنسبة إلى الزاويا الأربع للقبة، فوضع أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة على كل زاوية منها. وعن أنواع الرسومات فقد خصصت الرسومات التي ترمز للجنّة فوق المحراب أو تحت قمة المنبر المخروطي، مع استعمال الآيات القرآنية بكثرة، خصوصاً الآيات التي ذكر فيها كلمة محراب لتحتل مكانها فوق المحراب مباشرة.

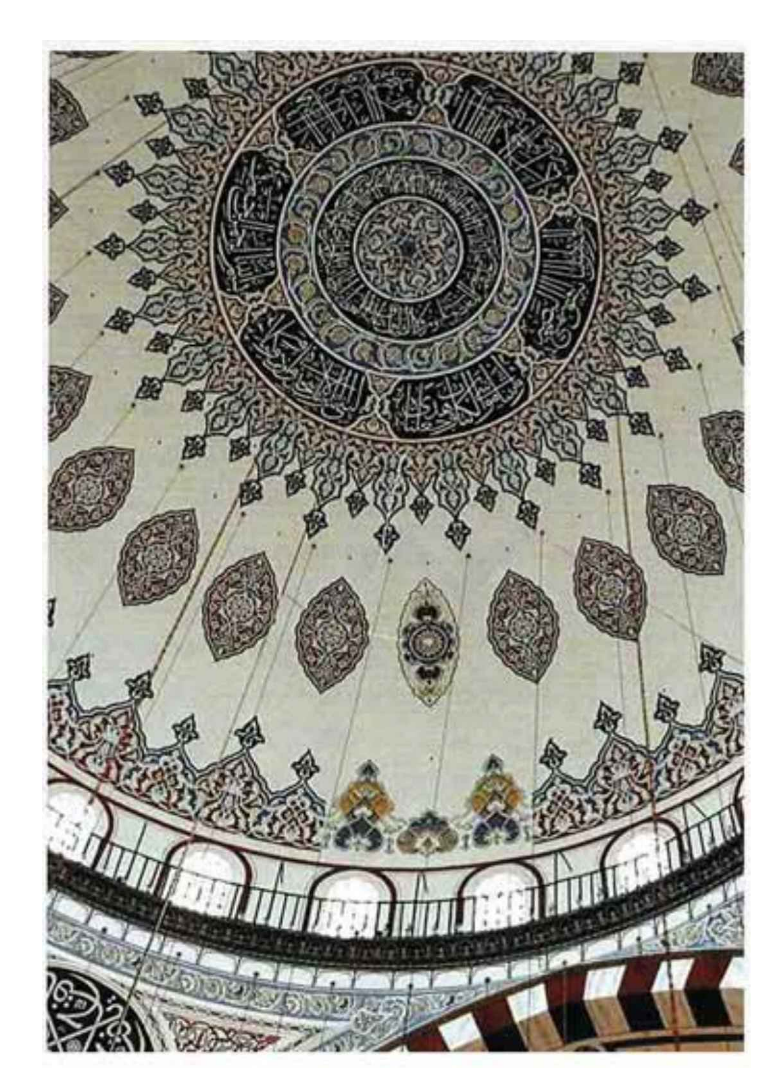
أما بالنسبة إلى اللون فيظل مفهومه سطحياً؛ لأن الاعتماد الأكبر على الأشكال، واستخدمت ألوان متباينة فيما بينها حيث تكون الأرضيات ذات شكل فاتح وموحد، وتكون ألوان الرسومات الداخلية داكنة فتحقق عملية التباين بين الألوان لإبراز الأشكال النباتية بشكل أكثر دقة ووضوحاً. ولم يستخدم الظل أو الضوء في الجداريات الخزفية. مع العلم أن الألوان التي استخدمت كانت غير متدرجة. إلا أن اللون الحاكم والأساسي الذي اعتمد عليه المعماري سنان كان الأزرق.

في النصف الأول من القرن السادس عشر كان الاعتماد الكلي على اللون الأصفر واللون الأخضر. ومع النصف الثاني للقرن السادس عشر أصبح اللون الأزرق هو اللون الرئيس. والحاكم على جميع المنشآت العثمانية التي استخدمت الجداريات الخزفية الصينية. على الرغم

من أن اللون الأزرق هو اللون الحاكم، ثم ظهر في بعض النماذج للون الأحمر؛ لاستعماله في الحصول على درجة اللون المرجاني. علماً أن اول نموذج استخدم فيه اللون الأحمر كان في جامع السليمانية وفي مقبرة حرام سلطان. بالإضافة إلى استخدامه في البلاطات الخزفية لجامع رستم باشا. وظهر أيضاً في جامع بيالا باشا ومقبرة السلطان رستم الثاني ثم انقرض هذا اللون تماماً.

حمل اللون المستخدم مفهوماً تزيينياً وتحددت وظيفة كل لون كان نجد استخدام اللون الأصفر والأخضر والأزرق الداكن في الأرضيات، إذ ركز المعماري سنان في استخدام اللون لإظهاره بعض الأشكال التزيينية المهمة (٥).

زخارف لجامع الشيخ زاده

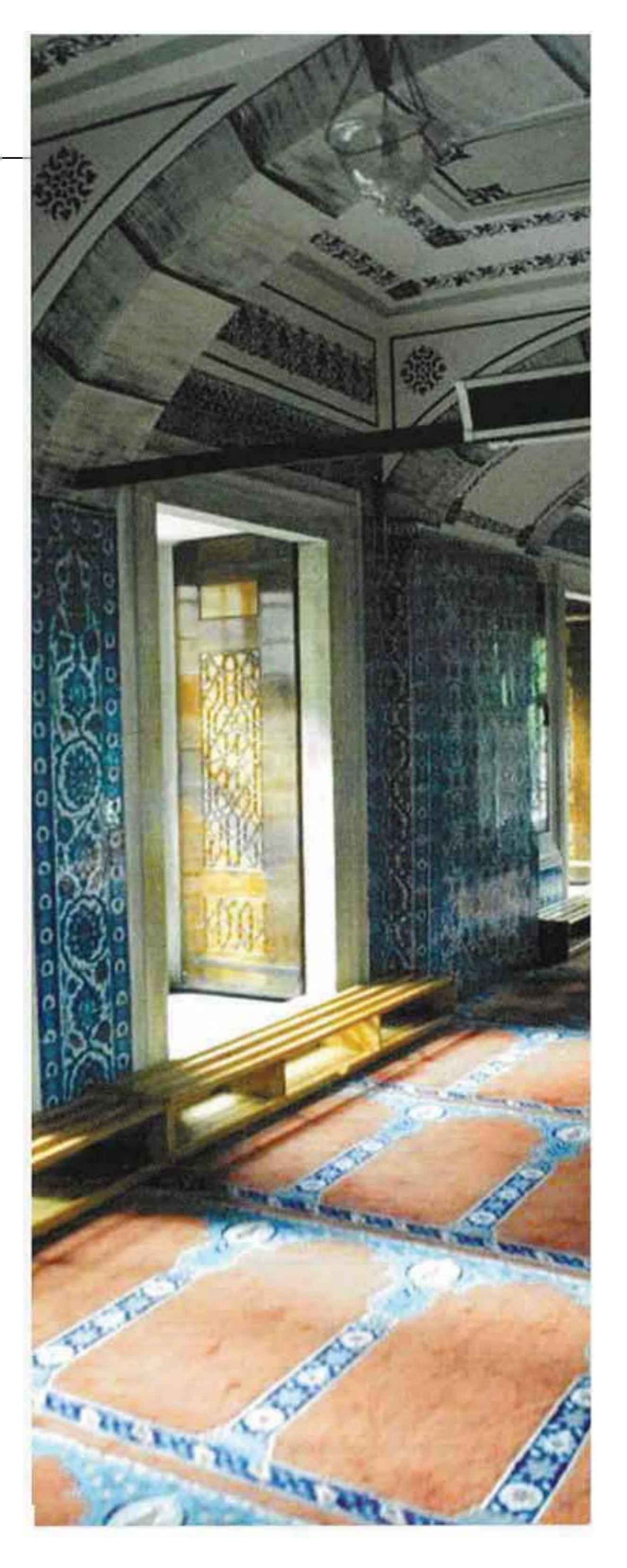


آخر أعماله وأهمها

أما أهم أعمال سنان وأشدها ضخامة في تركيا، فله ثلاثة جوامع بكلياتها هي: جامع شاه زادة (١٥٤٨م)، وجامع السليمانية (١٥٥٧م) في مدينة إستانبول، وجامع السليمية (١٥٧٤م) في مدينة أدرنة، ويعد جامع السليمية نموذجاً مهماً في عمارة سنان المتميزة والثرية، وخصوصاً أنه بنى هذا الجامع وعمره يناهز الثمانين، ولهذا نلاحظ نضجه الفني وابتكاراته التي ترجمها إلى رائعة معمارية استغرقت خمس سنوات من الإنشاء، فعندما أمره السلطان سليم الثاني بإنشاء الجامع، قام سنان باختيار المكان المرتفع المناسب لهذا الصرح المعماري على أعلى ربوة في مدينة أدرنة، بحيث يمكننا رؤيته من جميع أنحاء المدينة، بقبته الضخمة ذات القطر (٣١.٥متراً) التي فاقت قبة أياصوفيا، محققاً بذلك حلماً رافقه وأقض مضجعه سنوات طويلة.

فنقلاً عن كتاب «فنون الترك وعمائرهم» الصادر عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول الذي قام بتأليفه «أوقطاي أصلان آبا»، وترجمه أحمد محمد عيسى»، أنه ورد في «تذكرة البنيان» التي يقال إنها من إملاء المعماري سنان: «وإذا كان قد شاع بين المهندسين المسيحيين القول بتفوقهم على المسلمين؛ لأنه لم تقم في العالم الإسلامي كله قبة تضارع او تنافس قبة أياصوفيا، فقد حزّ في نفسي كثيراً أن يقال إن بناء قبة بمثل ضخامة أياصوفيا، ربما يكون من الأعمال العسيرة، ولهذا قررت - مستعيناً بالله - إقامة هذا المسجد في عهد السلطان سليم خان جاعلاً قبته أوسع من أياصوفيا بمقدار ست أذرع، وأعمق منها بمقدار أربعة أذرع».

استغنى المعماري سنان عن أنصاف القباب التي استخدمها من قبل في جامعي شاه زادة والسليمانية، وارتكزت القبة على قاعدة مثمنة محمولة على ثماني



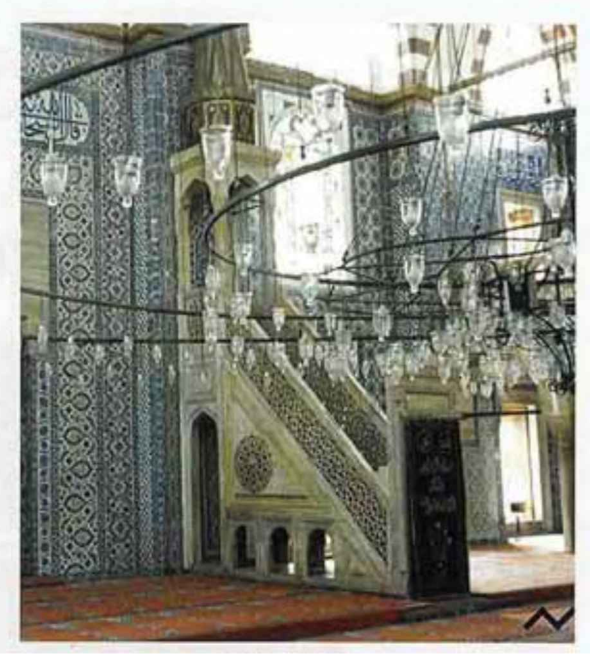
دعامات قوية، وهذا ما نلاحظه في القبة، من رحابة في المكان وارتفاع في القبة.

أما مآذن جامع السليمية الأربع السامقة، فتطل على مدينة أدرنة بارتفاعها الرشيق، . إذ يبلغ ارتفاع كل منذنة(٨٠ . ٧٠متراً)، ولكل مئذنة ثلاث شرفات، يتم الصعود إليها عن طريق ثلاثة سلالم مستقلة، مع هذه الرحابة والعظمة في إنشاء القبة والمآذن حظي الجامع من الداخل بالعناية في محرابه البالغ عمقه ستة أمتار، وبقبة بارتفاع منخفض، وبمنبره المنحوت من قطعة حجرية واحدة، ليكون شاهداً على براعة الصناع في تلك الفترة، بالإضافة إلى البلاطات الخزفية التي تغطي جدران القبلية، ومحفل السلطان الواقع شمال المحراب، ويوجد أسفله نافورة صغيرة لشرب الماء، وزينت القبة بالكتابات القرآنية التي قام بها المولوي حسن بن قره حصاري، وتحيط بصحن الجامع البوائك المغطاة بالقبب، وفي وسطه الشادروان الرخامي، وبهذا يعد جامع السليمية عملاً متكاملاً من جميع النواحي الإنشائية والمعمارية والفنية والجمالية.

في عام ١٥٨٨م رحل المعماري الشهير سنان عن عمر يقارب المئة، بعد أن قام بعمل ضريح متواضع لنفسه تعلوه قبة صغيرة، وبعد أن عاصر خمسة سلاطين، هم: بايزيد الثاني، وسليم الأول، وسليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث، مخلداً أعمالاً منتشرة في العالم الإسلامي، كانت مصدر إلهام لتلامذته الذين ساروا على نهجه حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر الميلادي (١).

سنان مصدر إلهام للمعماريين الحاليين

ومن النماذج المهمة التي أنشئت بأسلوب المعماري سنان جامع السلطان أحمد الشهير، أو الجامع الأزرق في مدينة إستانبول، الواقع أمام جامع أياصوفيا، ليرتفع



محراب جامع رستم باشا

بمآذنه الست وبقبته الضخمة التي يحيط بها نصفا قبة أصغر حجماً. اكتمل إنشاء هذا الجامع في عام ١٦١٧م، وأمر بإنشائه السلطان أحمد، ليكون استمراراً للمنهج المعماري التركي الذي اتخذه المعماري سنان.

وقد أسهم بعض المعماريين الأتراك والعرب في إحياء عمارة سنان وفي توظيف هذه التصاميم في عمارتنا الإسلامية الحديثة مثل المعماري وداد دالوكايا الذي صمم مسجد كوجاتبة بمدينة أنقرة على قمة كوجاتبة المرتفعة وعلى الطراز العثماني، وقد افتتحه عام ١٩٨٧م رئيس وزراء تركيا - في حينها- الراحل توركوت أوزال. وهناك المعماري نجيب دينج الذي صمم كلية وجامع صابونجي بأدرنة عام ١٩٨٨م، وجامع جامعة إنونو بمدينة ملاطيا بتركيا لتكون هذه النماذج امتداداً لعمارة سنان. ومن بين المعماريين العرب عبد الواحد الوكيل الذي استفاد من عمارة سنان في مسجد ابن لادن بجدة حيث وضع القبة على قاعدة سداسية ترتكز في أربعة من جوانبها على أنصاف قباب في شكل عقود قطرية وقد مكنه هذا من توسيع المربع إلى حيز مستطيل الشكل وهذه التجربة مقتبسة من مسجد سوكولو محمد باشا في إستانبول، وفي مسجد السليمان بجدة استخدم الوكيل القبة المرتفعة والمبنية بطريقة البناء التقليدية المتمثلة بالركائز الحرة دون استخدام القوالب ويكتمل سقف مساحة قاعة الصلاة الرئيسة كلها بواسطة ثلاث قباب أصغر حجماً على كل جانب من جوانب القبة الرئيسة. وهذا النموذج قد استخدمه سنان في تصاميمه أيضاً (٧).

المراجع والهوامش

١- جامعة البوغاز، إستانبول. أ.د عبد الله كوران، مجلة البناء، السنة السادسة- العدد ٣١ المحرم، صفر ١٤٠٧هـ-أكتوبر، نوفمبر ١٩٨٦م.

٢- المرجع السابق.

٣- جامعة إستانبول للتقنية. د. دوان كوبان. مجلة البناء، السنة السادسة . العدد ٣١ من المحرم، صفر ١٤٠٧هـ-أكتوبر، نوفمبر ١٩٨٦م.

٤- جامعة سنان . د. مرات أريج . إستانبول، مجلة البناء، السنة السادسة . العدد ٣١ من المحرم، صفر ١٤٠٧هـ-أكتوبر، نوفمبر ١٩٨٦م.

٥- أ.د بورمان سهنام أوغلي

6- Mimarbasi Kocasinan yasadagı cag ve eserleri I

٧- عمارة المساجد العثمانية في تركيا، محمود زين العابدين، صحيفة الحياة، العدد ٣٦٨٩ . ٥ جمادى الأخرة ١٤٢١هـ الموافق ٣ ايلول (سبتمبر) ٢٠٠٠م.
مجلة البناء، السنة السادسة . العدد ٣٤ رجب، شعبان ١٤٠٧هـ . أبريل، مايو ١٩٨٧م.

صدر عن دار الفيصل الثقافية

العدد الأول



مجلة تهتم بنشر الثقافة العلمية



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣٢٢) ربيع الآخر ١٤٢٤هـ يونيو ٢٠٠٣م.

الفائز الأول: سهير محمد الهنداوي. محافظة الغربية. مصر.
الفائز الثاني: رغد عارك بياري. عمان. الأردن.
الفائز الثالث: قاسم حمودة البنا. المدينة المنورة. السعودية.
الفائز الرابع: محمد عثمان صالح المدحجي. صنعاء. اليمن.
الفائز الخامس: عبدالله الرشيد محمد. الدوحة. قطر.
الفائز السادس: سعد عبدالواحد بن محمد السلمي. الدار البيضاء. المغرب.
الفائز السابع: سعيد عبدالرحمن عبدالقادر. محافظة الشرقية. مصر.
الفائز الثامن: رياض أحمد عبدالله الحلواني. إربد. الأردن.

حل مسابقة العدد (٣٢٢)

١- كأن الثريا عُلّقت فوق نحرها وجمر الغضى هبت له الريح ذاكيا
قائل البيت هو: سحيم عبد بني الحسحاس.
٢- الشرُغوف: فرخ الضفدع.
٣- شيفا: إله هندوسي يُعرف بالمُدمِّر.
٤- الروكفورت: جبن حاد المذاق.
٥- باتريس لومومبا: سياسي كونغولي ناضل من أجل تحرير الكونغو من الاستعمار البلجيكي.

- -

أسئلة مسابقة العدد (٣٢٥)

ضع علامة  **أمام الإجابة الصحيحة:**

(١) من قائل هذا البيت: ومَنْ يَسْتَعِن في أمره غير نفسه يخنه الرفيق العون في المسلكِ الوعْرِ

☐ أحمد شوقي
☐ المتنبي.

(٢) الزِّنْيَّة:

☐ وحدة النقد في بولندا
☐ فرقة بوذية تؤمن بأن في ميسور المرء أن ينفذ إلى طبيعة الحقيقة عن طريق التأمل.

(٣) فيلادلفيا:

☐ احد الأسماء القديمة لمدينة عمّان
☐ بحيرة أمريكية شهيرة.

(٤) ناتالي ساروت:

☐ كاتبة وأديبة فرنسية
☐ عالمة بلجيكية اشتهرت ببحوثها عن قرود الشمبانزي.

(٥) أشمون:

☐ جبل مملوء بالكهوف في الشمال الغربي من السعودية
☐ قلعة تاريخية في مدينة صيدا اللبنانية.

الاسم: ــــــــ المدينة: ــــــــ ص.ب: ــــــــ هاتف: ــــــــ

العنوان: ــــــــ الدولة: ــــــــ الرمز البريدي: ــــــــ ناسوخ: ــــــــ

نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى: ١٠٠٠ ريال.
الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال.
الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال.
الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال.
الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريالاً.
الجائزة السادسة: ١٥٠ ريالاً.
الجائزة السابعة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
الجائزة الثامنة: مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.

والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

تنويه:

نفيد الإخوة المتسابقين أن المجلة ستراعي ما حدث من تأخر في مواعيد صدور الأعداد الأخيرة لظروف فنية خارجة عن الإرادة، ولهذا فقد تم مدّ فترة تلقي المشاركات في المسابقات شهرين بدلاً من ٤٥ يومًا.



شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

عنوان المجلة

ص.ب (٣). الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١



الملف الثقافي

- أصيلة في يوبيلها الفضي
- إغلاق مركز الشيخ زايد
- رحيل شوقي عبد الحكيم وويلفريد ثيسيجر وويلش
- معرض دولي للكتاب في جدة
- خاتمة المطاف: ما فائدة الاتصال؟

باول كلي





المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار

أصدرت مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي في لندن مؤخرًا المجلد الثالث من كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» لشيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، ويشتمل هذا المجلد على الجزأين الخامس والسادس.

ففي الجزء الخامس الذي جاء تحت عنوان «ذكر ما أدرك عليه المقريزي القاهرة وظواهرها من الأحوال» يتناول المقريزي موضوعات تتعلق بـ «الخِطَط» فيذكر الحارات والأخطاط والدروب والأزقة والخُوَخ والرِّحاب والدُّور والقصور والإسطبلات والحمامات والقياسر والخانات والفنادق والأسواق والسويقات والأحكار الواقعة في ظواهر القاهرة الشمالية والجنوبية وفي البر الغربي للخليج، وكذلك تعرض المقريزي في هذا الجزء إلى ضواحي القاهرة البعيدة: المقْس والخندق ومنية الأمراء وأرض الطَّبَّالة وبولاق، وخصص جانبًا كبيرًا منه لذكر الخلجان الموجودة بظاهر القاهرة والقناطر القائمة عليها، وكذلك الجزائر المنتشرة في النيل والجسور التي تربط بينها، وختم المقريزي هذا الجزء بذكر السجون، ودور الصناعة التي كانت موجودة في المقس وجزيرة مصر والفسطاط، والميادين التي اتخذها السلاطين الأيوبيون والمماليك للعب الكرة (البولو polo) والتي أقيمت على الأخص في البر الغربي للخليج.

وكان الجزء السادس بعنوان «ذكر قلعة الجبل وملوكها»، وفيه تناول المقريزي بناء قلعة الجبل وأهم منشآتها وأبوابها وقاعاتها وقصورها ومساجدها، منذ أن بناها السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بإشراف الطواشي بهاء الدين قراقوش بين سنوات ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، و٥٧٩هـ/١١٨٣م، وحتى عصر الناصر فرج بن برقوق في العقد الثاني للقرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وتناول كذلك نظم دولة المماليك ورسومها، وذكر جيوش الدولة وزيها وعوائدها.

وختم المقريزي هذا الجزء بذكر ملوك مصر منذ أن بُنيت قلعة الجبل وحتى عصره، أي منذ استيلاء السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على السلطة في مصر وقضائه على الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وتأسيسه الدولة الأيوبية، وحتى تولي السلطان الأشراف برسباي - سابع سلاطين المماليك الشراكسة - سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م، وهو السلطان الذي وضع المقريزي اللمسات الأخيرة لكتابه في أثناء سلطنته التي انتهت بوفاته في ذي الحجة سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٨م، أي قبل وفاة المقريزي بنحو أربع سنوات.

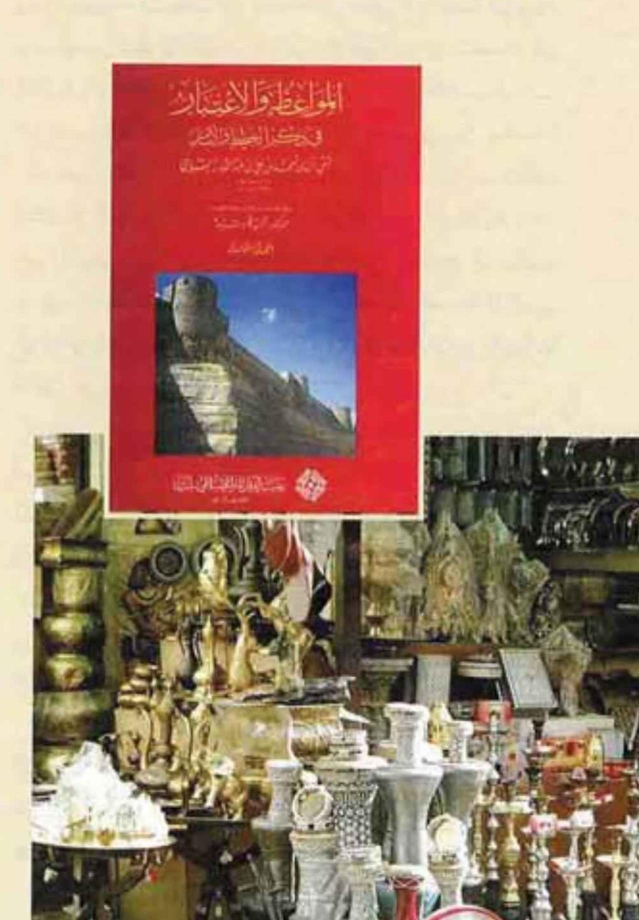
ويعد الدكتور أيمن فؤاد سيد الذي قام بإخراج هذا العمل من المتخصصين في دراسة تاريخ القاهرة، حيث كتب أطروحة عن «عاصمة مصر حتى نهاية عصر الفاطميين»، ونشر الكثير من مصادر التاريخ المصري في العصر الفاطمي وهو من خبراء علم المخطوطات، الذي أصدر فيه كتابه «الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات».

وقد اعتمد الدكتور أيمن في تحقيق هذا الكتاب على تسع نسخ نقلت جميعها عن خط المؤلف، منها نسخة مكتبة آياصوفيا بإستانبول رقم ٣٤٨٠، ونسخة المكتبة الوطنية بباريس رقم ar.٧٧٥٩، ونسخة مكتبة ميونخ بألمانيا رقم ١٠٧ وغيرها، إضافة إلى مسودتي الخطط المحفوظتين في متحف طوبقبو سراي بإستانبول، وأضاف إليه شروحًا وتعليقات اعتمادًا على ما ظهر من نصوص جديدة ودراسات متخصصة حديثة، كما قام بربط أجزاء الكتاب بعضها ببعض، وخرّج معلوماته من مصادرها الأصلية.

وأوضح المحقق (في المقدمة) أن المقريزي اعتمد في تأليفه هذا الكتاب على كثير من المصادر الأصلية، إضافة إلى المصادر التقليدية، كما اعتمد أيضًا على عدد من الأوراق الرسمية، و(الرواية) عمن أدركه من المشايخ، كما بدأت (المشاهدة) أكثر وضوحًا في المعلومات التي أوردها المقريزي في هذا المجلد.

ووثّق المحقق للمعلومات التاريخية التي وردت في الكتاب بالكثير من الصور والخرائط وصور المخطوطات،

كذلك ألحق بآخر الكتاب أربع خرائط مساحية للقاهرة التاريخية تبين امتداد المدينة واتساعها: الخريط الأولى هي الخريطة المعروفة بخريطة Matheo Pagano التي طبعت أول مرة في فينسيا عام ١٥٤٩م. والخريطة الثانية هي التي وضعها علماء الحملة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، والثالثة هي الخريطة التي رسمها جرانك بك Grand- Bey بأمر من الخديوي إسماعيل باشا للقاهرة عام ١٨٧٤م، والأخيرة هي الخريطة التي وضعتها مصلحة المساحة المصرية عام ١٩٤٨م، في لوحتين تبين مواضع الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة.



أصيلة في يوبيلها الفضي

ترأس محمد الأشعري وزير الثقافة المغربي في الثالث من أغسطس/آب الماضي الدورة الخامسة والعشرين لموسم أصيلة الدولي بحضور عدد كبير من الضيوف يتقدمهم رئيس جمهورية كولومبيا ووزير الثقافة المصري فاروق حسني. وقد تناول محمد بن عيسى الكاتب العام لمؤسسة منتدى أصيلة ووزير خارجية المغرب في كلمته تجربته الطويلة مع أصيلة التي بلغت ٢٥ عامًا من الكد والصبر والمثابرة والالتزام، وقال الوزير إنه لا يصدق أن مدينته الصغيرة (أصيلة) المنزوية في حضن المحيط تحتفل اليوم فعلاً بيوبيلها الفضي، وأوضح ابن عيسى أن موسم أصيلة لا يعني إليه مجرد مهرجان سنوي كبقية المهرجانات، بل هو: «أول منتدى لحوار الثقافات خارج الحواضر الكبرى والصالونات ومراكز الاستقطاب». وأكّد هذه الفكرة أيضًا وزير الثقافة المغربي محمد الأشعري في كلمته حين قال: «إن موسم أصيلة هو أحد الأجوبة الأساسية التي تم تقديمها عام ١٩٧٨م عندما كان المغرب يخطو خطواته الأولى على درب البناء الديموقراطي».

وشهدت احتفالات هذا العام عددًا من الكلمات التي ألقيت في هذه المناسبة، منها كلمة عزيزة بناني سفيرة المغرب لدى اليونسكو ورئيسة جامعة المعتمد بن عباد الصيفية، وشريف خزندار مدير دار ثقافات العالم، وغسان عبدالخالق منسق ندوات الموسم، بالإضافة إلى كلمة كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة، التي أشادت بالدور الثقافي الذي يلعبه هذا الموسم الذي يمثل موعدًا للحوار والإيمان بالاختلاف.

كما شهدت احتفالات الموسم هذا العام التي حضرها أكثر من ٤٠٠ مبدع ومفكر وإعلامي من مختلف أرجاء العالم، قيام ثلاثة معارض كبرى للفنانين: فاروق حسني وزير الثقافة المصري، والفنان المغربي الحسين الميلودي الذي يعد من الرواد الأوائل في التجربة التشكيلية التي كرستها أصيلة منذ عام ١٩٧٨م، بالإضافة إلى معرض استيعادي يؤرخ لهذا الموسم منذ دورته الأولى.

صراحة شاعر

لا يخشى اندرو موشن شاعر بريطانيا الرسمي ما يمكن أن تجلبه له أشعاره التي يطلق فيها العنان لآرائه.

وكان موشن قد اختاره رئيس الوزراء عام ١٩٩٩م للمنصب الذي يرجع تاريخه إلى ٣٠٠عام. ووافقت الملكة على هذا الاختيار. وعلى مدى هذه السنوات كتب موشن أشعارًا عن الأسرة المالكة .. ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك بل امتدت كتاباته إلى كل شيء بدءًا بحوادث القطارات وانتهاء بنقابات العمال.

وكان شاعر البلاط الملكي قد أحدث هزة قوية في أبريل/نيسان الماضي عندما كتب قصيدة دان فيها الحرب على العراق. في الوقت الذي كانت فيه قوات بريطانيا تقاتل جنبًا إلى جنب مع القوات الأمريكية للإطاحة بالرئيس العراقي صدام حسين.

وفي مقابلة أجرتها رويترز مع موشن على هامش مهرجان أدنبره. تطرق في حديثه إلى قصيدة «تغيير النظام». وقال الشاعر الذي تبعد معظم اعماله عن السياسة أن الحكومة لم تسع أبدًا لإسكاته. وأضاف: «قد لا يروق لهم الخط الذي انتهجه فيما يتعلق بأمور معينة لكنهم لم يحدثوني قط عن هذا الأمر. ولم أجد تذمرًا أو تربصًا». والآن وبعد أن انتهت الحرب رسميًا يقول موشن إن غضبه منها أصبح أكبر وأقوى.

وسئل عما إذا كانت معارضته للحرب قد هدأت بعض الشيء فأجاب «كلا .. على العكس تمامًا مثلي مثل الآلاف إن لم يكن الملايين. الأمر برمته كان مشينًا».

وسبقت موشن في منصب شاعر البلاد الرسمي أسماء معروفة منها جون درايدن واللورد تنيسون وغيرهما.

إغلاق مركز الشيخ زايد!!

أمر رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد ابن سلطان آل نهيان بإغلاق مركز «الشيخ زايد الدولي للتنسيق والمتابعة» الذي تموله الدولة بسبب ما وصف بانحراف المركز عن مبادئ التعايش والتسامح بين الأديان!! ولم يذكر البيان الرسمي الذي صدر عن مكتب رئيس الدولة المزيد من التفاصيل حول إغلاق المركز الذي يتخذ من أبوظبي مقرًا له ويعمل تحت مظلة جامعة الدول العربية منذ تأسيسه عام ١٩٩٩م.

وكان منتقدون غربيون قد اتهموا المركز بأنه يستضيف متحدثين يحضون على كراهية اليهود ويدعمون نظرية المؤامرة المعادية للولايات المتحدة. في إشارة إلى استضافة المركز عددًا من الشخصيات التي أثارت جدلاً. منهم: محمد أحمد حسين من جامعة القاهرة والذي قال إن قضية (الهولوكوست) تستغلها ماكينة الدعاية اليهودية من أجل ترويج الكراهية ضد غير اليهود. والتغطية على المذابح التي ترتكبها إسرائيل. ومنهم كذلك تيري ميسان. مؤلف كتاب الخدعة الكبرى الرافض للرواية التي قدمتها الحكومة الأمريكية لما حدث في هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

وكان سياسيون وأكاديميون ومثقفون بارزون من مختلف الدول العربية قد بدأوا حملة توقيعات تضامنًا مع المركز في هذه الحملة الصهيونية التي يتعرض لها. ووصف هؤلاء الموقعون الذين بلغ عددهم نحو ١٥٠شخصية. هذه الحملة بأنها تعادي كل جهد مخلص يهدف إلى تنوير الرأي العام العالمي وتثقيفه لفهم القضايا العادلة. ولا سيما قضية العرب المركزية فلسطين.

وقد عدت جامعة الدول العربية قرار دولة الإمارات العربية إغلاق مركز زايد بأنه خسارة كبيرة. معلنة في الوقت نفسه انها لم تتلق أي بلاغ رسمي بإغلاق المركز حتى الآن.

من جهتها رحبت رابطة مناهضة التشهير ADL التي تتخذ من نيويورك مقرًا لها بإغلاق المركز. وقالت في بيان أصدرته بهذه المناسبة: «رحبت رابطة مناهضة

التشهير بالتقارير التي أشارت إلى إغلاق ممون رئيسي لمعاداة السامية في العالم العربي من قبل حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة».

والجدير بالذكر أن مركز زايد العالمي للتنسيق والمتابعة قد أسس انطلاقًا من رؤية صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة من أجل تعزيز التضامن والتعاون العربي في ظل مبادئ جامعة الدول العربية وأهدافها، ويرأس المركز، الذي يحمل اسم الشيخ زايد، نجله الشيخ سلطان.

رحيل شوقي عبدالحكيم

توفي في السادس عشر من آغسطس/آب الماضي الكاتب المصري والباحث في شؤون التراث الشعبي شوقي عبدالحكيم عن عمر يناهز ٦٩عامًا بعد صراع مع المرض استمر بضعة أشهر.

ولد عبدالحكيم بمحافظة الفيوم إلى الجنوب الغربي من القاهرة ودرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم عمل بالصحافة وتعرض للسجن في ستينيات القرن الماضي، ثم غادر القاهرة للعمل ببيروت لفترة، كما أقام بلندن بضع سنوات لإنجاز بعض دراساته في الأدب الشعبي.

وترك الراحل ما يزيد على ٤٠ كتابًا في الفنون الأدبية المختلفة منها رواية «أحزان نوح»، وعددًا من المسرحيات من بينها «ملك عجوز»، و«شفيقة ومتولي»، و«شبابيك»، و«لعب الملوك»، و«سعدى ومرعي» أما مسرحية «بمالي أعمل ما بدالي» فكانت آخر ما عرض له مؤخرًا بمسرح الطليعة بالقاهرة.

وتحول عدد من أعماله إلى الدراما التلفازية، وله العديد من الدراسات، منها: «الشعر العربي من المهد إلى اللحد»، وموسوعة «الأساطير والفولكلور»، أما كتابه «علمنة الدولة وعقلنة التراث» فقد أثار رفض بعض دارسي الأدب الشعبي حيث طالبوا بالإبقاء على التراث الشعبي كما هو بحسبه معبرًا عن عصر مضى بسياقه السياسي والاجتماعي والثقافي.

فوز المقالح

منحت الحكومة الفرنسية وسام الجمهورية الفرنسية بدرجة فارس في الآداب والفنون للدكتور عبدالعزيز المقالح المستشار الثقافي للرئيس اليمني علي عبدالله صالح ورئيس مركز الدراسات والبحوث اليمني تقديرًا لإبداعه المتميز في شتى ضروب الأدب من شعر ونقد، إذ ترجم كثير من إنتاجه الأدبي لمختلف لغات العالم، ويعد هذا الوسام أعلى وسام للآداب والفنون في فرنسا.

وقال السفير الفرنسي في اليمن بيير بواليه الذي قلّد الوسام للمقالح نيابة عن حكومة بلاده في احتفال أقيم في مبنى السفارة الفرنسية في صنعاء: «إن هذا الوسام الذي منح للمقالح يجسد مدى ما يحظى به الدكتور المقالح من تقدير رسمي وشعبي في الأوساط الفرنسية»، وأضاف السفير الفرنسي: «لقد نجح هذا الشاعر والأديب في تجسيد معنى ما يجب أن يكون عليه الأديب بأقصى ما تتسع له هذه المفردة من معنى».

من جانبه عدّ الدكتور المقالح هذا التكريم الذي حظي به تكريمًا للثقافة والإبداع والمبدعين اليمنيين، وقال: «لا أحد ينسى فضل الثورة الفرنسية على شعوب العالم وهي التي كانت بمثابة نافذة العصر الحديث إلى العدل والحرية والمساواة».

والجدير بالذكر أن المقالح كان قد سبق له الفوز من قبل بعدد كبير من الأوسمة والجوائز منها: جائزة اللوتس العالمية، وجائزة منظمة اليونسكو وغيرها.



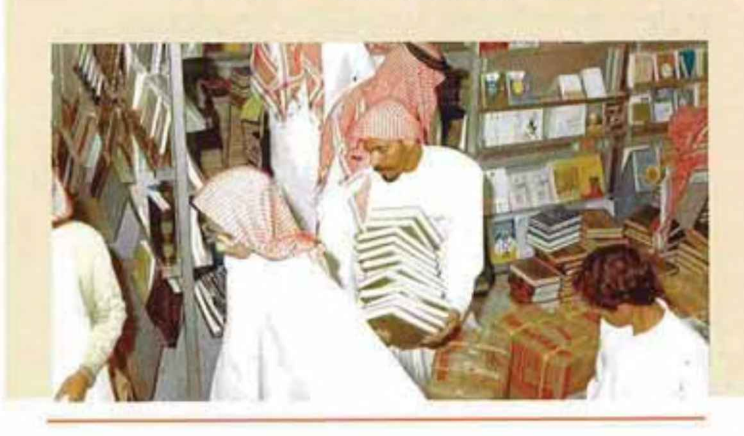
معرض دولي للكتاب في جدة

يقام في مركز جدة الدولي للمعارض والمؤتمرات في الفترة من ١١ إلى ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ، الموافق ٥ إلى ١٤ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٣م، معرض جدة الدولي الثاني للكتاب والمعلومات الذي تنظمه شركة الحارثي للمعارض بالتعاون مع عمادة شؤون المكتبات بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

وقد أعلنت الشركة المنظمة اعتماد مشاركة ١٢٠٠ دار نشر حتى الآن، إذ تم حجز نحو ٧٠٪ من المساحة المخصصة للعرض، كما أوضح محمد جمال مدير الشركة، وأضاف جمال: أن المشاركات الدولية تميزت بعدد ضخم من العناوين المتنوعة في مختلف التخصصات والمجالات، وسوف يتم الفسح المبدئي لهذه الكتب من وزارة الإعلام السعودية، والفسح النهائي على أرض المعرض من قبل جامعة الملك عبدالعزيز مبكرًا قبل الافتتاح بوقت كاف.

ومن أبرز دور النشر المشاركة في هذا المعرض على المستوى المحلي: من السعودية الرشد، والعبيكان، وكنوز المعرفة، ودار مكتبة المعرفة، ودار الوراق، ودار عالم الكتب للنشر. ومن الدول العربية: من الكويت مجلس النشر العلمي، ومكتب الدراسات الكويتية بإشراف ومشاركة جامعة الكويت، ومن لبنان: دار الطليعة للنشر، وغادة السمان، ودار الكتاب العربي، ودار مكتبة الهلال، ودار المعرفة، ودار ابن حزم، ومن سورية: دار ورد، ودار الحصاد، ودار الحوار. ومن مصر: دار الفاروق، ودار الكتاب الجامعي، ودار العلم للملايين، ومكتبة الأنجلو. ومن الإمارات العربية المتحدة: دار مكتبة الصحابة، ومن الأردن: دار وائل للنشر، ودار الكندي، ودار مجدلاوي، بالإضافة إلى دور النشر العالمية مثل معهد فنكن فيرج من ألمانيا، ودار سوزلر من تركيا، ودار الثقافة والفن الإيراني من إيران.

ويشار إلى أن إدارة المعرض خصصت نحو ٢٥٠٠ متر مربع لدور النشر المتخصصة في مجال كتب الأطفال كدار ربيع، ودار العلماء الصغار، ومكتبة عالم الأطفال من سورية، ودار الإسراء، ودار صفا من الأردن.



اكتشافات أثرية جديدة في اليمن

أعلن فريق أثري يمني مؤخرًا عن اكتشاف موقعين أثريين مهمين. اكتشف الموقع الأول في منطقة همدان في ضواحي العاصمة اليمنية صنعاء، وهو كهف ضخم يحتوي على مجموعة من عظام الحيوانات المختلفة التي يرجح أن بعضها منقرض أو في طريقه إلى الانقراض، وذلك لكبر حجم السلسلة الفقرية وكبر عظمة الفكين. ويرجح الآثاريون في اليمن أن تكون هذه العظام لوحيد القرن الذي كان يعيش في اليمن في العصور الحجرية السحيقة أي قبل أكثر من ٥٠ ألف عام.

وكان الاكتشاف الثاني في إحدى مديريات محافظة إب بوسط اليمن، وقد تمثل في العثور على كميات كبيرة من العملات النقدية القديمة التي يُراوح عمرها ما بين ٧٠٠ و ١٠٠٠ عام حسب المؤشرات الأولية، وقد كُتب على بعض هذه العملات عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم»، وحمل بعضها صورة أسد، ورسم على بعضها نخلة، ويتوقع علماء الآثار في اليمن أن تلقي هذه الاكتشافات المزيد من الضوء على الفترة التي تلت دخول الإسلام إلى اليمن.

كتب وجائزة

قررت مؤسسة عبدالمحسن القطان في فلسطين بالتعاون مع دار الآداب البيروتية طباعة ثلاثة كتب جديدة هي الكتب الفائزة في المسابقة التي نظمتها المؤسسة ضمن برنامجها السنوي للثقافة والعلوم الذي أطلقته في العام ٢٠٠٠م، لتحفيز المبدعين الشباب ورعايتهم، وسيتيح هذا المشروع، الذي جاء في إطار مشروع النشر الأدبي، فرصة جيدة للقارئ العربي للاطلاع على الأصوات الأدبية المتميزة في فلسطين.

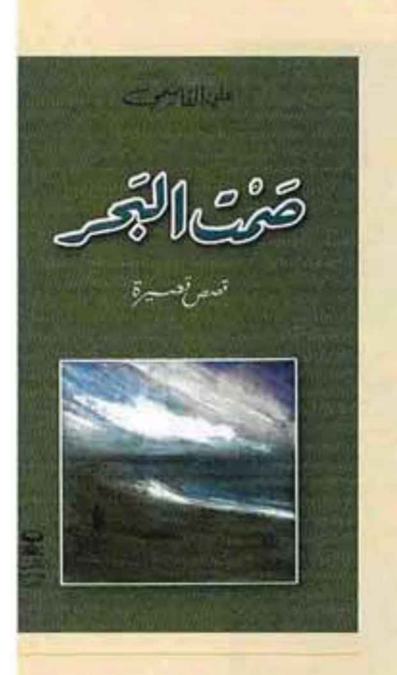
وكان أول الكتب الفائزة هو ديوان الشاعر بشير شلش (من الجليل) بعنوان (حصاد العاصفة)، وقد فاز بجائزة الكاتب الشاب في مجال الشعر، ويقع الديوان في مئة وأربع صفحات من القطع المتوسط، وهو يعد التجربة الثالثة للشاعر شلش. وقد وصفت لجنة التحكيم الديوان بأنه (يتميز بسهولة تعبيرية)، وجاء في حيثيات اللجنة أن الاختيار قد تم في إطار محاولة متابعة أفضل التقاليد التي أرستها تجارب قصيدة النثر العربية منذ الشاعر محمد الماغوط حتى يومنا هذا، مع الحرص على تطوير أسلوبية شخصية خاصة بالشاعر.

وجاء الكتاب الثاني بعنوان (متون) وهو مجموعة قصصية للقاص الشاب ماجد عاطف (من رام الله) وقد فازت المجموعة بجائزة الكاتب الشاب في مجال القصة القصيرة مناصفة مع مجموعة قصصية أخرى بعنوان «قصص لأوقات الحاجة» للقاص الشاب علاء حليحل من (حيفا)، ورأت لجنة التحكيم في مجموعة (متون) أنها «نجحت إلى حد كبير في إثارة الإعجاب والتقدير لقدرتها على غربلة تفاصيل الحياة اليومية الفلسطينية الخاصة، ومن ثم إعادة تركيبها في سياقات إنسانية كونية واسعة الدلالة وبارعة الترميز، بلغة مكثفة وجمل محكمة دون استطراد وتطويل». ووصفت لجنة التحكيم مجموعة «قصص لأوقات الحاجة» بأنها «تتميز بأجواء من الطرفة تعيد إلى الأذهان أدب الكاتب الراحل أميل حبيبي ولكن دون تقليد». والمعروف أن مؤسسة القطان هي مؤسسة خيرية تهدف إلى دفع عملية التنمية الثقافية والتربوية والعلمية والوعي الفكري للشعب العربي عامة وللشعب الفلسطيني بشكل خاص، وقد أُسست عام ١٩٩٤م، وتم تسجيل فرع لها في فلسطين عام ١٩٩٨م.

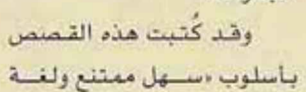
صمت البحر

صدرت عن دار الثقافة في الدار البيضاء مجموعة قصصية جديدة بعنوان «صمت البحر» للكتاب العراقي المقيم في المغرب، الدكتور علي القاسمي. وكانت دار النشر ذاتها قد أصدرت في مطلع هذا العام مجموعة قصصية أخرى للكاتب نفسه بعنوان «رسالة إلى حبيبي».

وتقع المجموعة القصصية الجديدة في ١٣٦ صفحة من القطع المتوسط، وتشتمل على اثنتي عشرة قصة قصيرة عناوينها كالآتي: صمت البحر، والرسالة، والأستاذ والحسناء، والكاتب والمسافرة، وأخضر العينين، والغيرة القاتلة، وإنه الربيع، والظلال الملتهبة، والغائبة، والشاعرة، ورسالة من فتاة غريرة، وعارضة الأزياء. وازدان غلاف الكتاب بلوحة زيتية بحرية للآنسة علياء القاسمي، ابنة الكاتب. ويلاحظ أن منجزات التكنولوجيا الحديثة، وخاصة تكنولوجيا المعلومات والاتصال، حاضرة بقوة في عدد من قصص هذه المجموعة.



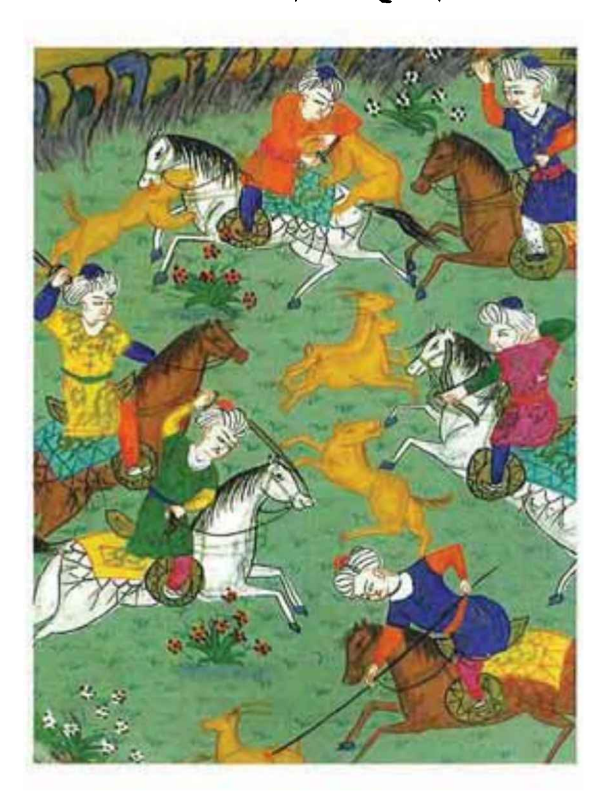
وقد كُتبت هذه القصص بأسلوب «سهل ممتنع ولغة



متميزة تُراوح بين الأسلوب الشعري وأسلوب الحكاية البسيطة»، كما وصفها الأستاذ عبدالكريم غلاب. ولكن بساطة الأسلوب وشفافية اللغة وسحر الموضوع، تخفي وراءها واقعًا عميقًا وخيالاً بهيًا، ومضمونًا يحتمل تأويلات متعددة بفضل «تفاعل القاسمي مع الكتابة الإبداعية على عدة مستويات. كترجمته لأعمال قصصية وروائية عالمية، وتمثّله الواسع للتراث الثقافي الأدبي العربي»، كما يقول الناقد المغربي عبدالرحيم العلام.

أدب الرحلة العربي

يجري العمل حاليًا في مدينة بيروت على انجاز مشروع أدبي يكرس لأدب الرحلة منذ القرن العاشر الميلادي حتى وقتنا الحاضر، وذلك بهدف بعث المخطوطات العربية والإسلامية ونشرها ضمن سلاسل أدبية تجمع أدب الرحلة العربي وتحيي العلاقة بين الأدب والمكان، وتحفز الكتّاب العرب إلى تدوين يومياتهم خلال ترحالهم خارج أوطانهم.



ويقوم بتنفيذ هذا المشروع الذي يجيء تحت عنوان «ارتياد الآفاق» نخبة من الباحثين والدارسين، موزعين على عدد من مراكز البحث والاستقصاء في بيروت وأبو ظبي والرباط ولندن، وذلك من أجل دراسة نصوص ما زال أغلبها مجهولاً في مكتبات عدد من الدول العربية والإسلامية والأوربية.

وقال القائم على المشروع الشاعر السوري نوري الجراح، كما جاء في صحيفة الشرق الأوسط: إن أدب الرحلة العربي في الفترة ما بين سقوط الأندلس حتى سقوط الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى احتوى على ثروة أدبية مهملة تشكل بحد ذاتها مكتبة كاملة غائبة تجب إعادة إحيائها وتظهير جوانبها.

وأضاف أن البرنامج يشتمل على مجموع من السلاسل المكرسة لحقب تاريخية بالاعتماد على مادة أدبية كانت لوقت قريب مجهولة رغم أنها ثرية تبدأ من رحلة ابن فضلان في عصر المقتدر في بلاد الصقالبة، والرحلات إلى الصين حتى رحلات من يسمون بالنهضويين العرب للغرب، وعلى وجه الخصوص أوربا، أمثال الشدياق وفرنسيس المراش وسليم بسطري وطه حسين ومحمود تيمور وزكي نجيب محمود وغيرهم، مشيرًا إلى أسماء مشهورة جدًا في مجال أدب الرحلة سيكشف عنها من خلال المشروع.

وأشار الجراح كذلك إلى أن السلسلة الأولى من المشروع تحمل اسم مئة رحلة عربية إلى العالم صدر منها إلى الآن ٢١ رحلة بعضها كان عبارة عن طبعات حجرية انجزت أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين وبعضها الآخر عبارة عن مخطوطات درست وتم نشرها.

وفاة الكاتب الأمريكي جيمس ويلش

أعلنت جامعة مونتانا مؤخرًا وفاة الكاتب الأمريكي جيمس ويلش عن عمر يناهز ٦٢ عامًا بسرطان الرئة، وكان ويلش، الذي يعمل بالتدريس في الجامعة، قد خصص قسمًا كبيرًا من أعماله لثقافة الهنود الحمر.

ولد ويلش في ١٩٤٠م. وعاش في محمية للهنود في مونتانا ويتحدث في كتبه مطولاً عن ثقافتهم ووضعهم في المجتمع الأمريكي المعاصر.

ومن أبرز مؤلفاته: «موت جيم لوني». و«مثل ظلال على الأرض». والمحامي الهندي».

رحيل ويلفريد ثيسيجر

توفي في الرابع والعشرين من أغسطس/آب الماضي الرحالة والكاتب والمستشرق البريطاني ويلفريد ثيسيجر عن عمر يناهز ٩٣ عامًا، وقد عرف عن ثيسيجر شغفه بالبادية العربية، بالإضافة إلى اهتمامه بالجغرافيا والانثروبولوجية، والرحلات التي زار فيها عددًا كبيرًا من أقطار آسيا وإفريقية.

ولد ثيسيجر عام ١٩١٠م في العاصمة الأثيوبية أديس أبابا، إذ كان والده يعمل قنصلاً عامًا لبريطانيا في بلاط النجاشي منليك، وعاش السنوات السبع الأولى من عمره هناك، وتلقى دراسته في كلية إيتون، ثم جامعة أكسفورد، وعمل في جهاز الإدارة السياسية في السودان بين أعوام ١٩٣٥و١٩٤٠م، ثم قوة دفاع السودان إبان الحرب العالمية الثانية، والتحق بعدها بالقوات الخاصة في الصحراء الغربية، ثم عاد إلى أثيوبيا مرة أخرى ليعمل مستشارًا لولي عهد أثيوبيا، عاد بعدها إلى شبه الجزيرة العربية، ثم رحل إلى كينيا قبل أن يتقاعد في جنوب لندن.

أحب ويلفريد ثيسيجر الرحلات منذ نعومة أظفاره في إفريقية، ثم بعد ذلك إلى مناطق أخرى من آسيا مثل الهند وكردستان وكشمير وافغانستان إلى جانب الجزيرة العربية. وقد نال ثيسيجر شهرة كبيرة بعبوره صحراء الربع الخالي مرتين، على الرغم من أنه لم يكن الأول في هذا الإنجاز الذي سبقه إليه برترام توماس عام ١٩٣٢م، ثم سنتجون فيلبي، لكنه تفوق عليهما بإنجازه للعبورين كالبدو مكتفيًا بالقليل من القوت، ومرتديًا زيهم وسالكًا مسالكهم في الصحراء.

وكانت حصيلة ثيسيجر، الذي ظل عازبًا طوال حياته، من هذه الرحلات عددًا من المؤلفات منها: «الرمال العربية» ١٩٥٩م، و«عرب الأهوار» ١٩٦٢م، و«حياة من اختياري» ١٩٨٧م، و«أيامي في كينيا» ١٩٩٤م، و«وسط الجبال: رحلات في آسيا» ١٩٩٨م، و«عالم يختفي».

متحف عبدالناصر

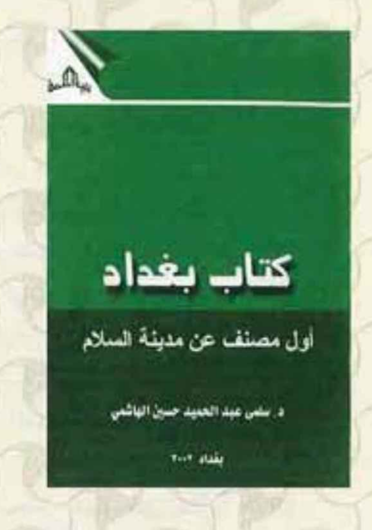
قدمت الدكتورة هدى عبدالناصر ابنة الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر مقتنيات والدها الأثرية وصوره إلى متحف جديد أقامه أهل قرية فرعونية على ضفاف النيل باسم عبدالناصر، وتلقي مقتنيات هذا المتحف الضوء على فترة حكمه الذي امتد من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٠م.

ويضم المتحف كذلك صورًا نادرة تؤرخ لحياة عبدالناصر منذ التحاقه بالجيش، وتكوين تنظيم الضباط الأحرار، وزياراته الداخلية والخارجية. كذلك يؤرخ المتحف للمعارك السياسية الشهيرة التي قادها عبدالناصر مثل معركة تأميم قناة السويس، ومعركة بناء السد العالي.

ويضم المتحف صور نادرة للقاءات أجراها الرئيس الراحل مع عدد من الشخصيات المشهورة منها صورة تضمه والمغفور له الملك فيصل بن عبدالعزيز، والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، ولقطة توديعه أمير دولة الكويت والتي أخذت قبل وفاته بساعات عام ١٩٧٠م، بعد انفضاض مؤتمر القمة العربي الاستثنائي الذي عقد بمصر من أجل وقف نزيف الدم بين الفلسطينيين والأردنيين.

ويضم المتحف أيضًا بعض المقتنيات الشخصية الأصلية للرئيس الراحل، منها تمثال صغير لعبدالناصر يحمل صورته من مادة الجبس باللون النحاسي، والعلم المصري الذي رافق مركبة أبللو الأمريكية في رحلتها إلى القمر وعليه بعض الاحجار التي جلبت من سطح القمر.



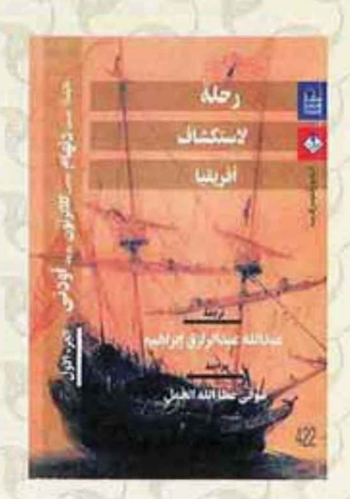


الهاشمي، سلمى عبدالحميد/ كتاب بغداد: أول مصنف عن مدينة السلام - بغداد: بيت الحكمة، ٢٠٠٢م، ٣٩٧ص.

صنف عدد من كبار المؤرخين العرب مؤلفات تاريخية قيمة، تضمنت موضوعات مختلفة مثلت شتى جوانب الحياة السياسية والعسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعمرانية، فمن يتصفح كتب الفهارس العامة وكتب التراجم يتعرف إلى عناوين تلك المؤلفات التي ضاعت - مع الأسف - نسبة كبيرة منها؛ إذ لم يبق لبعضها سوى ذكر أسمائها أو نصوص متناثرة ضمن مؤلفات أخرى، أما بعضها الآخر فقد كان نصيبها أوفر؛ إذ وصلت أجزاء منها، في حين فقدت بقية أجزائها الأخرى. ويقع هذا الكتاب ضمن هذه المؤلفات، وهو كتاب بغداد لأبي الفضل أحمد بن طيفور «ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م»، الذي وصل منه جزء واحد فقط هو الجزء السادس الخاص بأخبار بغداد في عهد الخليفة المأمون.

ولأهمية الكتاب، قامت المؤلفة بدراسة مفصلة لحياة أحمد بن طيفور وكتابه ويشمل ذلك دراسة النصوص الضائعة والجزء المطبوع منه، كما درست ذيل كتاب بغداد الذي تممه عبيدالله بن أحمد بن طيفور «ت ٣١٣هـ/ ٩٢٥م»، والذي يضم أخبار بغداد في عهود أربعة خلفاء هم: المعتمد، والمعتضد، والمكتفي، وجزء من عهد الخليفة المقتدر بالله؛ لأن كتاب بغداد وذيله لـ«الأب والابن» يبدوان وكأنهما كتاب واحد متصل، مما حمل بعض المؤرخين وكتاب التراجم على الخلط في نسبة بعض الروايات الخاصة بكلا الكتابين.

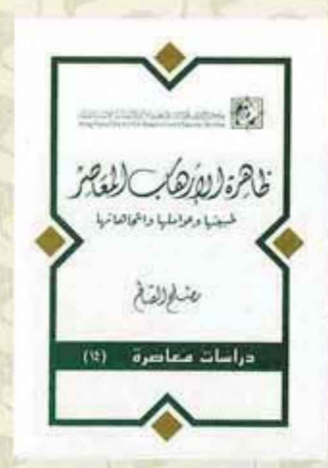
كما كشفت المؤلفة عن روايات كتاب بغداد الضائعة في نقولات الطبري والمسعودي، وأبي الفرج الأصفهاني، والخطيب البغدادي، وابن الجوزي، وابن النجار وآخرين.



دنهام، «وآخرون»/رحلة لاستكشاف إفريقيا «الجزء الأول»، ترجمة: عبدالرازق إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا الله الجمل- القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م، ٢٦٥ص، «المشروع القومي للترجمة: ٤٢٢».

يتناول هذا الكتاب قصة الرحلة التي قام بها ثلاثة من الرحالين البريطانيين في الربع الأول من القرن التاسع عشر إلى شمال إفريقيا ووسطها من أجل الكشف والبحث عن هذه المناطق من القارة الإفريقية، ومن ثم فهو أول سجل تاريخي يحكي قصة هؤلاء المغامرين الذين تحملوا المشاق والمتاعب في هذه الصحراوات ذات الحرارة العالية والأمراض الفتاكة التي أودت بحياة أحدهم، وهو الرحالة الدكتور أدوني بعد صراع طويل مع المرض والطبيعة القاسية، وهؤلاء الرحالون أوائل الأوربيين الذين توغلوا في ممالك السودان الغربي في الكانم والبرنو، وقدموا وصفًا تفصيليًا لحياة هذه الشعوب وعاداتها وتقاليدها وخيراتها بالتفصيل الذي لاغنى عنه لأي باحث يريد الحديث عن هذه الشعوب، وقد زاد من قيمة هذه الرحلة التي استمرت ثلاث سنوات أنهم توغلوا في قلب دولة سوكوتو الإسلامية وأقاموا عند الخليفة محمد بلو وتعرفوا على الكثير من العادات الإسلامية مع وصف دقيق للحياة في هذه الإمبراطورية التي كان الأوربيون

يجهلون الكثير عنها وعن الحضارة الإسلامية الزاهرة في قلب القارة، وكانت هذه الرحلة التي تقع في جزأين بداية رحلات أخرى للرحالة هنري بارث الألماني الذي زار هذه المناطق، وأكمل الصورة عن هذه الشعوب، وكانت هذه الرحلات والاستكشافات هي التي مهدت الطريق للأوربيين لاستعمار الكثير من مناطق وسط القارة وغربها.

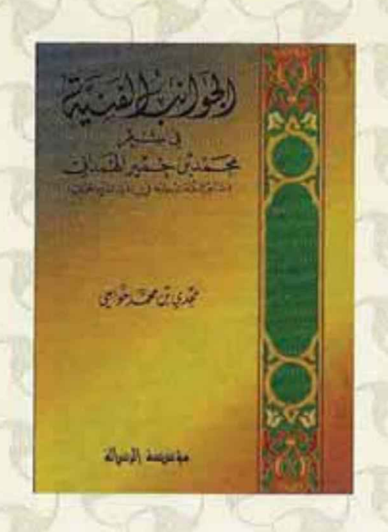


الصالح، مصلح/ ظاهرة الإرهاب المعاصر: طبيعتها وعواملها واتجاهاتها ـ الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م،١١٦ص، «سلسلة دراسات معاصرة؛ ١٤».

الإرهاب ظاهرة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، وقد أصبحت في الآونة الأخيرة أداة لتحقيق الأهداف التي يعجز عن تحقيقها الأفراد والجماعات والدول بالوسائل المعتادة. وقد أصبحت هذه الظاهرة محل اهتمام صناع القرار في مختلف دول العالم، بل أصبحت موضوعاً للتحليل الأكاديمي وأسست لدراستها المعاهد ومراكز البحوث ورصدت لها الميزانيات الضخمة من أجل ضبطها ومواجهتها، وتأتي هذه الدراسة في هذا السياق ـ وقد قسمت على ثلاثه أبواب بالإضافة إلى المقدمة، والخاتمة.

خصص الباب الأول لمفهوم الإرهاب وتصنيفاته، أما الباب الثاني فقد خصص لعوامل الإرهاب المعاصر، وتضمن الفصل الأول العوامل الاجتماعية والاقتصادية للإرهاب، والفصل الثاني العوامل السياسية. بينما خصص الباب الثالث لاتجاهات ظاهرة الإرهاب وتطورها عالميًا.

وفي الخاتمة طلب المؤلف مراعاة عدد من الاعتبارات لتحديد أعمال الإرهاب وتعريفه، وتفسيره، وفهمه بصورة صحيحة، كما أورد عددًا من الآليات والإجراءات للوقاية من الإرهاب ومكافحته، ونبه في نهاية الكتاب على أن الشواهد تشير إلى إن الإرهاب سوف يكون أكثر حدة وانتشارًا في المستقبل، وأنه سوف يتحول من مجرد لفت الأنظار إلى قضية ما وبثها بين الناس إلى إستراتيجية في التدمير الشامل، وأن ذلك يتحقق إذا استخدم الإرهابيون أسلحة الدمار الشامل من بيولوجية، وكيماوية، ونووية.



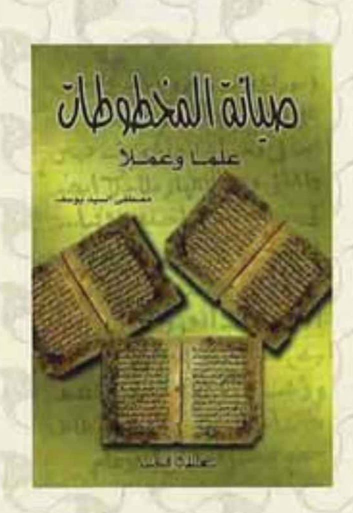
خواجي، مجدي بن محمد/ الجوانب الفنية في شعر محمد بن حمير الهمداني «شاعر الدولة الرسولية في القرن السابع الهجري» ـ بيروت مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ٢٣٩ص.

تتبع أهمية هذه الدراسة من المكانة الأدبية التي يتمتع بها محمد بن حمير الهمداني شاعر الدولة الرسولية في اليمن «القرن السابع الهجري»، ولسان حال ذلك العصر، والناطق بأحداثه، والمعبر عن خصائصه، إلى جانب كثرة اتصالاته الشخصية، وتعدد موضوعاته الشعرية، مما يحفز الباحث إلى استقراء تلك النصوص بشي من التأني والروية.

جاء الكتاب في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة، تناول في المقدمة أهمية الموضوع ودوافعه، وجاء في التمهيد نبذة من حياة الشاعر، شملت اسمه ونسبه، ومولده ونشأته،



واتصالاته برجال عصره، وشخصيته، ووفاته، وآثاره الأدبية.
وتناول في الفصل الأول سمات شعره الفنية، وتضمن عدة محاور من: بناء القصيدة، والمعاني، والعاطفة، والصورة الفنية، والألفاظ والتراكيب، والموسيقى الشعرية، وعرضت الدراسة في الفصل الثاني آراء النقاد في شعر ابن حمير سواء من القدماء أو المعاصرين، مع بيان وجهة نظر الباحث في تلك الآراء.
وسجل في الخاتمة خلاصة ما توصلت إليه الدراسة من نتائج نقدية حول شعر ابن حمير ومميزاته الفنية.



يوسف، مصطفى السيد/صيانة المخطوطات علمًا وعملاً ـ القاهرة: عالم الكتب، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٢٤٠ص.

هذه هي الطبعة الثانية من هذا الكتاب، وهي طبعة معدلة وبها زيادات.
ويتناول الكتاب المخطوط العربي زن حيث النشأة، والتكوين، وأحباره، وأوراقه، «أوراق ـ برديات ـ جلود»مع شرح عوامل التقادم الزمني الطبيعية، والكيماوية والبيولوجية، من حرارة ورطوبة، وتلوث غازي، وحشرات، وفطريات، وبكتريا، وما تحدثه هذه العوامل من إصابات ومشكلات للمخطوط في صور تبقّع لوني، وتحجر للأورق، والتصاق للصفحات، وانتشار للبقع، والقطوع بين الصفحات، وتآكل الهوامش، وبعض الأجزاء من النصوص المكتوبة.
كما تناول الكتاب أيضًا طرق معالجة هذه الإصابات كيميائيًا، وإزالة تبقعها وحموضتها، وتطريتها، وتقويتها، وفك المستحجر منها، وترميم الأجزاء المتآكلة والناقصة، وأنسب ظروف التخزين الجيد الذي يحقق أجود حفظ لهذا التراث المخطوط، وكيفية تجليد المخطوط واختلافه عن تجليد المطبوعات.
وأفرد المؤلف في نهاية الكتاب بابًا كاملاً عن الميكروفيلم ودوره في حفظ المخطوطات، كما زُود الكتاب بقاموس يشمل أهم المصطلحات العلمية في مجال الصيانة، من واقع ما ورد به.

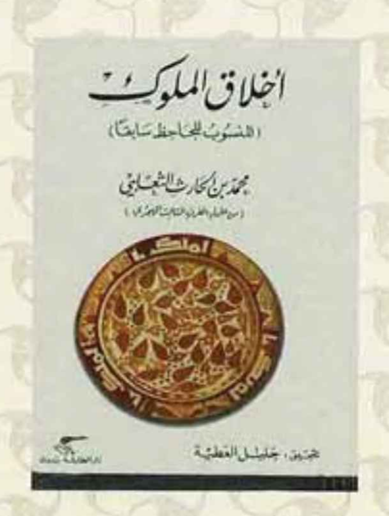


قطب، محمد علي/ يهود الدونمة في تركيا: الأصل والنشأة والحقيقة والخطر ـ القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ١٦٨ص.

يهود الدونمة هم طائفة من اليهود المنافقين الذين أسلموا ظاهراً وظلوا في باطنهم متمسكين بيهوديتهم. يكرهون الإسلام الذي يدّعونه «غير مجبرين»، ويناصبونه العداء، وما زالوا بنفاقهم حتى ارتقوا إلى أرفع المناصب في مركز الخلافة العثمانية، ويملكون الحظوة والنفوذ، وينفثون دسائسهم ومؤامراتهم الخفية حتى خارت قوى الخلافة الإسلامية، وانهارت مع أفول العقد الأول من القرن العشرين.
من مؤسس هذه الطائفة؟ ما فكرها؟ ما أساليبها؟ما دورها الآن؟ ألا زالت فاعلة بالقدر نفسه والمنهج ذاته؟
تلك الأسئلة وغيرها يجيب عنها هذا الكتاب الذي يتناول هذه الطائفة بأسلوب علمي، يسبر أغوار هذه الظاهرة، ويتتبع خيوط مؤامرتها، ويضيف المؤلف للكتاب ملحقًا لبيان

المصطلحات الصهيونية التي وردت في الجزء الأول من الدراسة معتمدًا في ذلك على موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» للدكتور عبدالوهاب المسيري.

الثعلبي، محمد بن الحارث «من علماء القرن الثالث الهجري»/أخلاق الملوك «المنسوب للجاحظ سابقًا»، تحقيق: جليل العطية.. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،٢١٥ص.



كان قد سبق لهذا الكتاب أن صدر عام ١٩١٤م، بعنوان «التاج في أخلاق الملوك» منسوبًا إلى الجاحظ بتحقيق أحمد زكي باشا، وظلت هذه النسبة محل شك وسط الباحثين، حتى ظهرت مخطوطة جديدة في مكتبة برلين لم تكن معروفة من قبل، عنوانها: «آداب الملوك» لأبي الحسن علي بن رزين الكاتب، منسوخة سنة ٦٣٠هـ، وصرح مؤلفها أنه عوّل في تأليف كتابه على عدة مصادر أهمها: «أخلاق الملوك» للثعلبي، واضعًا بذلك حدًا لجدل استمر طويلاً حول المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب.

ويعد هذا الكتاب من الكتب العربية المبكرة التي تتناول الآداب والتقاليد المرعية في بلاطات الملوك بعد أن كان هذا الجانب من التأليف قاصرًا على التراث الفارسي، وإن كان التأثير الفارسي واضحًا في هذا الكتاب، لا من حيث تركيبه ونوع الموضوعات فيه فحسب، بل أيضًا من حيث تنظيمه وتنسيقه وأسلوبه.

ويضم هذا الكتاب ثلاثة أمور أساسية هي:

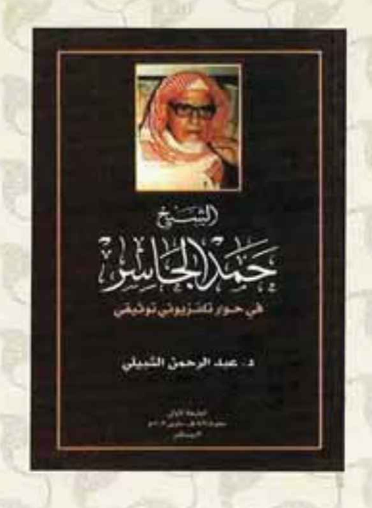
. القوانين أو القواعد التي تعد نواة أصلية للكتاب، والتي يسبقها المؤلف بعبارات: من حق الملك كذا وكذا، أو ليس من أخلاق الملك كذا وكذا؟ أو من قوانين الملك ...إلخ.

. الأمثلة المنقولة عن كيفية تنفيذ الملوك لتلك القواعد والقصص والحكايات المروية عنهم.

. الحكايات والقصص المروية عن الخلفاء والأمراء العرب والمسلمين، ويشغل كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة نحو ثلث الكتاب.

وقال المحقق شارحًا منهجه في تحقيق الكتاب أنه لم يتخذ مخطوطة ما أساسًا معتمدًا، بل أفاد من جميع النسخ المتيسرة، والأصول المطبوعة فنقل عنها متن الكتاب، وذكر المهم من اختلاف الروايات في الهوامش، وقد تعمدّ عدم إثقال هوامش الكتاب بإختلاف الروايات في المصادر إلا عند الضرورة التي تنير النص أو تصحح خطأ أو تقوّم عبارة، وقدّم للكتاب بترجمة للمؤلف وعصره وجهوده، وختم الكتاب بعدد من الفهارس.

الشبيلي، عبدالرحمن/ الشيخ حمد الجاسر في حوار تلفزيوني توثيقي ويليه بحث بعنوان شيخ الصحافة والطباعة والنشر في نجد. الرياض: المؤلف١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ١٢٨ص.



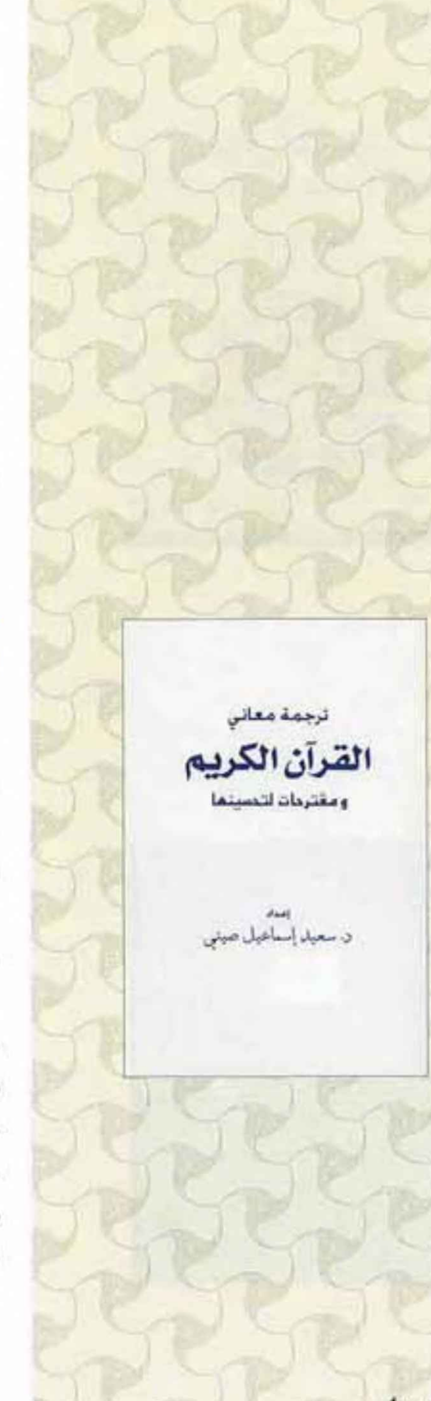
يعتمد هذا الكتاب في، معظمه، على مقابلة تلفازية توثيقية لم تعرض من قبل، كان الكاتب قد أجراها مع علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر في تلفاز الرياض سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ضمن برنامج «حديث الذكريات»الذي حاور فيه المؤلف مجموعة

من رجالات البلاد، الذين كان لهم دور كبير في التأسيس والبناء والتطوير السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو غيرها، وقد صدر هذا الكتاب بمناسبة انعقاد ندوة كلية الآداب في جامعة الملك سعود والتي خصصت لإلقاء الضوء على الجوانب العلمية والإبداعية للشيخ حمد الجاسر، وقد ضم المؤلف إلى الكتاب نص المحاضرة التي أسهم بها في تلك الندوة، وهي تتناول الجهود الصحافية للشيخ حمد الجاسر بعنوان «شيخ الصحافة والطباعة والنشر في نجد».

تناول المؤلف في هذا الكتاب جوانب كثيرة من حياة الشيخ حمد الجاسر شملت: نشأته، وتعليمه، وتجربته الإدارية والتربوية في التعليم والقضاء والصحافة والنشر، كذلك حمل الحديث شيئًا من ملامح البيئة الاجتماعية والعلمية التي عاشها الشيخ أو عاصرها، كما تخلل اللقاء كثير من الحقائق التاريخية والمعلومات المفيدة، والمواقف الطريفة.

ولم يتطرق المؤلف بالحديث عن عالم الشيخ العلمي المتخصص، فلم يتناول آراءه العلمية أو معارفه الأدبية، ولم يطلع القارئ على الرؤى النقدية حول الموضوعات التراثية التي عالجها، فضلاً عن محيط المخطوطات الواسع الذي أبحر فيه الشيخ بمهارة.

ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن البرنامج استهدف فئة معينة من الناس الذين تهمهم المعلومات العامة الطريفة، ولا يهمهم الحديث العلمي المفصّل، بالإضافة إلى أن المقابلة كانت محكومة بحيّز زمني محدد.



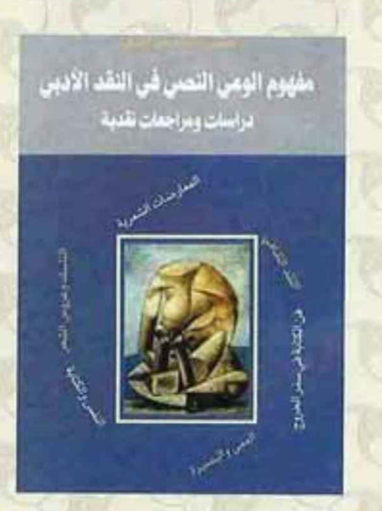
صيني، سعيد إسماعيل/ ترجمة معاني القرآن الكريم ومقترحات لتحسينها - الرياض: المؤلف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١٤٢ص.

يحاول المؤلف في هذا البحث الوصول إلى الرأي الراجح في مسألة ترجمة معاني القرآن الكريم، والخروج بقواعد عامة ترشد المعنيين بترجمة معانيه، وعلى وجه التفصيل فإن هدف البحث يتمثل في التوصل إلى الحكم الراجح في ترجمة القرآن الكريم، والتعريف بطبيعة اللغة «مفرداتها وقواعدها»، وطبيعة الترجمة «معناها وأنواعها ومشكلاتها» في الحدود التي تعنينا عند ترجمة معاني القرآن الكريم، والوصول إلى مقترحات تنظم عملية الترجمة لمعاني القرآن الكريم وتنظم طريقة مراجعتها.

وجاء البحث في خمسة فصول، هي: «الجهود السابقة»، و«طبيعة اللغة»، و«عملية الترجمة»، و«القرآن الكريم والترجمة»، و«مقترحات تنظيمية».

وخلص المؤلف إلى أن هناك حقائق عن طبيعة نصوص القرآن الكريم ينبغي للعاملين في مجال الترجمة معرفتها حتى يكون الكلام مفيدًا، ومن أبرز هذه الحقائق أن الترجمة عملية صراع بين: الحفاظ على الأصل، والعناصر اللغوية، والمضمون، وتوصيل الأصل بمضمونه وأسلوبه إلى القارئ الذي لا يعرف لغة الأصل؛ وأن الترجمة مهما بلغ إتقانها لا تعادل الأصل بأي شكل من الأشكال، وعن طبيعة نصوص القرآن الكريم ينبغي للمترجمين أن يدركوا أن القرآن الكريم كلام الله نظمًا ومعنى، والترجمة جهد بشري، يستحيل أن يستوعب كل المعاني الموجودة في هذه النصوص؛ وهو جهد معرض للخطأ مثله كمثل التفسير.

ويرى المؤلف ضرورة العمل على ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الحية في العالم، لأنها الوسيلة الأفضل لنشر الدعوة الإسلامية ومكافحة الترجمات المشوهة. وشدد على ضرورة الاعتماد على اللجان في إنجاز مثل هذه المشروعات بدلاً من الاعتماد كلية على الجهود الفردية، مع وضع لوائح واضحة لأعمالها وطريقة التعاون بينها.



عز الدين، حسن البنا/ مفهوم الوعي النصي في النقد الأدبي: دراسات ومراجعات نقدية ـ القاهرة: الحضارة للنشر، ٢٠٠٣م، ٢٣٣ص.

يشمل هذا الكتاب ثلاثة أبحاث أساسية، وأربع مراجعات نقدية حول مفهوم الوعي النصي والوعي الكتابي والنقد الثقافي، بالإضافة إلى المعارضات الشعرية والسيرة الذاتية والصورة الشعرية لدى الشعراء العميان، ومداخل نقدية جديدة لتأثير الإسلام في الأدب الإفريقي. وقد نشرت بحوث هذا الكتاب بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٢م في أماكن مختلفة أشار إليها المؤلف في الهامش الأول من كل بحث.

وجاءت بحوث العدد عن: مفهوم «الوعي النصي» في النقد الأدبي: قراءة أولى في شرح اختيارات المفضل للتبريزي وأسرار البلاغة للجرجاني، والنفس والكتابة: من ملامح «الوعي الكتابي» في الشعر العربي القديم، وملامح «النقد الثقافي» في الخطاب النقدي العربي: الغذامي أنموذجًا.

وجاءت المراجعات النقدية عن: «المعارضات الشعرية»: بين التقليد والتناص، و«فن الكتابة»: في سفر الخروج، و«العمى والبصيرة»: أو ثقب اللؤلؤ في الليل المظلم، و«الناسك وعروس الشعر»: مداخل جديدة إلى الإسلام في الأدب الإفريقي.



لا إنكار
في مسائل الخلاف

المجيدي، عبدالسلام مقبل/ لا إنكار في مسائل الخلاف ـ قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ١٩٢ ص «سلسلة كتاب الأمة: ٩٤».

يعد هذا الكتاب محاولة جادة للتأصيل والتأسيس الشرعي لاستيعاب إشكالية الخلاف وكيفية التعامل معها.

وتأتي أهمية الموضوع في أنه يعد دعوة لإعادة تشكيل ثقافة الخلاف، والتسليم بأن ذلك من سنن الله في الخلق وسنن الاجتماع البشري، وأن المشكلة ليست في الخلاف وإنما في كيفية إدارته والتعامل معه.

ويتمحور البحث حول مفهومين أساسين، هما القاعدة الفقهية: «لا إنكار في مسائل الخلاف»، والإنكار نفيًا وإثباتًا؛ اللذين يظهران كأساسيين في هذه القاعدة التي تعبر في عمومها عن كونها قاعدة فقهية، كما تعبر في فحواها عن الإنكار نفيًا وإثباتًا»، ويهتم البحث كذلك ببيان الموقف من الخلاف في المسائل الشرعية، وبيان الموضع الصحيح للاستشهاد بهذه القاعدة، ومدى النسبية والاطلاق فيها، مما يستلزم معرفة القول الصحيح في معيار التذكير والإنكار.

ويحاول الباحث أيضًا استيفاء شرح قاعدة: «لا إنكار في مسائل الخلاف»، وبيان المراد من وضعها في الأصل، وضرورة الاستشهاد بها في موضعها، مع بيان الخطأ والصواب في ذلك.





عالم الكتب (مج ٢٤، ع٥+٦ [عدد مزدوج] الربيعان . الجمادان ١٤٢٤هـ/ مايو . يونيو/ يوليو. أغسطس ٢٠٠٣م)

مجلة محكّمة متخصصة في الكتاب وقضاياه، تصدر عن دار ثقيف للنشر والتأليف.
جاءت بحوث هذا العدد المزدوج من الدورية في إطار تخصصها الذي يهتم بالدراسات التي تتعلق بالمكتبات والمعلومات والببليوجرافيات والنشر وقضايا الكتاب، تصدرتها دراسة عبدالرحمن بن علي السنيدي وكانت بعنوان «مراجعات ابن كثير ونقده لمتون مرويات السيرة النبوية في كتابه البداية والنهاية»، وقدّم حسن عواد السريحي تقييمًا لـ «واقع المكتبات الجامعية السعودية على شبكة الإنترنت»، ووضع فؤاد فرسوني دراسة في المنهج لـ «معالجة المواد غير المطبوعة في تصنيف دوي العشري»، وتناول عبدالوهاب بن محمد أبا الخيل «توظيف تقنيات المعلومات في قطاع المكتبات: دراسة حالة لمكتبة الأمير سلمان المركزية»، وكانت آخر دراسات هذا العدد عن «الدلالات الإيحائية في التراث» قدمه أحمد رزق مصطفى السواحلي.
وفي مجال الببليوجرافيات قدّمت نهلة داود الحمود «دراسة ببليومترية للإنتاج الفكري الببليوجرافي الكويتي في مجال المكتبات والمعلومات» القسم الثاني، إذ سبق لها أن نشرت الجزء الأول من هذه الدراسة في العدد السابق من هذه الدورية (مج ٢٤، ع٣+٤).
وفي باب المراجعات قدّم قاسم علي سعد مراجعة لكتاب «مشيخة النسائي» بتحقيق طلال الرفاعي، الذي سبق للكاتب أن قام بتحقيقه من قبل ونشره في العدد الثامن والثلاثين من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة: «دوريات صدرت حديثًا» مع ذكر عناوينها، أعدها: نجيب محمد الخطيب، «وكتب صدرت حديثًا».

العنوان:
ص.ب: ٢٩٧٩٩ الرياض ١١٤٦٧ المملكة العربية السعودية.
هاتف التحرير: ٤٧٧٧٢٦٩
هاتف الإدارة: ٤٧٦٥٤٢٢
ناسوخ: ٤٧٦٣٤٣٨



عالم الفكر (ع١، مج٣٢، يوليو. سبتمبر ٢٠٠٣م)

مجلة دورية محكّمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.
يختلف هذا العدد من الدورية عما سبقه من الأعداد التي دأبت المجلة فيها على تقديم محور لكل عدد من أعدادها، ويتمثل اختلاف هذا العدد في كونه صمم على تنويع الدراسات التي احتواها لتشمل عدة ميادين منها: الفلسفة والتاريخ والأدب والإعلام والترجمة، وغيرها بالإضافة إلى التجول عبر المناهج والمدارس الفكرية المتعددة مثل الكلاسيكية والحداثة وما بعد الحداثة.
بدأت دراسات هذا العدد بـ «عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية» ركز فيها الدكتور

أحمد زايد على سلبيات الخطاب العربي المتعلق بمعالجة موضوع العولمة، وكانت الدراسة الثانية بعنوان «إمكان الميتافيزيقا أو نقد الحاجة إلى كانط» تناول فيها الدكتور موسى وهبة كانط الذي يضع العقل العلمي في موقع التشريع، ويركز فكره النقدي على التضاد، وله رأي حاسم في حقوق الإنسان الأساسية والسلام، وفي الدراسة الثالثة ألقى الأستاذ زهير بن كتفي نظرة إلى الفكر الأوربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فيما يتعلق بـ«بمنهج الاستشراق الفلسفي» الذي هدف إلى إعادة كتابة تاريخ أوربا الفكري ومناهج تلك الكتابة، وبحث الأستاذ محمد شكري سلام في «ثورة الاتصال والإعلام»، وتناول الجوانب الفكرية والمعلوماتية والتقنية المتعلقة بالإعلام، وناقش الدكتور محمد محمد يونس علي في الدراسة الخامسة «أصول اتجاهات المدارس اللسانية الحديثة».

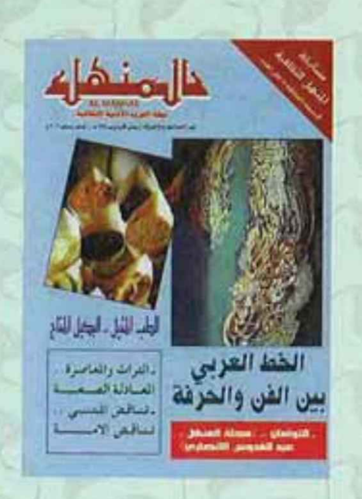
وعرّج الدكتور يوسف وغليسي في الدراسة السادسة على «الرؤية الشعرية والتأويل الموضوعاتي» عند أحد الشعراء الأفارقة وهو: محمد الفيتوري، وركز الباحث على الهاجس الإفريقي في شعر الفيتوري. واهتم الدكتور أحمد بن راشد بن سعيد بلغة الاتصال السياسي و«قوة الوصف» للتأثير في الرأي العام ومضمون الخطاب السياسي، عبر وسائل الاتصال.

وناقشت الدكتورة عفاف البطاينة في الدراسة الثامنة أثر اللغة والثقافة في عملية الترجمة في موضوع بعنوان« الترجمة: تطويع أم تعريب للنص؟»، وجاء البحث التاسع عن «الفكر النقدي العربي وضرورة تصويب الأسئلة»، ورأى الباحث الدكتور كريم أبو حلاوة أن المشكلة تكمن في المصطلحات والمفاهيم النقدية التي يستعملها النقاد الحداثيون العرب لتراثهم أو للفكر الغربي، وختم العدد بعرض لكتاب «عالم جديد يتخلق» للكتاب مانويل كاستي» حول عصر المعلومات وقام بالعرض الدكتور محمد محيي الدين .

العنوان:

ص.ب: ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي ١٣١٠٠ دولة الكويت.

البريد الإلكتروني: Elfikr@nccal. org.kw



المنهل (س٦٩، مج٦٥،ع٥٨٧، جمادى الآخرة ورجب ١٤٢٤هـ/ أغسطس وسبتمبر ٢٠٠٣م)

مجلة للآداب والعلوم والثقافة تصدر في جدة عن دار المنهل للصحافة والنشر المحدودة.

صدر هذا العدد الجديد من المجلة وهو يحتوي على عدد من الموضوعات المتنوعة والتحقيقات والاستطلاعات، بالإضافة إلى الأبواب الثابتة.

فكتب الأستاذ عثمان محمد مليباري موضوعًا عن شاعر العقيق «محمد هاشم رشيد»، كما كتب الدكتور خيرالدين عبد الرحمن عن «تناقض المتنبي نموذجًا لحال الأمة»، وفي مجال التراث بدأ الدكتور محمد عمارة سلسلة حلقات عن «اختلاف القدماء حول أبي حيان التوحيدي»، وفيها يناقش آراء القادحين والمادحين للتوحيدي من خلال مقالات التوحيدي ذاته، كما واصل الدكتور مصطفى عبدالواحد مقالاته حول «المرأة واللغة: مقارنات حول أحاديث النساء»، وكتب الدكتور فوزي الفيشاوي مقالاً مطولاً حول «الإعجاز العلمي في تحريم الدم»، وجاء استطلاع العدد عن «الخط العربي بين الفن والحرفة»



قدمه ممدوح الزوبي.

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة، ومنها: «رحلة في الذاكرة»، و«أحماض أدبية»، و«الفروق في اللغة»، و«شذرات الذهب».

العنوان :

ص.ب: ٢٩٢٥ ـ رمز بريدي: ٢١٤٦١ جدة الشرقية

هاتف: ٦٤٢٧٨٣١ ـ ٦٤٣٩٧٦٥

ناسوخ: ٦٤٢٨٨٥٣

الرياض: ٢٩٠

هاتف: ٤٥٤٢٤٣٢

المجلة العربية للدراسات الدولية (ع١، مج٧، ربيع ٢٠٠٣م)

دورية فصلية محكّمة تصدر عن المركز العربي للدراسات الدولية في بيروت.

تضمن هذا العدد من الدورية بحوثًا رئيسة، إضافة إلى كتاب العدد، فجاء البحث الأول بعنوان «الواقعية البنيوية بعد الحرب الباردة»، لكينيث والتز، و«المناهج التظمية للعلاقات الدولية في الشرق الأوسط» لجريجوري جوز الثالث، و«الإرهاب الدولي: ما هيته وأسبابه وسبل مكافحته» لمحمد بن إبراهيم الحلوة.

وجاء كتاب العدد بعنوان «كيف تشكل القوى العظمى العالم؟» لروبرت باستور. راجعه: باسل رؤوف الخطيب، وقد أجاب الكتاب عن الأسئلة الآتية: ما طبيعة القضايا التي ستفرض نفسها على هذه الدول سواء هذه القوية تقليديًا أم تلك الطامحة؟، وما الدور الذي ستؤديه الدول والمنظمات الجديدة في القرن الحادي والعشرين؟، وما تأثير الظواهر العالمية الطابع وعواقبها في حظوظ دول العالم القوية اليوم ومكانتها؟، وهل ستظهر دول قوية جديدة أم تضمحل وتتتعش بعض الدول الحالية؟، وهل سيعم السلام أم ستستمر الحروب في القرن الحادي والعشرين؟

العنوان: ص.ب: ٠٩١٤ ـ ١١

بيروت ـ لبنان

مجلة البحوث الأمنية (ع٢٤، مج١٢، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ/ يونيو ٢٠٠٣م)



دورية علمية محكمة تعنى بنشر البحوث والدراسات العلمية في مجالات الأمن بمفهومه الشامل، تصدر عن مركز البحوث والدراسات بكلية الملك فهد الأمنية.

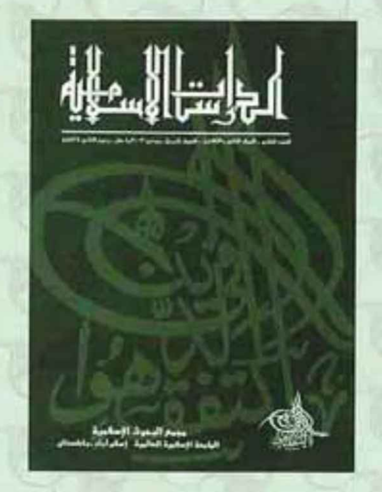
احتوى هذا العدد من المجلة على موضوعات متنوعة ، فقدم الدكتور نورالدين بن مختار الخادمي رؤية شرعية مقاصدية لموضوع الهندسة الوراثية والإخلال بالأمن، وتناول اللواء ركن فهد بن خالد الحارثي موضوع الحس الأمني ودوره في مكافحة الجريمة. وقدم الدكتور يوسف بن أحمد بن عامر الرميح تحليلاً سوسيولوجيًا لأنماط الجريمة واتجاهاتها في شبه الجزيرة العربية في فترة ما قبل التوحيد.

ومن الدراسات الميدانية دراسة بعنوان «المفاهيم الأمنية في كتب العلوم الشرعية بالمرحلة

الثانوية في المملكة العربية السعودية» للدكتور رشيد بن النوري البكر، وناقش الدكتور البسيوني عبدالله جاد البسيوني البعد الاجتماعي للسياسة الجنائية في الإسلام.

وفي باب التقارير العلمية وعرض الكتب والرسائل الجامعية، قدم الرائد عبدالحفيظ بن عبدالله المالكي عرضًا لكتاب «أولويات التدريب الأمني العربي: رؤية منهجية» للدكتور عامر بن خضير الكبيسي، كما قدم الدكتور محمد السيد عرفة تقريرًا عن ندوة حقوق الملكية الفكرية التي نظمتها أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية بالتعاون مع اتحاد الجامعات العربية في الفترة من ٢٨ إلى ١٤٢٤/١/٣٠هـ، الموافق من ٣/٣١ إلى ٢٠٠٣/٤/٢م.

العنوان:
ص.ب :٦٤٦١ ـ الرياض ١١٥٣٢
المملكة العربية السعودية
ناسوخ:٢٤٦١٣٧٦



الدراسات الإسلامية (مج ٣٨، ع٢، الصيف. أبريل. يونيو ٢٠٠٣م/ صفر. ربيع الثاني ١٤٢٤هـ)

فصلية محكّمة تبحث في الدين والثقافة والتاريخ والآداب، تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد في باكستان.

حفل هذا العدد من الدورية بعدد وافر من البحوث والدراسات التي تجري في مجال تخصص الدورية، أبدى في مقدمتها شعبان محمد مرسي بعض الـ «ملاحظات حول التفكيكية»، وتناول بركات محمد مراد سيرة «الإمام الحسن البصري: فقيه البصرة وسيد التابعين»، وجاء موضوع خالد إسماعيل نايف الحمداني عن الجذور التاريخية للشورى وتطبيقاتها في عصر النبوة والخلافة الراشدة»، وفي مجال الدعوة كان بحث محمد أمين حسن محمد بني عامر عن «دعوة نوح ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم: أسسها وأساليبها»، وقدّم رمضان الحسنين دراسة فقهية مقارنة بقانون العقوبات الجنائي المصري لـ «جريمة الردة وعقوبتها». وكان بحث عصمت الله عنايت الله عن «بيع الأعضاء والأجزاء البشرية في الشريعة الإسلامية»، كما ناقش عارف علي عارف «مدى الاعتداد برضا المحكوم عليه بالإعدام في نقل الأعضاء منه»، وختم أحمد إبراهيم أبو شوك بحوث العدد بتقرير خاص عن ندوة عقدت في ماليزيا مؤخرًا عن «شاه ولي الله الدهلوي ـ رحمه الله ـ (١٧٠٣ ـ ١٧٦٢م): حياته وإسهاماته الفكرية للعالم الإسلامي».

العنوان:
Islamic Research Instiute
International Islamic University
Islamabad (Pakistan)
E-mail: smaiqbal@abollo.net.pk
Fax: 92 051 225487



مــافــائدة الاتــصــال؟

خوزيه ساراماجو
ترجمة: أحمد عثمان
الأسكندرية - مصر

فيلسوف إسباني كبير، ينتمي إلى القرن التاسع عشر، يدعى فرانشسكو جويا، معروف للغاية بوصفه رسامًا، كتب ذات مرة: «نوم العقل يولد المسوخ». في الساعة نفسها التي تفجرت فيها تقنيات الاتصال نستطيع أن نسأل إذا كانت هذه التقنيات لا تولد - تحت مرمى البصر - مسوخًا من نمط جديد. بالتأكيد، هذه التقنيات الجديدة هي نفسها ثمرة التأثير والعقل، لكن هل يتعلق الأمر بعقل يقظ؟ بالمعنى الحقيقي لكلمة يقظ، أي الحذر، الساهر، النقدي، النقدي بإصرار؟ أو عقل ناعس، نائم وقت الابتكار والإبداع والتخيل، يبدع ويتخيل مسوخًا.

في نهاية القرن التاسع عشر، حينما أصبحت السكة الحديدية نفعًا ماديًا للاتصال، لم تتردد بعض العقول الكئيبة في تأكيد أن هذه الأداة مخيفة، وأن الناس سيموتون في الأنفاق بإسفكسيا الخنق. أصروا على أنه في درجة سرعة عالية تبلغ خمسين كم في الساعة، ينبجس الدم من الأنف والأذن ويموت المسافرون من الاختلاجات الرهيبة، هؤلاء هم الرؤيويون المتشائمون المحترفون يشكون دائمًا من تقدم العقل، هكذا، في رأي هؤلاء الظلاميين، لا نجد شيئًا ينتج شيئًا طيبًا. وإن أقروا بخطأ الجوهر فيجب أن نقبل دائمًا كون التقدم سيئًا وطيبًا في آن واحد.

الإنترنت كالقطار

على سبيل المثال، يكون القطار تقدمًا طيبًا حينما يقودنا إلى المنتجعات أو ينقل الحاجيات التي نحتاج إليها، ويكون سيئًا حين ينقل المعتقلين إلى المعتقلات أو يحمل معدات الحرب. والإنترنت كالقطار، تقنية غير طيبة أو سيئة في ذاتها، وظيفتها فقط تقودنا إلى الحكم عليها، ولذا لا يمكن أن ينام العقل اليوم كما كان دائمًا.

إذا تحصلت شخصية ما على خمسمئة صحيفة يوميًا من أنحاء العالم بأسره، وإذا تمكنت من الاطلاع عليها، نقول على الأرجح إنها شخصية مجنونة؛ لأنه ليس هناك سوى المجنون من ينوي قراءة خمسمئة صحيفة يوميًا. يلزمه قراءة صحيفة واحدة كل ثلاث دقائق، أكثر من عشرين صحيفة كل ساعة، وهذا يعني أربعًا وعشرين ساعة في كل أربع وعشرين ساعة ... ينسى بعضهم هذه البداهة حينما يشبع رغباته وهو يبلغنا أننا، بفضل الثورة الرقمية، نستطيع استقبال خمسمئة قناة تلفازية. هل تخبرنا خمسمئة قناة تلفازية بصورة فضلى أن الخمسمئة صحيفة لن نستطيع قراءتها؟

السعيد المشترك في خمسمئة قناة يكون محجوزًا بواسطة ضرب من التلهف المضطرب بحيث لا تستطيع أي صورة أن تشبع رغباته، يشرد مضيعًا الكثير من الوقت في المتاهة لتغيير القنوات المستمر. يستهلك الصور، ولكنه لن يستخبر ألبتة.

السقوط المروّع

نقول أحيانًا إن صورة تستلزم ألف كلمة. هذا خطأ. الصور دائمًا في حاجة إلى نص تفسيري. بالنسبة إلينا، لن تكون سوى التفكير في المعنى، حتى في بعضها، إذ يتغذى التلفاز عليها إلى أقصى درجة. نستطيع التحقق من أننا، على سبيل المثال منذ عدة سنوات في أثناء الجولة الأخيرة في فرنسا، بمناسبة السباق النهائي بالشاتريليزيه، شاهدنا، مباشرةً، السقوط المروّع لعبدو چاباروف. تابعنا هذا المشهد كأننا نتابع إنسانًا صدمته سيارة في الشارع. بهذا التباين التقريبي لن تقلب السيارة الشخص إلا مرة واحدة. وعلى أساس أنني شاهد للحدث، لم أستطع إرجاع - إلا إذا كنت ساديًا حقيقيًا - السيارة إلى الخلف لكي أعيد مشهد الحادثة في التلفزة، تمكننا من متابعته وإعادة متابعة السقطة الحادثية لعبدو چاباروف ثلاثين مرة، بفضل ألف إمكانية حديثة في



التقنية، بالزوم ومن دونه، والتصوير من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، ومن زاوية ما، ومن الزاوية المعاكسة، وتحريك «الكاميرا» أماميًا وجانبيًا وكذلك ببطء شديد، نستطيع رؤية المتسابق يسقط من دراجته وجهه يقترب تدريجيًا من الأرض، لامسًا البازلت، وهو يتلوى ألمًا.

في كل استرجاع للقطة، نتعلم دومًا من ظروف السقطة، كيف ولماذا وقعت الحادثة، السرعة، العواقب، إلخ. لكن في كل مرة تقل حساسيتنا. هذا يصبح أمرًا باردًا، كاشفًا ليس الحياة وإنما المشهد، والسينما. تدريجيًا نرى ثانية هذه السقطة ببعد سينمائي مشرحًا مقطعًا من فيلم حركي. انتهت هذه الاسترجاعات بقتل عاطفتنا.

قيل لنا إننا بفضل التقنيات الحديثة، أدركنا ضفاف الاتصال الشامل. التعبير خداع يجعلنا نتخيل باستطاعة الذوات الإنسانية في كوكبنا الاتصال بعضها ببعض، يا للأسف، هذا غير صحيح، لأننا لا نكاد نجد ٣٪ من سكان الكرة الأرضية لديهم القدرة على تشغيل الحاسوب، ومن يستعملون الإنترنت أقل نسبة. النسبة الغالبة لإخوتنا من البشر تجهل حتى وجود هذه التقنيات الحديثة في الوقت الراهن، لا يمتلكون الخبرات الأساسية للثورة الصناعية القديمة: ماء صالح للشرب، كهرباء، مدرسة، مشفى، طرق، سكة حديدية، ثلاجة، سيارة، وغيرها. إذا لم يكن هناك شيء من هذا، فالواقع المتطور للإعلام سوف يغيب عنهم.

مفتاح الثقافة

لا يجعلنا الإعلام أكثر حكمة وعلمًا إلا إذا اقتربنا من الإنسان، مع ذلك إمكانية الاقتراب، من بعيد، من جميع الوثائق التي نحتاج إليها، فإن الخطر يضاعف (اللا تأنسن) والجهل. من الآن فصاعدًا، لا يوجد مفتاح الثقافة في التجربة والمعرفة وإنما في كفاءة البحث عن الخبر عبر مختلف القنوات والمجالات التي يقدمها الإنترنت. نستطيع تجاهل العالم، وعدم معرفة في أي عالم اجتماعي واقتصادي وسياسي نحيا ونمتلك جميع الأخبار الممكنة. حينئذ، يكف الاتصال عن أن يكون شكلاً من أشكال التواصل، كيف لا نأسف على الاتصال الحقيقي المباشر من شخص إلى آخر؟ قريبًا، نصاب بالحنين إلى المكتبة القديمة: الخروج من المسكن، قطع المسافة، الدخول، تبادل التحية، الجلوس، طلب كتاب، إمساكه في اليد، الإحساس بعمل المطبعي والمجلِّد، ملاحظة آثار القراء السابقين، أياديهم، أصابعهم التي قلبت هذه الصفحات، جس علامات إنسانية أجالت بصرها من جيل إلى آخر ...

نحن مخطوفون

وقد استحوذ هاجس الفكرة علينا، تحقق السيناريو الكابوسي المعلن بواسطة أفلام الخيال العلمي: كل شخص مسجون في مسكنه، معزول عما يدور حوله، في عزلة بشعة، مشدود إلى الإنترنت وفي اتصال مع الكوكب كله. نهاية العالم المادي، التجربة، التواصل الملموس، الجسدي ... تحلل الجسد.

تدريجيًا، نشعر أننا مخطوفون من قبل الواقعة المرئية. تلك، رغم ما نطمح إليه، قديمة مثل العالم، قديمة مثل أحلامنا. وأحلامنا تقودنا إلى عوالم بصرية رائعة وجذابة، تقودنا إلى قارات جديدة ومجهولة، حيث عشنا تجارب استثنائية، مغامرات، حب، أخطار، وأحيانًا أيضًا كوابيس، ضد هذا كله حذرنا جويا دون أن يعني لهذا وجوب كبح التخيل والإبداع والابتكار، إذ إنه يكلف غاليًا.

بالأحرى، هذا سؤال أخلاقي، ما هي أخلاق من يودون، أمثال بيل جيتس وميكروسوفت، ربح معركة التقنيات الجديدة، لكي يجذبوا عبرها أكبر منفعة شخصية؟ ما هي أخلاق القراء و«الجولدن بويز» Golden Boys الذين يضاربون في البورصة مستفيدين من تقدم تقنيات الاتصال لكي يخربوا الدول ويصيبوا مؤسسات العالم بالإفلاس؟

غالبية المواطنين استسلموا للخطاب الحداثي والتقني، منفعلين وخائفين، وافقوا على التكيف مع العالم الجديد الذي تبدى لنا كأمر حتمي، لم يفعلوا شيئًا لمعارضته. كانوا سلبيين خاملين وحتى متواطئين. أعطوا الانطباع بأنهم تخلوا عن حقوقهم وواجباتهم. على وجه الخصوص، وجوب الاحتجاج والتمرد، كأن الاستغلال اختفى، ومبادلة العقول انتهت، كأن العالم محكوم من قبل حمقى، وكأن الاتصال فجأة أصبح عملاً خيرًا.

والهوامش

Jose Saramago, Aquoi Sert La Communication, Le Monde Diplomatique, December 1998, N.537

خوزيه ساراماجو، كاتب برتغالي من مواليد عام ١٩٢٢م، حائز على جائزة نوبل ١٩٩٨م. من نتاجه: «تاريخ مقعد ليشبونة»، «عن العمى».

من أنتِ اليوم؟
أم؟ أخت؟ طالبة؟ موظفة؟
أو الجميع معاً؟

نعملين من أجل الجميع
وسعادتكِ من سعادتهم، وتسعين لتحقيق راحتهم.
وتعملين من أجلكِ أنتِ.. لتحقيق حلم قديم،
آملةً دوماً أن تستطيعي حماية كل غالٍ وأن تنالي الأمان
وراحة البال.

ومهما تعدّدت طموحاتك، فالوسيلة واحدة..
شركة الراجحي المصرفية للاستثمار
تقدم لك مجموعة متكاملة من أرقى الخدمات المصرفية
لتلبّي جميع احتياجاتك وتساعدك على تأمين الراحة
والطمأنينة لكِ ولمن تحبين.

تقدمي اليوم بطلبك لفتح حساب الجوهرة
لدى أي فرع من فروع الراجحي
أو اتصلي على هاتف الراجحي المصرفي
٨٠٠ ١٢٤ ١٢٢٢
www.alrajhibank.com.sa



خدمات الجوهرة المصرفية النسائية

جوهر المرأة

شركة الراجحي المصرفية للاستثمار
AL RAJHI BANKING & INVESTMENT CORP.
نعتز بقيمنا